ترجمة و تصنيف : د. محمد بن عميرة

الفتح الاسلامي لبلاد المغرب

في كتابات المؤرخين الفرنسيين

الدار الوطنية للكتاب
نشر توزيع

وزارة الثقافة
الجزائر
ALGERIE
MINISTERE DE LA CULTURE

هدية من المؤلف
إلى الأستاذ الفاضل
موسى هواري مع التمنيات
بالنجاح الباهر
الجزائر يوم 2016/04/05

الفتح الإسلامي لبلاد المغرب
في كتابات المؤرخين الفرنسيين

ترجمة وتصنيف

د. محمد بن عميرة

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافــة
في إطار الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب

الدار الوطنية للكتاب
Maison Nationale du Livre
ص.ب رقم 163D درارية – الجزائر العاصمة
هاتف: 17 53 26 23 (0) 213+
فاكس: 18 53 26 23 (0) 213+
e-mail :watania62@hotmail.com

الإيداع القانوني: 306-2014
ر.د.مك ISBN :978-9931-394-02-0

مقدمة

تطرّقت في عملٍ سابق، إلى موضوع الفتح الإسلامي لبلاد المغرب واعتمدت في إنجازه على المعلومات التي زوّدتنا بها المصادر العربية، وحدها، وها أنا أعالج، هذه المرّة، نفس الموضوع من زاوية أخرى، معتمدًا فيه على ما جادت به قرائح المؤرخين الفرنسيين، الذين اعتمدوا، بدورهم، في كتاباتهم على نفس المادة وراحوا يشرحونها ويفسرّونها ويحلّلونها ويعلّقون عليها ويستنتجون منها أمورا، وفق منهج بدا لي أنّ ظاهره يَطغى عليه الطابع العلمي- العقلاني، في حين أنّ باطنه يطغى عليه الطابع العاطفي الذاتي، واقتناعا مني بأن الاطلاع على مثل هذه الأعمال سيكون مفيدا للقراء باللغة العربية، أقدمت على جمع أهمها وبادرت بترجمتها إلى لغة الضاد وتصنيف أفكارها، مركزا على الجوانب التي تضيف جديدا في الموضوع، بصرف النظر عن قيمة هذا الجديد العلمية، وعن اتجاهه الفكري.

مع العلم أن الغالبية الساحقة من أصحاب الأعمال المشار إليها هم فرنسيون، والقليل منهم أوروبيون كتبوا بالفرنسية، غير أنني أضفت إليهم عربيين مسلمين هما: الجزائري إسماعيل هامت (HAMET Ismail) لأنّه زوّدنا بمعلومات جديدة عن نشاط عقبة بن نافع ببلد السودان في مقال نشره عام 1899 بالمجلة الإفريقية، وكان هذا المقال محل تعليق بعض الكتاب الفرنسيين، أمّا الثاني فهو التونسي محمد طالبي، صاحب كتاب الإمارة الأغلبية والذي كتب عدة مقالات في الموسوعة الإسلامية، وهو لا يكاد يختلف بشيء، في أسلوبه ومنهجه، عن أصحاب هذه المدرسة، حتى أن الذي يقرأ له، دون الاطلاع على اسمه، يصعب عليه تمييز كتابته، عن غيرها من كتابات الفرنسيين أنفسهم، فرأيت أنّه

بالإمكان اتخاذه نموذجا لفئة من المسلمين تأثرت بمنهج تلك المدرسة، خاصة في مقالاته التي نُشرت في دائرة المعارف الإسلامية.

ومن المحاور التي تعرّضَتْ إليها تلك الكتابات والتي اعتنيتُ بترجمة الجديد منها، أسباب الفتح الإسلامي لبلاد المغرب وهذا المحور، على سبيل المثال، لم تُورِدِ المصادر، في شأنه، أية معلومات، ومع ذلك، فإن المؤرخين الفرنسيين حاولوا ملء هذا الفراغ بما ينسجم مع توجهاتهم. أمّا في المحور الذي يليه: "حملة عمرو بن العاص على منطقتي برقة وطرابلس"، فقد اتخذوا من الأخبار المتوفرة في المصادر منطلَقا لبلوغ أهدافهم، وطبقوا نفس المنهج على بقية المحاور وهي على التوالي:

أوضاع إفريقية البيزنطية عشية الفتح الإسلامي وحملة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وحملة معاوية بن حُديج التُّجيبي، ونشاط عقبة بن نافع الفهري قبل ولايته على بلاد المغرب، وولايتُه الأولى عليها، وولاية أبي المهاجر دينار ثم ولاية عقبة الثانية، فولاية زهير بن قيس البلوي وحسان بن النعمان الغساني بعدها ثم ولاية موسى بن نصير وأخيرا مقاومة البربر المزعومة للفتح الإسلامي.

وقد حاولتُ القيام بترجمة أمينة، قدر المستطاع، لكل ما ورد من جديد في المحاور المشار إليها، مبتدئا بأقدم تلك الكتابات ومنتهيا بأحدثها، إلا في حالة الضرورة القصوى.

وأرجو التوفيق من الله، عز وجل، كي أتمكن من تقديم هذا العمل، في صورة لائقة ومفيدة، للقراء باللغة العربية، كأداة يستطيعون الاعتماد عليها في الاطلاع على أفكار غيرهم، في جزء هام من تاريخ البلاد العربية، واتخاذه مادة من المواد التي يستخدمونها لبناء أبحاثهم في تاريخ بلاد المغرب.

- أسباب الفتح الإسلامي لبلاد المغرب:

من اللافت للانتباه أن المصادر العربية عندما عالجت موضوع "فتح بلاد المغرب" أغفلت الحديث عن أسبابه، ومن ثمّ تركت الباب مفتوحا على مصراعيه للاجتهادات والتفسيرات والتأويلات المختلفة، ولم يضيّع الكتاب الفرنسيون الفرصة، فراحوا يعملون على ملء هذا الفراغ بالطريقة التي تنسجم مع اتجاهاتهم الاديولوجية والسياسية.

ومن هؤلاء، على سبيل المثال، Mercier E. الذي يقول: "إنه، بعد انتهاء حروب إقرار (établissement) الدين الإسلامي، بانتصار حقّقته هذه العقيدة، رمَى محمد (Mahomet) (صلعم) المناطق المجاورة لبلاده بأتباعه، ثم صار الجهاد، بعدما رسّمه، الذريعة المتجدّدة، دائما، لتوسّعات (Conquêtes) أخرى؛ وعند وفاة النبي (prophète) أراد عمر، الذي تولّى بعده الخلافة، اتّباع الطريق المرسوم، فتوّج النصرُ أسلحتَه، بحيث أنه بعدما أخضع بلاد الشام، اتخذ قرارا جريئا باحتلال مصر، ولبلوغ هذا الهدف سيّر مساعدَه عمرو بن العاص، حوالي640م، فتمكن هذا القائد من انتزاع إمبراطورية البطالمة القديمة، من أيادي ممثلي هرقل (Héraclius) الضعيفة، مواصلا سيره، بعدئذ، نحو الغرب حيث تقدم إلى كيرِنايكا (Kyrénaique) المعروفة عند العرب ببلاد برقة"(1).

وفي نفس هذا الاتجاه يذهب.Bousquet G.H بقوله: "إن النبي محمد الذي لم تتجاوز توسّعاتُه (ses conquêtes) حدود بلاد العرب،

---

(1) Histoire de L'établissement des arabes dans l'Afrique septentrionale, Constantine- Alger 1875, pp.51-52

توفي سنة 632م، وبعد عشر سنوات، كان أتباعه يحتلون جزءا من بلاد البربر: أرض برقــة (Cyrinaique) ســنة 642م، وأرض طــرابلس (Tripolitaine) عند مدخل إفريقيا الشمالية سنة 643م"[1].

وبالنسبة لــ Terrasse. H. "فإن الإسلام بعد توسّعه السريع فــي بلاد الشام وبلاد الرافدين ومصر وبلاد فارس وآسيا السامية والإيرانية، سجّل توقفا مؤقتا في مدخل عالمين جديدين بالنسبة إليه: اســتبس آســيا الوسطى، حيث يبدأ العالم التوراني، شرق إيران؛ وأراضي الهند وحوافها الغربية، جنوبا[2]"، مضيفا أن "بيزنطــة" بعــدما تركــت بــلاد الشــام ومصر تسقطان، أوقفت الإسلام، بِعَنــاءٍ، شــمال- شــرق (La syrie) إمبراطوريتها الحديثة، ونظمت على الحدود الشــامية لآســيا الصــغرى مقاومة متأخرة لكنها فعالة... فتراجُعُ الإسلام أمام شساعة آسيا الوسطى أو الهندية، واصطدامه بالحاجز البيزنطي، جعلاه يبحث عــن توســعات جديدة في أماكن أخرى"[3].

كما يــرى Terrasse أن قيــام الأســرة (dynastie) الأمويــة واستقرار الخلافة بدمشق أدخل، الإسلام الذي احتفظ بمركزه، حتى ذلك الحين ببلاد العرب (Arabie)، في مدرسة بلاد الشام، فتسلّم، شيئا فشيئا، إرث العالم الإغريقي وتحوّلت الهيمنة (primauté) التي كانت تنعم بهــا بلاد الشام، منذ قرون، في العالم المتوسطي، إلى هيمنة سياسية، وكــان الشاميون الذين دخلوا في خدمــة الخلافــة الجديــدة يعرفــون مســالك (chemin) البحر الأبيض المتوسط، إذ كان تجارهم متواجدين، قبل ذلك

---

(1) Les Berbères, Que sais- je, Presses universitaires de France, Paris1957, p.47.
(2) Histoire du Maroc, des origines a l'établissement du protectorat français, éd. Atlantides Casablanca,1947,livre II, p.76
(3) Ibid.

في الموانئ وفي كل المدن الكبرى للإمبراطورية الرومانية القديمة، والأساطيل الشامية هي التي زوّدت الإسلام بقواته البحرية الأولى ومكنته، في وقت قصير، من السيطرة على البحر..."[1].

وممّا يذكرُ نفس المؤلف أيضا أنَّ "تَأثّر شمال إفريقيا (l'Afrique du nord) وشبه الجزيرة الإبيرية كان أقل من تأثر إمبراطورية الغرب (occident) القديمة بالغارات البربرية (invasions barbares)، أي الوندال، وقد تكون سمعة غناء أراضيها تبرِّر هي التي جذبت إليها الجيوش الإسلامية، فكان أوّل عمل قامت به في توسعها (conquête)، هو الإغارة (razzia)، وستعيش، بعد النصر، على استغلال الأرض المحتلة (conquise) وبذلك ستمكن الخلافة الأموية من هزيمة بيزنطة في شرق بلاد البربر ومن إضعاف قوتها البحرية بالاستيلاء على قسم كبير في السواحل التي استردها جوستينيان(Justinien) "[2].

ويعتقد (Terrasse)، أخيرا، أن الخلفاء الأمويين "كان عليهم أن يوسّعوا حدود الإسلام، بعيدا، لتبرير ألقابهم (leur titre) ولإظهار جدارتهم بخلافة الرسول، قبل غيرهم...، ولذلك أخذت الإمبراطورية الإسلامية تنظّم نفسها قليلا، وكانت في حاجة دائمة إلى قفزة (L'élan) التوسع للحفاظ على نفسها.[3]

1 op.cit., p. 77.
2 id
3 id.

فـــ" كل هذه الأسباب، تقريبا (كما يقول) كانت خارجة عن بـــلاد البربر التي لم تقم بأي عمل لجذب أو لدفع الخطر الإسلامي". [1]

ويلتقي.Terrasse H في كثير من أفكاره هذه مع جورج مارسيه (.Marçais G) الذي يرى: "أنّ التفاني في نصرة العقيدة، إنْ لــم يكــن التعطش إلى الشهادة (la soif du martyre) يجتمعان، بدون شك، فـــي روح تلك الجحافل (contingents) الأولى (من الجــيش الإســـلامي)؛ ويبقى عقبة بن نافع، الذي تمجّد صورته مجموعة من الأساطير، أبـــرز مثال للإسلام المقاتل؛ أما زهير بن قيس الذي استأنف عمله، فقد عُـــرف بحماسته(ardeur) الحربية وبمثالية زُهده......إلا أن مثل هـــذه المـــآثر (traits) نادرة لدى العرب المحتلين (conquérant) فقِراءة الحوليـــات تترك لدينا إحساسا(impression) بأن أمل الحصـــول علـــى الخيـــرات الدُنياوية (temporels) يتغلب (prévaut)، عند غالبيتهم، على رغبـــة الموت في ساحة القتال من أجل العقيدة... فالغرب (l'occident) يبـــدو للشرقيين بمثابة أرض للغنيمة أكثر مما يبدو أرضـــا للجهـــاد (guerre sainte)[2].

وفيما يخص الثروات التي يجنونها، كما يضيف نفـــس المؤلـــف، يجب اعتبار الأرقام مُبالَغا فيها باستمرار، بسبب الفعل المركب (l'effet combiné) للخيال الشرقي، من سَراب (mirage) يقذف به في الماضي ورغبة تعظيم المنافع (avantages) التي أتى بها الإسلام" [3].

وعند وضع المبالغات بجهة (en faisant la part) فإن العـــرب المعاصرين لمحمد، مثل الوندال قبلهم بثلاثة قرون، والبـــدو الهلاليـــين،

(1) op. cit.
(2) La Berbérie musulmane et l'orients au Moyen Age, Paris 1946, p.22
(3) Id.

بعدهم بأربعة، كانوا يعتبرون بلاد البربر أرض الميعاد، غنية مثل البلدان التي سبق لهم احتلالها إن لم تكن (sinon) أكثر، فهي بلاد الحياة السهلة حيث ينتشر الرخاء وميوعة الرؤساء (chefs) الكفار، وهو ما تُجسّده في نظره ظهورابنة البطريق جرجير في أعلى بُرج، وهي محاطة بـــأربعين جارية بديعة الزينة والحلي، ومُشارَكة جرجير في المعركة وراء صفوف جيشه، على ظهر مطيّة رمادية ثقيلة، وإلى جانبيه جاريتان تظلّلانه مـــن أشعة الشمس بريش الطواويس،على أنه ليس بـــديهيا أن تكـــون حاملتـــا المظلات أو بالأحرى الفلابلا (flabella)، هي اختراع محض[1].

غير أن كثرة الأشجار هي التي أذهلت غالبية المهاجرين القادمين من مصر، ومنطقة طرابلس (la tripolitaine)، حسب هـــذا المـــؤرخ: "إذ يرتبط ذكرى ذلك الخصب، في الحوليات، بذكرى تاريخ الكاهنة الذي تطغى عليه الصبغة الأسطورية، فقد تسببت ملكة البربر فـــي تخريبهـــا تخريبا منهجيا" فالبلاد، كما يقال، كانت ظلاّ واحدا من طـــرابلس إلـــى طنجة" وكنا سنلقي برواية العصر الذهبي هذه في مجال الخيال لـــولا أن الشهادات التي سنذكرها والاكتشافات الحديثة لأعمال الري والاســـتغلال الزراعي، في المناطق القاحلة اليوم، جاءت لترد لها بعض الاعتبار وقد كان للمحتلين (conquérants) هذا المفهـــوم (notion) الـــذي بيّنـــت صحته: وهو أن أشجار الزيتون هي التي صنعت ثراء إفريقيا الشـــمالية التي كانت، قبل ذلك، تزوّد روما والقسطنطينية بالزيت؛ والأسطورة هي التي عبرت عن ذلك مرة أخرى فعبد الله بن سعد، بعدما انتصـــر علـــى البطريق جرجير" رأى قِطع النقود التي وُضعت أمامـــه أكوامـــا، ســـأل

(1) Ibid, pp. 22-23

الأفارقة: من أين لهم هذا الورق؟ فجعل الرجل منهم يتلمس شيئا في الأرض، حتى جاء بنواة زيتون، فقال: "من هذا أصبنا الأموال" فقال له عبد الله وكيف ذلك؟ فأجابه الرجل: إن الروم (les grecs) ليس لهم زيتون فكانوا يمتارونه من هنا" (1).

وعلى الرغم من التدهور الاقتصادي الذي لم يتمكن التوسع (conquête) البيزنطي من إيقافه بدرجة ملموسة، يضيف Marçais، فإن بلاد البربر قدّمت للمسلمين موارد حقيقية، محرّكة كلّ الأطماع (à exciter toutes les convoitises): إذ كانت المنفعة الخيالية (fabuleux) المتحصل عليها هي التي تهم الإخباريين، على ما يبدو، في الروايات المتعلقة بالأوقات البطولية للاحتلال وقد أخذ جزء من تلك الثروة طريقه إلى المشرق وانتهى إلى المدينة ثم إلى دمشق ثم إلى بغداد، فضلا عن أنه ثبت أن أكثر من مقاتل (solda) كان يبحث، أثناء الغارة، كيف يستولي على خيرات ينوي إبعادها عن التقسيم (2).

ويذهب Marçais إلى القول: إن الاستيلاء على المدن زوّد الشرقيين بالمال (argent) والأشياء الثمينة (objet de prix) وإن عمليات النهب (pillage) في الأرياف وفّرت لهم ثروات ليست أقل قيمة: أولها الخيول التي يبدو أن قوتها أذهلتهم: فعُقبة المنتصر على سكان بغاية "أخذ منهم عددا (منها) يذكر النويري أن المسلمين لم يروا مثلها في حملاتهم"؛ وجِمَال معروفة بصبرها، كان البربر، على حدّ قول ابن حوقل، يملكون منها أعدادا أكبر مما يملكه عرب شبه الجزيرة؛ وأخيرا وبصفة خاصة الرجال: إفريقيا الشمالية هي خزان لا ينفذ، تقريبا،

(1) Marçais G. : op.cit., p.23
(2) ibid, pp.23-24.

ومع أن المؤرخين يضخّمون الأعداد بسخاء، هنا أيضـــا، إلا أن المـــادة أكثر غزارة (la matière plus abondante) تسمح بتقـــدير أوســـع: فالأسرى يُعدّون بقطعان من عشرات الآلاف، ومن ذلك أن عقبة بن نافع أتى بـــ 80000 على حد قول Théophane، وحســـان ابـــن النعمـــان 35000 وموسى بن نصير 100.000 فالرجال يبـــاعون فـــي أســـواق المشرق... أما النساء البربريات فالرغبة فيهن خاصة، ذلـــك أن عقبـــة، عند تقدمه حتى السوس وتقتيله عدد كبير من المغاربة، أخذ بعضا مـــن نسائهم لم يكن لجمالهن نظير "ويروي النويري أن الواحدة من جـــواريهم بيعت في المشرق بألف دينار".. [1].

وممّـــا يضـــيفه. Caudel M أن"هنـــاك تعليمـــة (Il est un commandement) يسمعها العربي بأُذن صاغية، ويشعر أنـــه علـــى ستعداد تام لإتباعها و هي تلك التي تأمر بـــالحرب المقدّســـة، الجهـــاد، فتعاليم (préceptes) الشريعة القرآنية الأخـــرى مطاعـــة (sont obéis) ولاشك، دون همس، لكن هذه التعليمة تُنفّذ بحمـــاس، وبإمكـــان المســـلم حيِنا مناقشة صيغ آيات الكتاب الأخرى لكن التي تتحدث عن الجهـــاد تستغني عن التعليق، ويقضي الجهاد: الهجوم على أرض الكفار، في دار لحرب، لمطاردة جيوشهم النظامية وإدخال بلادهم في دار الإســـلام، أي مجموع المقاطعات الخاضعة لسلطة أمير المؤمنين، فالعقيدة الإســـلامية، عموما، يمكنها إرضاء طموحات الجنس العربي، وهي تعكس ولا شـــك في ذلك، طريقة تفكيره... ومفهوم الجهاد أَشْبع (satisfit) أكثر رغبـــةَ لتوسع الجامحة وهَوَس المآثر (rage de prouesses) التي كانت تنخر

(1) Marçais G.,op.cit., p.24.

(rongeait) أبناء إسماعيل في القرن السابع: إذ كانوا حتى ذلك الوقت يتقاتلون في حروب لا تنتهي (interminable)، تقوم لأتفه الأسباب وتستمر سنوات، من الإبادة، ولا تنتهي إلا بالإنهاك (épuisement) التام للخصم، وقد وحدت عبقرية (génie) محمد هذه القوى التي كانت تُرهق عبثا، ضد بعضها البعض، وبينت لهم نقطة الضرب فلولا الجهاد الذي أعطى متنفّسا كبيرا لهيجان حروب أتباع (sectateur) العقيدة الجديدة لألتُهم الإسلام في صراعات داخلية دون أن تصلنا أخبارها. وقد اكتسح (envahissent) أتباع محمد العالم بعد موته بقليل، عبر طرق ثلاثة سطرتها لهم الطبيعة فقصدوا ثلاثة اتجاهات مختلفة، ومنها مصر، فلما وصلوها فكروا في أقصى الغرب[1].

وفي رأي Caudel: أنّ ما يُدهش، على الخصوص، في الحملات العربية هو الأهمية التي تحتلها الغنيمة فيها: إذ بمجرد ما تنتهي المعركة يقتسمها المقاتلون، ويبدو، من العناية التي يوليها الإنسان العربي لهذه العملية، أنها تمثل في نظره منفعة أساسية (intérêt capital)، وهاهنا توجد واحدة من التناقضات التي تُحيّر ذهنياتنا (esprit) الغربيّة: فنحن نعرف أن العرب تهيّجهم (enflammés) حماسة دينية كبيرة، ونراهم يخرجون من بلادهم لنشر الإسلام في العالم؛ ويُفترض أنهم منشغلون بنجاتهم (salut) وبالحياة الأخرى وبوسائل نيل مكان جيد (bonne place)؛ ونجعل منهم أمة من المحاربين النّساك، وكل هذا صحيح، لكننا نكتشف أنهم، في آن واحد، جشعون جدّا (très aprés) في الربح (gain) ومهتمون بنفس الدرجة بمصالحهم المادية ومستعدون أحيانا

(1) les premières invasions arabe dans l'Afrique du nord ,21-78/641-697 j.c ,p.27-s.q.

لإخضاع. (Subordonné) كل شيء لها. وهذا التناقض الطبيعي جـدا، في حد ذاته، يذهلنا عنـدما يكـون ميسـورا (elle est portée) لهـذه الدرجة، وهو يترك بسهولة كبيـرة تعـايش إحساسـين (sentiments) متماثلين في القوة، بأنفسنا، حافزين (deux moteurs) إجباريين بـنفس الدرجة في مزاج (deux moteurs) نريد أن يكون أبسط كـي يتضـح لإدراكنا، فعلينا التعود على هذه التناقضات العنيفة، إنها من طبيعة البشر، وعند الرغبة في تقليصها سنبسط كثيرا ما لا يمكن تبسيطه، وللتوضـيح أكثر سنكون أقل صدقا[2].

(2) Caudel M.:op.cit., pp.30-31

- **حملة عمرو بن العاص على منطقتي برقة وطرابلس:**

يلاحظ .Caudel M عن حملة عمرو بن العاص على برقة "أن ابن أبي دينار هو المؤلف الوحيد (من بين المؤلفين العرب) الذي يتحدث عن حملة خاصة لعقبة (بن نافع) على برقة؛ في حين أن الآخرين يتحدثون عن التي قادها إلى زويلة فقط" وبناء عليه يستنتج Caudel أن عمرا يمكن أن يكون وجّه، فعلا، دورية استطلاع (avant -garde) إلى منطقة برقة (Cyrénaïque) ثم وصل، هو نفسه، تحت أسوار مدينتها (Barqa) ليستخدم جيش الحملة التي صارت جاهزة للزحف على زويلة[1].

وبرقة المعنية هنا، حسب (.Julien (Ch. A هي" أهم المدن الخمس المسماة (Pentapole)، وقد سقطت في أيدي العرب منذ خريف سنة 642م. ثم سقطت بعدها كلُّ المنطقة التابعة لها (La Cyrénaïque)[2].

ويبرر .Terrasse H قيام الجيوش الإسلامية بغارات غرب مصر بتعوّد العرب، على طبيعة الصحراء في بلادهم، مما جعل الصحراء الليبية لا تقف حاجزا[3] في طريقهم.

ويطلق .Gautier E. F تسمية قرصنة (Course) على تلك الغارات أو الغزوات التي شُنّت على منطقتي برقة وطرابلس سنتي 641-642م، كما يقول[4].

---

(1) Caudel M.:op.cit., p.45
(2) Histoire de l'Afrique du Nord, Payot- Pairs1966,T.2,P.13
(3) Histoire du Maroc, livre II,P.78
(4) Le passé de l'Afrique du Nord,Payot Paris, 1937,p.249

وفي رأي Mercier E. أن" بربر هُوّارة ولوّاتة الـــذين يســـكنون برقة حاولوا، عبثا مقاومة محاربي الإسلام، فهُزموا، وقد يكونون اشتروا أنفسهم بغرامة ضخمة"[1] كما أنّ "المغتصب جرجير بقي، أثنـــاء غـــزو منطقة طرابلس (la Tripolitaine)، في عاصمته سبيطلة، دون محاولة الدفاع عن بلد كان، قبل ذلك، متروكا للبربر البدو، مع أنـــه كـــان مـــن السهل عليه أن يتوقع بأن العرب الذين أغـــرتهم(alléché)انتصـــاراتهم الأولى، لن يتأخروا في القيام بتوسعات أخرى[2].

وهذا نفس ما ذهب إليه Julien Ch. A.، تقريبا، فيما سجله عن قيام العرب، انطلاقا من برقة، بغارات نحو الجنوب حتى فزّان (زويلـــة) ونحو الغرب حتى طرابلس... ولم يصطدموا حتى ذلك الوقـــت ســـوى بالقبائل البربرية، وقد شجّعتهم لا مبـــالاةُ الاكســـرخوس (l'exarque) على مواصلة غزوهم، مع أنهم حددوا احتلالهم الدائم فـــي بـــلاد برقـــة (Cyrénaïque)، ولم يتخطوا جبل نفوسة [3].

وقد استخلص Caudel M. من روايات المصادر العربيـــة عـــن حصار طرابلس أنه"كان طويلا، وربما كان شاقا على المسلمين الذين لم يستولوا على المدينة إلا عن طريق الحظ السعيد، ثم تمت تصفية سكانها بحدّ السيف (au fill de l'épée)[4] كما استخلص من إرسال عمرو لبُسْر ابن أبي أرطأة إلى ودّان، بعد سيطرته على طرابلس، أن حملتـــه"تُشـــبه الحملة التي قادها عقبة على زويلة وأن كلتيهما حصـــلت علـــى نفـــس النتيجة، وهي أخذ الجزية ثم الانسحاب الفوري، بعد ذلـــك، وفـــي تلـــك

(1) op.cit.,p.52
(2) Ibid, p.53.
(3) op. cit., T.2,P.14
(4) op.cit.,p.46

الأثناء عاد عمرو من طرابلس إلى برقة، وعندئذ فقط، حسب ابن زيني ودحلان، أبرم معاهدة، مع بربر هذه الناحية، تقضي أن يدفعوا له جزية قدرها ثلاثة عشر ألف (13000) دينار"[1].

ويفسر Caudel إرسال عمرو لعقبة بن نافع نحو الجنوب الغربي، إلى زويلة، بما بدا له من أن العرب لم يعرفوا، في البداية ،طريق الاحتلال (conquête) الحقيقي المباشر نحو الغرب، وقد يعود ذلك أيضا إلى تخوّفهم من مجاورة البحر، حيث لم يستطيعوا المغامرة بأنفسهم فيه، لأن شساعته الهائجة كانت مفزعة بالنسبة إليهم، أكثر من فراغ الصحراء الهادئ، ويعترف هذا المؤلف أنه يجهل الغريزة التي دفعتهم في غزواتهم، بادئ الأمر، نحو الجنوب، حيث الرمال والصخور الجرداء والواحات والآبار النادرة[2].

وفي تعليقه عمّا لاحظه من عدم إدلاء المؤرخين بتفاصيل أخرى تتعلق بالاستيلاء على برقة وبحملة عقبة، يرى هذا الكاتب أن هذه الأحداث لا تستحق معلومات أكثر، لأن ما قيل عنها يكفي لتحديد طبيعتها وأبعادها؛ فالإنسان العربي يتوسع بسهولة، وغالبا ما يوقع معاهدات، وقتاله لا يستمر طويلا، ونادرا ما يكون حاسما، لأن ساكن المدن يفضّل التفاهم مع المحتل على الصمود خلف الأسوار، وفقدان السهل (التابع للمدينة) كما أن المحتل، الذي يجهل فنّ الحصار، يفضل التفاوض على تضييع الوقت في عمليات حرب غير مضمونة النتائج: لقد قدم دون مخطط جاهز، وهو يجهل البلاد تقريبا، ولا يعرف أبدا، إلى أين يذهب بالضبط ولا يعرف العدوّ الذي يقصده، وهو يخشى دائما، مساء

(1) caudel M., op.cit., p.47
(2) Ibid.

انتصاره، من التقلّب المباغت للحظّ ومن وصول الإمدادات للعدوّ ومن الهزيمة، ومن ضياع الغنيمة التي تحصّل عليها، ثم إنه غالبا ما يحقق فوائدَ حملاتِهِ في أسرع وقت ممكن، نقدا، ليتمكن من حملها بسهولة أثناء أي انسحاب، ولكي يحصل على المزيد منها، يضع شروطا يسيرة على الساكن الذي لا يهمه أمره كثيرا ولا يحكمُه ولا يُخضعه إلاّ قليلا[1].

والمهم أن القائد العام (généralissime)، حسب نفس المؤلف لم يغادر الغرب (غرب مصر) الذي لم يكد يلمحه، دون أمل العودة، لأن احتلاله كان سهلا، فطرابلس وحدها هي التي دافعت عن نفسها، بدون نجاح، وقد أثبت مساعداه، بتقدمهما إلى ودّان وزويلة، أنه يمكن الذهاب إلى أبعد من ذلك، دون عناء كبير[2].

وحول نفس الموضوع يذكر Julien (Ch.A.) أن عمْرا" الذي هيّجته انتصاراته قد يكون حاول القيام بحملة إلى إفريقية، أي البلاد التونسية[3]. وذهب Caudel قبله إلى القول: إن عمرا لم تكن لديه مشاريع عن الغرب (L'occident)، وهو لم يُرد أن يفعل في إفريقية إلا ما فعله،قبل ذلك، في منطقة طرابلس بقدر كبير من النجاح: أي الاستيلاء بسهولة على البلاد ثُمّ الانسحاب، لأن انشغالاته المستمرة كانت في مكان آخر، وبالتحديد في مصر التي سرعان ما صارت تَطلُب كُلّ عنايته: ففي سنتي 23 و24 أو 25 هـ، حسب ما ذكرت المصادر، حاول الإغريق (الروم) الاستيلاء على الإسكندرية التي خضعت في واقع الأمر، إلى قائدهم مانويل (Manuel)، غير أن هذا الأخير قُتل في

(1) Caudel (M.): op.cit., p.44
(2) Ibid,p.46
(3) op.cit.,p.13

معركة جرت بضواحي المدينة التي سقطت، مرة أخرى، بأيدي العرب[1].

وقد حاول أغلب الكتاب الفرنسيين تقديم وجهات نظرهم في مسألة رفض الخليفة عُمر لاقتراح عَمْرو، الخاص بفتح إفريقية، وفي الرسالة التي ورد فيها جوابه، ومنها: أن Mercier E. يعلّل ذلك الرفض بعدم ثقة الخليفة في بلدان المغرب، التي كان يسميها: البعيدة الغدّارة (lointaine perfide)[2]، ويعلّله Caudel M. باحتراز عُمر من جرأة قائده الحربية[3]. ويردّ Marçais G. ذلك إلى أنّ فكرة إلحاق بلاد البربر بدار الإسلام بدت لعُمر كآخطر مغامرة، وأنّ خطرها أكثر من فائدتها، كما يعود تحفظّه إلى بُعد هذه المنطقة عنه ممّا سيحُول دون مراقبته للجيوش والقادة[4].

وفي تعليقه على مضمون رسالة الخليفة إلى قائده، يذكر Gautier أن كلامها التاريخي الوارد على لسان عُمر، قد يكون تنبؤًا ويُحتمل أن يكون مزيّفا (apocryphe) لكنّه يَختصر، بكل تأكيد، وَهَن الرأي العام المتأثر بالإخفاقات الكثيرة، في شكل الرواية الشفاهية[5].

ويؤيد Terrasse H. كلام Gautier بقوله: إن الرسالة يُحتمل أن تكون مزيّفة، مضيفا أن الخليفة قد يكون بيَّن لقائده فيها أخطار هذا البعيد الغادر، المتمثِّل في المَغرب، وأبقاه في عين المكان[6] ونفس الطريق سلكه Julien Ch. A. فيما رآه، من أنّ تلك الرسالة، إن لم تكن

---

(1) Caudel op.cit.,pp.47-48
(2) op.cit., p.53
(3) op.cit., p.47
(4) La Berbérie musulmane, p.20
(5) Le passé de l'Afrique du Nord, p.249
(6) Histoire du Maroc, livre II, p.78

مطابقة للأصل فهي، على الأقل، تعكس الشعور بالعداء الذي صار يكنّه، فيما بعد، عرب القرن التاسع (الميلادي) لأرياف إفريقية المملوءة بالمكائد[1] ثم يعلق Julien على مضمون روايتين مختلفتين لتلك الرسالة، كما أوردهما ابن عبد الحكم، قائلا: "لم يترك الدرسان (les deux leçons) (أي الروايتان) مجالا لأي شك في الشعور المنسوب إلى الخليفة"[2].

- **أوضاع إفريقية البيزنطية عشية الفتح الإسلامي:**

يُلخّص Caudel M. تعامل الرومان والبيزنطيين، بعدهم، بصرف النظر عن الوندال، مع البربر في طريقتين أو تكتيكين (Deux tactiques)، يعتمد أولهما على تثبيت عدم استقرارهم، مما يحتاج إلى سحق القبيلة ونهبها إلى أقصى حد ممكن، وإجبارها على طلب العفو، والاستيلاء على خيولها وأسلحتها والجزء الأكبر من قطعانها، ورميها مع غيرها في السهل، تحت رقابه مراكز صغيرة، تصل بينها طرقٌ عسكرية، وإقامة خط متعذّر العبور (infranchissable) من القلاع، بين هؤلاء الهمجيّين (barbares) الخاضعين وبين إخوانهم في الصحراء، وقَمع أي تحرّك يهدف إلى الاستقلال، بكل صرامة، والرومان هم الذين تبعوا هذا التكتيك فكَلّفهم غاليا لكنه كان ناجعا، إلى أنْ تصدّع الحاجز (Digue) المقام ضد تدفق البرابرة (barbares)، في بعض نقاطه، وتنطلق الغزو (invasion) من جديد إلى الأراضي الآمنة[3].

ويعتمد ثاني التكتيكين على الاتفاق مع بعض الرؤساء، ومنحهم تشريفات وألقابا وربما مِنَحا، واستعمالهم في إيقاف إخوانهم الآخرين عند

(1) Histoire de l'Afrique du nord,T.2, p.13.
(2) Ibid, p.14.
(3) Les premières invasions arabes, pp.19-20

حدّهم، وغالبا ما كان هذا التكتيك هو التكتيك البيزنطي، وكـــان صــعبا (scabreuse) ويكلّف الخزينة غاليا، كما يؤدي إلى النيل مـــن كبريــاء الإمبراطورية، ولم يكن، فيما عدا ذلك، سوى الافتراض الأســوأ الــذي انتهت إليه ظروف الدولة في نهاية القرن السابع: إذ اختفت قوة القيصر، وأعلن الوالي (gouverneur) استقلالَه، وأصبح يُسيّر المقاطعات القديمة أو علـــى الأقــل بعضـــها، بموافقـــة رؤســاء الأهــالي (des chefs indigènes)، ومارس جرجير، بطبيعـــة الحـــال، السياســـة البربريـــة (la politique berbère) في سبيطلة، واستمر على حالـــه، يســتعمل لصالحه الوسائل التي كان سابقوه يستعملونها لصالح الإمبراطورية. وقد استخدمت الوسيلتان، سابقتا الذكر لغـــرض الســيطرة علـــى الإنســان البربري[1].

والسياسة الإغريقية بإفريقية تبدو لنا بمثابة جهد هائل، حاول فيها شعبٌ متحضّر (policé) إخضاعَ ودمج مقاطعة بعيدة، يهدّدها من كـــلّ جانب، تدفّق البرابرة، وقد تمكن الرومان، قـــبلهم، مـــن ذلـــك؛ وكـــان الإغريق يمتلكون تقاليد هؤلاء لكنهم لم يمتلكوا قوّتهم، فبذلوا أقصى مـــا في وسعهم، ولم ينتج عن مجهوداتهم سوى تهييج (déchaîner) موكـــب مرعب من النكبات علـــى مُـــزَاق (Byzacène) والولايـــة البيزنطيـــة (la proconsulaire) وإنهاء تحطيم العمل اللاتيني بكامله في إفريقية[2].

ففي بداية القرن السابع، إذاً، كان البلد، إسميا على الأقـــل، تحـــت السيطرة البيزنطية، لكن قوة الإمبراطور (Basileus) كانت منعدمـــة، إذ حاولت عبثا، لمدة حوالي مائتي عام، إعادة النظام والأمن إليها، حيث أنّ

---

(1) Caudel: op.cit., p.20
(2) Ibid, p.10

البيزنطيين شرعوا، بمجرد نزولهم في مُزاق (Byzancium) سنة 533م، في إقامة سلسلة من القلاع (forteresses) ثم راحوا، بعد ذلك، يحاولون إدارة المقاطعة، لكن أمورهم باءت بالفشل، على الرغم من مظاهر بعض النجاح، إذ أن ثورات البدو (maures) المستمرة وعصيان الولاة، والاضطرابات التي سببتها الصراعات الدينية، أفلست سلطة الإمبراطور، لدرجة جعلتها منعدمة، عند بداية تاريخنا (تاريخ الفتوحات الإسلامية)، وضُعفُ الإغريق يفسر جزئيا نجاحَ العرب[1].

وكان سكان القرن السادس مستضعفِين (diminuées) ومُعوزِين (appauvries) يكتفون، بما تيسّر لديهم، من صُدف المحاصيل، فلم تَعُد لهم مرونة الماضي الاقتصادية، وكانت الضرائب الباهضة المسلطة عليهم كافية لجعل وسائل استمرارهم على قيد الحياة دون الحدّ الأدنى اللازم[2] ولما آل الحكم للعسكريّين في المقاطعة، نجحوا أكثر، تقريبا، في الدفاع عنها ضد البدو (les maures) إلا أنهم كانوا قليلي المرونة مع السلطة المركزية: ففي سنة 608م. احتجز Héraclius في قرطاجة سفن القمح، التي صدرت إليه أوامر بإرسالها إلى القسطنطينية، وفي 610 خرج ابنه الصغير الذي يسمى مثلة (Héraclius) ضد المغامر الصغير phocas فخلعه وتُوّج إمبراطورًا في مكانه، وبعد ذلك دخل تاريخ إفريقية في غموض إلى سنة 646م. حيث انتهز المسمى البطريق جرجير (Grégoire) فرصة قصور (minorité) الإمبراطور Constant II الذي لم يتجاوز سنّه الخامسة عشر،متذرّعا بالميل الذي كنّ هذا الأخير يبديه لمذهب الوحدانية (monothélisme)، وأعلن نفسه

(1) Caudel, op. cit.,
(2) Ibid, p.9 .

إمبراطورا فوجد، على ما يظهر، تأييدا واسعا من السكان، بمن فيهم الأفارقة المُرومنون والقبائل البربرية،وقد يكون سبب مغادرةِ Grégoire قرطاجةَ إلى الداخل للإقامة في مدينة سبيطلة، الكبيرة والغنية، راجعا إلى رغبته في الاقتراب من حُلفائه، فكانت تلك هي نهاية السيطرة الإمبراطورية على إفريقية[1].

ولا يختلف ما ذكره Julien (Ch. A.) إلا قليلا عما ذكره Caudel، فالبيزنطيون، بالنسبة إليه، عندما استعادوا المقاطعات الرومانية القديمة سنة 533م وطردوا الوندال بَدُوا وكأنهم استأنفوا، وبكل بساطة، التقاليد الإمبراطورية التي عطّلها جنسريك (génseric) وأتباعه مدة قرن تقريبا. والواقع أن إفريقية البيزنطية لم تشبه بالمرة إفريقية الرومانية، وهذا ما يفسرّ، تقريبا، سبب الدور المحدود الذي لعبه البيزنطيون عند ظهور المحتلين (conquérant) المسلمين.[2]

فالأرض التي احتلها البيزنطيون كانت أقلّ بكثير مما كان يحتله الرومان، وكانت الأراضي المتروكة تنفصل ببطء عن الحضارة الرومانية لتعود، شيئا فشيئا، نحو التقاليد البربرية القديمة، وكان ذلك سهلا في الأرياف حيث كان دخول الرومان قليلا؛ أما في المدن والقرى فالبربر المُرومَنون كانوا يبتعدون تدريجيا، كما لو كانوا مُكرهين، عن نمط حياة أعجبهم، ومهما كان فالبربر: ريفيون ومدنيّون، كانوا استرجعوا عادةَ الاستقلال السياسي الذي كان يبدو لهم ثمينا، وفي داخل المناطق الخاضعة لبيزنطة نفسها كانت تُشتم رائحة حاجة التحرر

---

(1) Caudel (M.): op. cit., pp.12-13

(2) Histoire de l'Afrique du nord, Payot- Paris 1966, T.2, p.9

السياسي: إذ كانت تَجمُّعات بربرية كبرى، تظهر مستقلة بوضوح، على ما يبدو، عن حاكم قرطاجة[1].

إضافة إلى أن البيزنطيين لم يجلبوا لإفريقية نفس الصلابة (solidité) التي جلبها لها الرومان: فقد جاءوها بخلافاتهم الدينية وأحدثوا بعض الانفِعالات، في كل المجتمعات المسيحية بالبلاد، وزرعوا بذور الفتنة[2]، ولم يكن موظفو بيزنطة، أخيرا، مِثاليّين في علاقتهم مع السلطة المركزية: إذ كانوا يتفحّصون الأوامر قبل تطبيقها، إنْ طبقّوها أصلا، وقد جاءت موت هرقل (Héraclius) ووصول إمبراطورٍ، في بداية مراهقته، إلى السلطة، وهو قنسطنس الثاني (constant II) سنة 641م، لتزيد من حدّة الاتجاه النابذ (tendance centrifuge) للسلطة المركزية: ففي سنة 646 ثار البطريق جرجير (Grégoire)، حكم إفريقية البيزنطي، على حكومته وأعلن نفسه إمبراطورا[3].

تلك هي إفريقية التي ستتلقى هجوم المسلمين، بلدٌ بدون تماسك (cohésion)، في حالة الابتعاد عن حضارة تحتضر، تاركة، شيئا فشيئا للمؤسسات الرومانية، لتعود إلى التقاليد السالفة، قليلةُ الخضوع لرؤسائها البيزنطيين الذين ينفصلون بدورهم، عن حاضرة بلادهم[4].

ولم يعثر .Fournel H، عندما حاول التعرّف على وضعية إفريقية، عشية الفتح الإسلامي، إلاّ على ما يفيد أنّ هرقل (Héraclius)، والد الإمبراطور المعروف بهذا الاسم، كان إكسرخُس (exarque) إفريقية، عندما اجتاز ابنه البحر لتنحية phocas، وأنّ قاصده الرسولي

---

(1) Julien, op. cit., t.2, p.9.
(2) Id.
(3) Caudel: op.cit.,p.10
(4) Ibid, pp.52-53

(légat) هو البطريقgrégoras، وأنّ الاثنين كانا في وضعية اســتقلال وثورة معلنة، بحكم أنهما توقفا عن إرسال محاصيل إفريقية ومصر إلى القسطنطينية، بإيعاز من بريكسوس (priscus)، صهر فوكاس، ولا شك أنّ إرسال تلك التموينات، قد استؤنفت أثناء حكم هرقل (Héraclius) إلاّ أنه من المؤكد أن المصرية منها كانت متوقّفة، عندما سقطت الإسكندرية بأيدي المسلمين، في بداية حكم قُونسطانس الثــاني ســنة 642م، وقــد انقطعت أخبار كلّ المصادر عن إفريقية في هذه الفترة. ومن الأحــداث التي وقعت مباشرة، بعد موت هِرقل سنة641م. أو بالأحرى موت ابنــه قنسطنطين الثالث، يمكن إقامة الدّليل على أنّ سبتة كانت آنــذاك تابعــة للإمبراطورية، ما دام هِرقلوناس (Héraclonas) نَفَى إليها فيلاغريوس (philagrius) خازن (trésorier) أخيه. وفي شرق إفريقيــة، عنــدما استولى العرب على طرابلس سنة 23هــ/643-644م، استغاث السكان بالنفوسيّين، مما يدفع إلى الاعتقاد أنّ بيزنطة لم يعُد لها أي وجــود فــي منطقة طرابلس، أما في إفريقية بالذات فقــد كــان يحكمهــا شــخص يُسمّى جرجير (Grégoire)، عقَد ســنة 646م. نوعــا مــن المعاهــدة (une espèce de pacte) مع الأهالي، شروطها غير معروفة، ونصّب نفسه حاكما (souverain) بانفصاله عن القسطنطينية (métropole)، ما دام ضَرَب الدنانير على وجهه، حسب ابن عبد الحكم[1].

وبالنسبة لــ .Mercier E فإن" البطريق جرجيــر (Grégoire)، ممثل إمبراطور الشرق في إفريقية، كان قد ترك مقره، قرطاجــة، قبــل تلك الأحداث(فتح برقة و طرابلس) وانتقل إلــى ســبيطلة حيــث حمــل

(1) Les Berbères ,T.1,p.109

الأرجوان (la pourpre)، واستلم حاكم آخر، أرسَلْته بيزنطة، ولاية قرطاجة والأراضي الضيّقة التي استمرّ وَلاؤها للإمبراطورية، وهكذا كان الإغريق، في حالة الاحتضار (au moment suprême) ينتزعون من بعضهم البعض، بخلافاتهم الداخلية، كلّ وسائل المقاومة الجديّة، بدلا من تجميع قواهم لصدّ المحتل[1].

- حملة عبد الله بن سعد بن أبي سرح:

يعتقد Fournel H. أن ابن أبي سرح" يكون قد أرسل، ولا شك، دوريات (des détachements) للقيام باستطلاعات (excursions) سريعة على حدود إفريقية سنة26هـ، وأن نجاحها هو الذي جعل الخليفة عثمان يقرر القيام بغزو (Conquête) هذا البلد سنة27هـ"[2].

ويرى Caudel M. أن حملات تشبه تلك التي قادها عقبة وبُسر وعمرو نفسه، ربما لم تكن نادرة، فهي سهلة ومُغرية جدا، بالنسبة لجيوش المقيمة في مصر وبرقة، تُتيح لها فرصة كسر الجمود، وهكذا كانت جرائد الخيل (corps de cavalerie) تذهب لجسّ نبض حدود إفريقية، في ولاية عمرو بن العاص وولاية خَلفِه، ومن حقّنا(كما يقول) أن نفترض أنّ حملات بسُر بن أبي أَرْطَأة وعقبة بن نافع وعبد الله بن سعد وقائديْن آخرين، يسمَّى كلّ منهما عبد الله بن نافع...، كانت تخرج سنويا، من سنة 21 إلى سنة 27 هـ، إلى الجهة الأخرى من سُرت، بحثا عن الاتصال مع بقية القوى (puissance) البيزنطية"[3]، ويبرّر هذا الكاتب إرسال ابن أبي سرح لسرايا (escadrons)، نحو الغرب،

---

(1) op.cit.,pp.52-53
(2)op.cit.,p.110
(3)op.cit.,p.48

للاستكشاف، بمجرّد أن عُين سنة25هـ/644م. بما كانت له من أهداف حقيقية (de bonnes raisons)، ومنها: الفضول بالنسبة للمجهول الذي لَمَسه هو نفسه، أثناء حملة عمرو الأولى على طرابلس، وأمل الغزوة (ghaziah)، والانشغال بنشر العقيدة الإسلامية، وبالأخص، على ما يَظن، الرغبة في استعمال الجنود العاطلين الذين كانوا يمثلون عائقا (embarras) يُمْكن أن يتحول إلى مشكل، فقد كان يرسل المتلّهفين(impatients) منهم للاستكشاف، وربّما كانت غزواتهم كثيرة ومتتالية.(1)

بل إنّ (ch.A.) Julien يذهب إلى القول:إن عبد الله بن سعد يكون " قد قام بغارة جانبية أولى (Une première Pointe) سنة 645 أو 646، لكن الغزوة (razzia) الكبرى التي زخرفتها الأخبار التاريخية العربية بأحداث عجيبة وخيالية وقعت سنة 647م."(2).

ويقول (C.H.) Becker "إنّ عبد الله قام بحملات مختلفة (divers) ضدّ إفريقية الرومانية (Romaine): يُفترض أن تكون أولاها قامت سنة 25 هـ/(3)645-646م، لكن الأهم والأكثر مجدا أيضا لم تَحدُث إلا سنة 27 هـ/647-648م، وهو ما يُذكّر بما لاحظه Caudel من أن "الغزوات الأولى والكثيرة، بدون شك، يمكن أن تكون أَرْبكت مصادرنا وتسبّبت، بكل تأكيد، في الْتباس (CONFUSION) التواريخ التي تُسجّل أحيانا في رواياتهم وهذه، مع ذلك، تختلف قليلا، ولا نتردد بالنسبة للحملة الكبرى الأولى إلا بين عددين: (26 أو 27هـ/ 645-646م أو 646-647م).... مع العلم أن المؤرخين البيزنطيين يحدّدون

---

(1) Caudel, op. Cit.
(2) op.cit.,p.14
(3) E.I.,nelle éd, Leyde-Paris1960,T.1,art. Abd Allah b.Sa'd,p.53

تاريخ وقوع هذا الحدث بالسنة السادسة من حكم الإمبراطور قُنسطانس الثاني (.Constant II)، وهو ما يوافق سنتي 646-647م وبالضبط سنة 27هـ"[1].

وقد تسبب الالْتباس في التواريخ في التباس آخر: حيث أنّ "تحديد تاريخ حملة عبد الله (بن سعد) بسنتي 25 أو 26هـ. جرّ (بعضَ) المصادر إلى اعتبار عمرو هو المُوحِي (Inspirateur) بها، والواقع (أنّ)... عمرا صار بعيدا آنذاك عن مصر، ولم يكن يستطيع المشاركة في تنظيمها، وكان عبدالله بن سعد خَلَفه سنة25هـ...و لم يصل إلى هذا المنصب الرفيع إلا بفضل الخليفة، ولن يجرؤ على القيام بحملة جديّة كهذه دون موافقة سيّده (son maître) وحاميه..."[2].

ويحاول G. Marçais إعطاء تفسير لتبلور فكرة فتح إفريقية اعتمادا على رواية لأبي العرب، تُنسب كلاما إلى الخليفة عمر بن الخطاب (رضه) مفاده أنّ" إفريقية باب من أبواب جهنّم" ثم يعبّر نفس المؤلف عن ميله إلى"مقابلة هذه الإدانة (condamnation) المدهشة بالتأكيد المنسوب إلى النبي محمد (صلَعم) نفسه، من أنّ بابا من أبواب الجنة يوجد، بالضبط، في إفريقية؛ ومع أن هذا الحديث ليس أقل تزويرا من ذلك الكلام (كلام عمر)، فقد يكون ورد لتغيير المصير السيّئ العالق ببلاد البربر، وحثّ المؤمنين على طلب الشهادة فيها، فقد ظهر المغرب (occident)، بالنسبة للمشرق، منذ وقت مبكر جدا، كأرض مباركة للجهاد، وقد أُعْلِنَت عن ذلك أحاديث كثيرة، يكون من اللائق التمييز بينها. إذ يحتمل ألا تكون كلها عائدة إلى ساعة مبكّرة، فلم تُؤلّف

(1) Les premières invasions arabes,p.52
(2) Ibid, pp.52-53

(inventés) لتشجيع الانطلاقة الأولى نحوِ الغرب، بل من المتوقع أنهـا تدّرجت مع الوقت، وطبعت ما يمكن تسـميته تحـوّلات متتاليـة علـى الجبهة، وبالفعل فقد أتتنا بعض الأساطير بصدى الغارات (incursions) الأولى على بلاد البربر ومنها، على سبيل المثال، أنّ النبي بعث"سـرية في سبيل الله، فلما رجعوا، ذكروا شدّة البرد الذي أصابهم فقال رسول الله – صلعم–: لكن إفريقية أشدّ بردا وأعظم أجرا"... هذه الروايات الباعثة على التّقوى تَربط، رغم كل الاحتمالات، تاريخ التوسع الإسلامي فـي بلاد البربر بشخص رسول الله الوقور، وإذا كان من غيـر المعقـول أنْ يكون محمد عبّر عن رأيه في حرب ستجرى بعد وفاته بخمـس عشـرة سنة، فإنّ ذكراه تبقى، مع ذلك، مرتبطة ارتباطا غير مباشر بـالاحتلال (الفتح) عن طريق ما لعبه فيه أصحابه من دور... فقد قرر عثمان، بناء على معلومات شجعتة، تَلقّاها من منطقة طرابلس، إرسال حملة، لكنه لم يأخذ قرارا نهائيا، في ذلك، إلا بعد استشارة الصحابة: فالخليفة المتـردّد (scrupuleux) كان يحتاج إلى تـدعيم قـراره باسـتفتاء المـؤتَمَنين (dépositaire) على سُنّة الرسول، في مشروع يرهن مصير الإسـلام فشكّل الصحابة،ومن بينهم مهاجرون حقيقيون...أُطْرَجيشِ الاحتلال، ومع كل واحد منهم جماعة من قبيلته..."[1].

وحسب Caudel فإنّ المعلومات التي شجعته على اتخاذ قـراره وردت في"تقارير المستكشفين الذين أُرسلوا إلـى حـدود إمبراطوريـة جرجير (حيث بَيَّنت) وجودَ بلدٍ عامر وغنـيّ، وراء منطقتَـيْ سـيرت (الكبرى والصغرى)، يبدو الدفاع عنـه ضـعيفا. والعـرب يعرفـون،

(1) La Berbérie musulmane, pp.20-21

بالتقريب، أن حاكمه هو والٍ بيزنطيّ ثائر، سلطته ضعيفة، فبدت لهم فوائدُ القيام بحملة عليه مُعتبرةً، والأخطار فيها مقلَّصة إلى الحدّ الأدنى، (وكان) في مصر جنود سئموا (الفراغ)، وفي الحجاز رجال كثيرون لا يطلبون سوى السيّر (للقتال)، وكان وجود هؤلاء المقاتلين غير مُطمئِن كثيرا للخليفة العجوز، عثمان، الذي سارع بانتهاز الفرصة للتخلص منهم،فبعث العاطلين (désoeuvrés) من المدينة ومصر إلى الغرب، وهو يَعرف، عن طريق التجربة، أنهم لن يعودوا إلى الجزيرة العربية بعد خروجهم منها..."[1].

فعثمان، في رأي نفس الكاتب، لم يكن يخاف، مثل عمر، على جيوش الإسلام، من البعيد الغادر (le lointain perfide)، وكان أكثر سعادة لمنح فرصة البروز لمحميّه (son protégé)، من عمر الذي كان قليل الانشغال (peu soucieux) بإضافة نصر جديد إلى عمرو، وربما كان (عثمان) على علم بالاضطرابات التي كانت تحرك (agitait) المنطقة، آنذاك، فقد كانت ثورة الحاكم (gouverneur) جرجير (Grégoire) على قنسطانس الثاني (Constant II) سنة 26هـ/646م، وكان العرب يعرفون"جرجير" هذا، كما يسمونه، وربما كانوا يعرفون أنّ وضع حكومته كانت سيئة..."[2].

والبطريق جرجير هذا، حسب الجنرال Brémond هو خلَف أخيه Héraclius، بعد ذهابه إلى القسطنطينية لتنحيةphocas العاجز وتولية ... أعلن استقلاله سنة 642م، عند بلوغه وفاة ابن أخيه

(1) Les première invasions arabes, pp 72- 73.
(2) Les première invasions arabes, p.49

الإمبراطور، مما جعل الإخباريّين العرب يقولون: "إن مقرّ حاكم إفريقية كان، آنذاك، مدينة يقال لها قرطاجة، وكان ملكها جرجير: (George،Grégoire)، وهي كلمة إغريقية تعني فلاحا، في الأصل..... "[1] علما أن Brémond يوثّق كلامه هذا من ابن عبد الحكم، دون ذكر الصفحة وأن هذه المعلومة غير موجودة أصلا؛ في الطبعة المستخدمة في العمل.

ويذكر Brémond أيضا أنGrégoire تخلى عن قرطاجة، كعاصمة، واستقر بسُبَيْطلة وله قصر بتيمقاد... وأن البيزنطيين بقيت لهم حاميات في قرطاجة وبعض المدن الساحلية"[2].

ويستنتج Caudel من القائمة الطويلة لأسماء المشاركين في تلك الحملة، كما سجّلها المالكي وصاحب كتاب معالم الإيمان بأنها "تُبين إلى أية درجة كانت إفريقية تشغل بال المسلمين، إذ يوجد فيها: أبناء الخلفاء وصحابة الرسول، وأشد السواعد (les meilleurs bras) وأكثر الناس عنادا (les plus fortes têtes) في الإسلام، ولكي ينضم أُناس بهذه البسالة (valeur) إلى الحملة، لا بُدّ و أن تكون مُعَدة بعناية، وأن يكون الخليفة اعتبرها هامة، ولا يخشى أن يبعث فيها أكثر الناس وفاء إليه"[3].

ويصف هذا المؤلف الأخير، قائد الحملة، عبد الله بن سعد، "بالمحارب الباسل (de valeur) الذي أثبت جدارته في جيش مصر الذي قاده فيها، وبأنه أكثر حظا من سابقه، عمرو، لحصوله على إذن أمير المؤمنين بغزو (envahir) إفريقية"[4]، كما أنه يربط بين ما نقله المالكي عن الواقدي في شأن" إرسال عبد الله بن سعد بن أبي سرح لسرايا إلى

---

(1) Berbères et Arabes, La Berbérie est un pays européen, Payot- Paris, P. 180.
(2) Id.
(3) Op. cit.,p.63.
(4) Ibid,p.49.

حدود إفريقية، بعد توليته مصر، مكان عمرو سنة 25 هـ، و(بَيْنَ) ما أورده ابن عبد الحكم، من إرسال عقبة بن نافع في مهمة من هذا القبيل، والتي قام فيها بالتوجه من غدامس إلى ودّان سنة 26هـ" ليَخلص إلى نقول بأن عقبة "لم يعد (من تلك الحملة) إلى مصر، بل عاد إلى برقة فقط، حيث لقي... الحملة الكبرى"[1] ويتوقع أنّ جيش عقبة شكّل إمدادا جنيا لجيش ابن أبي سرح، لأن رجاله "كانوا أفارقة قدماء (vieux)، من عهد عمرو بن العاص، يعرفون البلاد جيدا وكذلك الحرب التي يمكن لتعزم بها فيها، وقد سبق لهم وأن فاجأوا طرابلس سنة 23هـ، ورجعوا تحت أسوارها، وربما أعادوا حصارها فكانوا أقل حظا هذه المرة[2]. إذ تلقى فيها جيش عبد الله بن سعد، في بداية الأمر، فشلا، تحت أسوارها: عند قدومه، وهذا في رأي Caudel كان إخفاقا من وجهة النظر العربية، فهي ليست إلا خيبة أمل، وإذا كانت بطرابلس غنيمة جيّدة جدا، تُدافع عن نفسها. فإن وراءها يوجد أثمن من ذلك، وهاهم العرب ينطلقون نحو قابس ويدخلون إفريقية..."[3] ويلاحظ أن صاحبي كتابي: رياض النفوس ومعالم الإيمان، قدّما معلوماتٍ حول هذا الحصار، معتقدا أنه" لم يكن عموميتها وغموضها هدف آخر، على ما يبدو، سوى حَجْبُ فشل الجيش الإسلامية: فأهل طرابلس الذين تعلموا من مصائب عام 23هـ، تحصنوا جيدا، ولاحظ العرب ذلك، وقد يكون المحاصرون اكتفوا بنهب الضيع المحيطة بها...وانتقم الجنود من المناطق السهلية"[4]. ثم انطلقوا نحو قابس ودخلوا إفريقية[5].

(1) Caudel: op.cit., p.5.
(2) Ibid.
(3) Ibid.
(4) Ibid, p.65
(5) Ibid, p.73

وما يلاحظه Caudel عن هذه الانطلاقة: أنّ ابن أبي سرح "لــم يجد مقاومة في طريقه نحو الغرب... فقد مرّ بقابس، دون أن يَذكر أحد ما إذا وجد بها حامية، بإمكانهـــا إزعـــاج مســـيرته أو تعطيلُهـــا، دون إيقافها... ولم تُزعجه مواقع مزاق (Byzacium) أكثر من ذلـــك، فقــد كانت أهميتها، ولا شك، ضعيفة جدا، وكانت جرأته أكبر من أن يعير لها أهمية، إذ كانت في سنة 641م، حسب السيد Diehl، حامياتٌ بطرابلس وسبراتة وقابس، وكانت حدود مُزاق تصل إلى حدود الشطوط الشمالية، وكانت خلفها مدن مهمة كثيرة، لا يعرفهـــا المحتـــل (le conquérant) العربي، ولا يزيد المؤرخ الذي سجل أعماله عن ذكر واحدة أو اثنتـــين: أوّلها سبيطلة، لوجود حاكم البلاد والجيش الذي يدافع عنـــه بهـــا، ولأن الصّدام الحاسم وقع بها. والآن أصبحت مسيرة العرب واضحة: يمـــرّون تحت جدران المدن المحصّنة، متفادين الحاميات التـــي يُحيـــل ضـــعفها الكبير، بينها وبين إعاقة تقدّمهم بمهاجمتهم من الخلف، ويتفادون أيضـــا المراكز السكانية التي حمل سكانها الســـلاح عنـــد اقتـــرابهم واحتمـــوا بتحصينات مؤقتة (hâtives) لكنها كافية لتعطيلهم ويُغرّمون المدن الأقل نفورا، دون انشغالهم بتسمياتها وهم في طريقهم إلى العدو بسبيطلة[1].

والعرب، في نظر نفس الكاتب: هم فرسان ومغامرون، لهم مـــن الأوائل الجرأة الموثوق بها، في غارات يقودونها بحيوية وكذلك الســـطو الجسور، ولهم من الأواخر التلهف على الغنيمة، واتجاه العقل كلية نحـــو حرب المنافع. وتتكوّن جسارتهم، على الخصوص، من ضـــعف العـــدوّ وتصل مجالاتهم إلى الحدّ الذي تكون فيه قوته مهيبة (imposante) فإن

(1) op. cit., p.67

لم يقاوم، تتعدّد الاستطلاعات، ويتوسع النهب ويُنظّم، لكن إذا ظهر جيش دفاعي، تنسحب مواقعهم الأمامية إلى موقع القوة الرئيسية التي تتشاور في إمكانية المجابهة أو الانسحاب، حسب ما تشعر به، من استعداد للقتال أم لا، وبالأخص، حسب ما إذا كانت الغنيمة التي في حوزتها معتبرة أم ضئيلة... ولم يجد عبد الله مقاومة في طريقه نحو الغرب...."[1].

وقد أشار Fournel H. إلى رسالة بعث بها السيد دوسلان (de Slane) إلى السيد Hase، في موضوع الحملات الأولى التي قام بها العرب على إفريقية، وَصَفَ له فيها الرواية التي اقتبسها عنها النويري، من أحد الإخباريين (traditionistes) يسمّيه الزهري، القصة الخيالية، وهذا ما اتخذه Fournel حجّة للقول بأنه يتفادى القيام برواية الحلقات الكثيرة التي يبدو الشك واضحا على جميعها. وابن الرقيق الذي نقل عنه كلّ من البكري والتيجاني، كما أضاف.، يصور لنا فرار الروم، عند اقتراب العرب، إلى الشمال مندفعين إلى جزيرة شَريك ومسرعين نحو إقليْبية والمناطق المجاورة لها، حيث كانوا يُبحِرون ليلجأوا إلى قوصرة، وهي جزيرة كانت، آنذاك، عامرة، فهذه التفاصيل، حسب رأيه، محتَملة جدا، غير أن القتال (la lutte) بين العرب والبطريق جرجير، كما جاء به النويري، وحتى ابن عذاري، يَعْرِض خصائص قصه أعيد صنعها، من قبل، مرّاتٍ كثيرة فلا أريد زيادة العدد (كما يضيف)"[2].

ويعتبر Caudel موقف سابقيه من المؤرخين الفرنسيين، وخاصة موقف Fournel من رواية النويري لأحداث حملة العبادلة "أحكاما قاسية

(1) Caudel, op. cit., p.66
(2) op. cit., pp.111-112.

وقليلة الاتّزان (peu mesurés)؛ ويرى أنه بالإمكان مناقشتها إلى النهاية (à fond) لكن من الأفضل إعادة التاريخ نفسه واستعمال مصادر أخرى، غير النّويري وابن عذاري، واعتبار الوقائع المُفَرزة من العجيب، الذي نَمّقها منه هؤلاء، والبحث عن تكملته المحتملة وإعادة بناء مجملها"[1].

ويذهب هذا المؤلف الأخير إلى القول: إنه يعرف تكتيك العرب فَهُم، حسب رأيه، "ينهبون البلاد بإرسال سرايا في كل الاتجاهات، فتنتشر في سهل مزاق المنخفض، بين الجبل والبحر، ويصطف جميع جيش الحملة في سفح مرتفعات تحدّ (tatutent) الهضبة، من منطقة الشطوط إلى وادي زرود؛ متبعا خط نقاط المياه التي تحدد الطريق، وعند حلول عبد الله بن سعد بقمونية، أُخبر بوجود جيش خلْف الجبل، وقد تكون إحدى سراياه هي التي اكتشفت ذلك... وقد يكون ضباط جرجير هم الذين أزعجوه بهجومات خلفيّة، وهذا ما قد يفسر معركة عَقُوبَه بتقليصها إلى حجم معركة تمهيدية، وبعدما تنبّه عبد الله، جمع جيشه وزحف، من قمونية، على سبيطلة... واتصل العرب بالجيش المعسكر قرب العاصمة، وكانت قوته كبيرة، لأن قبائل الأهالي دعمته، وكانت تريد رؤية توقيف عملية النهب..."[2].

وفي رأي Mercier E. فإن جيش ابن سعد كان يتكون من" زهرة الفرسان المسلمين"[3] "وإن سكان إفريقية، عند اقتراب العدوّ منهم، نسوا، لحظة، أحقادهم الخاصة، وأمام الخط المشترك، جاء الإغريق واللاتيين (الأفارقة) والبربر الزناتيون(جراوة ودمّر) للانضواء تحت راية

(1) Les premières invasions arabes,p.50
(2) Ibid,, p.76
(3) Histoire de l'établissement des Arabes,p.53

(bannière) البطريق جرجير (Grégoire) الذي انتظر الصّـدام مـع العرب، دون خوف، في موقع محصّن أمام سبيطلة (Suffétula) واثقـا بكثرة عدد أنصاره، وسرعان مـا ظهـر المسـلمون وانقضـوا علـى تحصينات الإغريق، صارخين: الله أكبر لا إله إلاّ هو، لكـنهم وجـدوا مقاومة عنيدة (Opiniâtre) وقد يكونوا استسلموا للانسحاب، وبعد مـدّة معينة، استؤنف القتال، يوميا، أمام الموقعين (camps)، وأبدى الطرفان فيه شجاعة مماثلة، دون نتيجة تذكر، وأخيرا تمكن العرب من السـيطرة على الوضع بجهد يائس، بانقضاضهم على موقـع المسـيحيين، بعـدما خدعوهم (trompés) بانسحاب وهميّ (Simulé) وبهذا الانتصار تـم استعباد الخلافة (الإسلامية) لإفريقية....[1].

ويذهب Caudel إلى القول: "إنّه إذ كانت المصادر شحيحة، فـي موضوع البطريق جرجير"فلها، على الأقل، فضل الاتفاق علـى النقـاط التي تُحدّدها، وعند معرفة نفس القدر الذي يعرفه المسيحيون عـن هـذا الشخص، وهي تبالغ في مدّ أبعاد إمبراطوريته: المنتصرون المحتلـون معتادون على هذا الواقع الذي له ما يبرّره في منـاطق تـتقلص فيهـا الممالك وتتمدّد كل سنة تقريبا، حسبما تتحصل عليه الحملـة العسـكرية المكلّفة بجمع الضرائب، والواقع أن البطريق جرجير كان يسيطر علـى البلاد، وكلّ شيئ، يوحي لنا أن سيطرته كانت ضعيفة جدا: "فهو حـاكم ثائر، نقل مقرّ حكومته من قرطاجة التي كانت قريبة جدا من بيزنطـة، عن طريق البحر، إلى سبيطلة التي أعطاها موقعها، في الـداخل، أمانـا أكثر، وهناك كان ينتظر العرب، لأنه لم يستطع استقبالهم بعيـدا عنهـا،

(1) Mercier: Op. cit.,p.54.

أمير مسكين (Triste prince)، منعه ضعفه الكبير من الصمود على حدود إمبراطوريته، واقتصر، قبل أية معركة، على المقاومة في آخر حصونه. لقد وهبته المصادر الإسلامية مائة وعشرين ألف جندي، ويظهر أن هذه الرواية مبالغ فيها وغير منطقية، كما يظهر أنه لو كان للبطريق هذه المائة والعشرين ألف فارس...لراح يتموقع في قابس، بين البحر والشطوط (أسوة، بما ذكره السيد Diehl عن Troglita Jean الذي ذهب سنة 547م. إلى جنوب شرق قابس، على بعد ست وعشرين ميلا منها، حيث اشتبك مع البربر الثائرين) والأفضل من ذلك أنه قد لا يكون شغل باله بتحريك جيشه، لأن العشرين ألفا من عرب عبد الله، مستخبرين (renseigné) عن قواته، ما كانوا ليواجهوها، غير أن المبالغة ليست ثابتة، مهما كانت جلية (manifeste) بل على العكس من ذلك، فإن كل شيء يحمل على الاعتقاد أنّ جيش جرجير كان ضخما، فهؤلاء المؤرخون أنفسهم، الذين أفرطوا كثيرا في تضخيم عدد جنود البطريق، هم الذين أخبرونا باحتلال (conquête) مصر، وبزحف آبائهم على منطقة طرابلس، دون تضخيم الأحداث (faits)، فهل أخذتهم النزوة فجأة؟ هذا احتمال ضعيف. وقد أهملنا، حتى الآن، من جهة أخرى، عنصرا هاما من المشكل، عنصرا... يريد أخذ مكانته من الأحداث: ما مصير البربر في كل هذا؟ أين يمكن أن يتواجدوا، إن لم يكونوا في سبيطلة؟ وماهي الجهة التي انضموا إليها، إن لم يكن البطريق الإغريقي؟ لقد شهدت القبائل (tribus) لأوّل مرّة، غزوا قادما من المشرق، فهُجمت من الخلف وطوردت (refoulées) إلى الداخل، وكان الهجوم عنيفا جدا، لم يترك لها فرصة الاتفاق، إن كانت تريد ذلك، فالقرار كان سيُعْوِز رأيها، ووحدة الصف كانت ستفقد في القيادة التي بقي البطريق يفرضها

عليها، بجيشه النظامي، وبالأبهة القديمة لحكومته، وقد تكون ذهبت إليه بمشروع خضوع غامض، وقَصْدٍ خفيّ لتمرد مقبل،بعدما يتمّ إبعاد الخطر، و قد يكون استَقْبَلَهَا مبتهجا، بالحظ غير المتوقع، ومحترسا من هؤلاء الحلفاء، ومتسائلا عما عساه أن يفعل بهم بعد صدّ الغزوة"(1).

ويعتقد Caudel أنّ العرب ربما "بذلوا في العملية بأسا شديدا وشجاعة نادرة، لأن القوات المُعادية كانت مُتفوّقة جدا عليهم، من حيث العدد، ولكن في جيش مشرقي، كما في جيوشنا، (حسب رأيه)، فإن التفوق في العدد لا يشكل ميزة بالغة الأهمية، ولم يكن في استطاعة انضمام الفرق البربرية، المستعجل إلى باقي القوات الإغريقية في المنطقة، أن يشكل جيشا قويا: فقد كان للمحتلين القيادة الموحدة، وكانت الحماسة الحربية، المدعومة بالحمية الدينية، تنشّط صفوفهم القتالية بقوة دفع لا تقهر، فانتصروا وصارت البلاد لهم..."(2).

ويعتبر Terrasse H. جَرْجِيرًا "مستقلا تقريبا (à peu prés)(3) ويرى أنه عوضا عن بقائه محصنا بقلعة سبيطلة، أدّى به تهوّرُه إلى قبول القتال في السهل، فقُتل... وهزم جيشه"(4).

وفي رأي Julien (Ch.A.) أن البطريق جرجير اقترب من قبائل البربرية لكي يتصدى إلى الغزو (invasion) واتخذ من قلعة سبيطلة المحّصنة قاعدة إستراتيجية لكن دو ن أن يجعلها عاصمة له؛ أمّا ابن أبي سرح الذي وصل، في البداية، إلى المكان الذي سيقام فيه

(1) Caudel:op.cit.,pp.68-69.
(2) Ibid., p.77
(3) Histoire du Maroc, 1,78.
(4) Id

القيروان، فقد رجع إلى الجنوب الغربي، وبعد بضعة أيام من المراقبة، هاجم الجيش البيزنطي في سهل سبيطلة حيث هزمه[1].

وفي تعليق اللواء بريمون عن أعداد الجيوش المشاركة في معركة سبيطلة، يذكر "أن الذين استخبروا (renseignés) عن إمكانيات تموين (faire vivre) قوة بمثل هذا العدد، في الوقت الراهن (ق.20) بهذه المنطقة، مع الطرق والسكك الحديدية، سيقلّصون تلك القوات إلى أعداد واقعية"[2].

ويعلّق .Fournel H عمّا رواه ابن خلدون، من أسر وَزْمَار بن صولاَت وإرسالِه إلى الخليفة عثمان الذي ولاه على قومه مَغْراوة، قائلا: "إن الجميل (faveur) لم يكن، في الواقع، كبيرا ما دام ابن خلدون سبق وأن قال: إن وَزْمَار هذا كان آنذاك رئيسا لمغرواة والقبائل الزناتية الأخرى، لكن عثمان أراد، ولاشك، بهذا النوع من التنصيب، تكريس حقّه في احتلال المناطق الخاضعة لابن صولات؛ وواقعة (épisode) إرسال أسير مهمّ إلى عثمان محتملة جدا، لكنها تُلزم التسليم بأن مغراوة تكون قد لبت النداء الذي يُفترض أن يكون جرجير(Grégoire) قد وجهه إلى البربر لمساعدته ضد العرب، وتوجد هنا صعوبة حقيقية، ومهما كان، فمن الغريب رؤيةُ ظهورِ جدِّ أسرةٍ هي أسرة خزر...منذ الخطوة الأولى للمسلمين في إفريقية"[3].

ومنْ نفس هذا الحدث يستنتج .Terrasse H أن" اعتناق العقيدة الجديدة (الإسلام) لم يتأخر ويبدو أن بربر زناتة – وخاصة مغراوة– هم

---

(1) Histoire de l'Afrique du Nord, T.2, P.14
(2) Brémond (général): op.cit., pp. 180-181.
(3) Op.cit.,p.113

أول من أسرعوا بالانضمام (se rallier) إلى المنتصرين الذين أغدقوا، حسب ابن خلدون، أمجادا (honneurs) على رؤسائهم."[1].

ويصف Fournel الهزيمة التي أُلحقت بجرجير "بالبشعة" (affreuse)، مضيفا "أنّ هذه النكبة (désastre) التي يؤكدها المؤرخون البيزنطيون، حتى في تاريخ وقوعها، أجبرت المسيحيين على التفاوض مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح في شأن انسحابه..."[2].

ويتساءل Caudel عمّا إذا كان عبد الله بن الزبير هو الذي قتل، فعلا، القائد الإغريقي؟ ثم يجيب بأن المصادر لا تؤكد، دائما، هذه النقطة وأن بعضها يقدم تفاصيل واضحة جدا، يجهلها، على ما يبدو، البعض الآخر، والنويري هو الأكثر إطنابا لكننا (كما يقول) نمتنع عن الأخذ من مصدر مشكوك فيه، وفي هذه الحالة الخاصة التي تشغلنا، فإن الفيض في التفاصيل التي ينمّق بها المؤلف روايته لَـمُـحـكَـمُ لكي يوحي لنا بالحذر"[3] وهو نفس ما عبّر عنه ش. أ. جوليان بأسلوب آخر قائلا: "قد يكون جرجير قُتل على يد عبد الله بن الزبير الذي تُولّيه الأسطورة مقْدرة فائقة حتى لا يُشك في أمرها"[4].

وفي موضوع ابنة جرجير يذكر إ.ف.غوتييه Gautier (E. F.) أن المؤرخين العرب خياليون (Romanèsque)، خصّصوا مكانا لإبنة البطريق جرجير، ويسمونها يمينه" وقد صارت لرجل من الأنصار، فأقبل بها منصرفا، على ظهر بَعِيرٍ له، وجعل يرتجز:

يَابنةَ جَرْجير تَمْشي عُقْبَتَكْ إن عليك بالحجَاز رَبّتَكْ

(1) Op. cit., p.79
(2) Les Berbères, T.2,p.112.
(3) Les premières invasions arabes, p.71
(4) Histoire de l'Afrique du nord,t.2, p.14.

وعندما سمعت هذا الكلام، سألت عما يريد هذا الكلب قوله، ولمـا فُسّر لها كلامه، ألقت نفسها من ظهر البعير فاندقت عنقها وماتت".

وفي تعقيبه على هذا الكلام يذهبgautier إلى قـول: لا يُعـرف أبدا، مع المؤرخين العرب، أين يسترجع مؤلف قصة ألف ليلـة وليلـة حقوقه؟ وهذا لا طائل من ورائه، فقد لا تكون يمينة وجدت بالمرة، وهي ترمز إلى الفترات الحزينة للرعب الذي يرافق، بالضرورة، كل الثورات، وتمثل حالة الألم الأكبر، خصوصا بالنسبة لامرأة من طبقة أرستقراطية مرهفة، وقعت فجأة، جسديا، بين أيدي أنصاف هَمجيّين. وكان العـرب نبهاء (fins) جدا، لا تخفى عليهم مثل هذه المأساة، و قُساة جدا، حتى لا يتمتعوا بها. وقد كانت هناك، بالضرورة، حوادث مضـنية (Pénible) لكنها كانت، على ما يبدو، متفرقة[1].

وقد سجل.H Terrasse نفس الموقف، تقريبا، في هذه النقطـة: فذكر أن" ابنة البطريق جرجير صارت لقائد مسلم، فقَتَلت نفسها بـالقفز من فوق الجمل الذي كان يحملهـا، ممـا يبـيّن أن هـؤلاء الأفارقـة المتحضرين القدماء (ces vieux civilisé) كـانوا يعتبـرون مقـاتلي الإسلام متوحشين (barbares)[2] ونفس الشـيء بالنسـبة لـ ش .أ. جوليان الذي عبّر عن فكرة gautier بأسلوب آخر، حيث ذكر أن يمينه ابنة البطريق التي كانت من نصيب رجل من الأنصار" لـم تَسْـلم مـن العبودية إلاّ بإلقاء نفسها من فوق ظهر بعيرها لكي تُدقّ عنقهـا، وهـذه الرواية الحزينة المختلقة، بدون شك، تُترجم، بطريقة مؤثّرة، كما لاحـظ

(1) Le passé de l'Afrique du nord, pp.202-203.
(2) Histoire Maroc,T.2,pp.78-79.

إ. ف غوتييه (gautier)، الرعبَ الذي يكون قد عانى منه الإغريق الأرستقراطيون الذين وقعوا بين أيادي البدو القاسية[1].

وقد نتج عن" نكبة" سبيطلة، حسب تعبير .Fournel H أن أُجبر المسيحيون على التفاوض مع عبد الله بن سعد في شأن انسحابه[2] لكن المبالغ التي ذُكر أنها قُدّمت له، مقابل ذلك، "مبالغ فيها"[3].

وفي رأي .Mercier E فإن العرب عثروا "في سبيطلة والموقع المسيحي على ثروات هائلة، وعندئذ انقضوا على الجَريد، فعادوا محمّلين بالغنائم، وأثناء ذلك، لجأ الإغريق إلى قرطاجة، واقترحوا عليهم صلحا، وما دام هؤلاء المثقلون بغنائم، لم يكونوا يحلُمون سوى بالعودة إلى المشرق، كي يقصّوا خبر انتصارهم، فإنهم وافقوا على الانسحاب، مقابل فدْية (rançon) معتبرة... وأخذَ ابن سعد وعَربُه طريقَ العودة إلى المشرق، جارّين خلفهم ثروات إفريقية... ولم يَتْبَع هذا الانتصار أيّة فكرة للاحتلال الدائم ولا أية محاولة لإدخال الناس في الإسلام، ولم يكن لهذه الحروب الأولى من هدف سوى جمع الغنيمة"[4].

ويلاحظ Caudel أن" الأجم أو لَجَم (التي تشير إليها المصادر)، هي Tysdrus، وأن قصر الأجم ليس إلاّ المدرج الذي تشرف كتلتُه الضخمة على المساكن المتداعية المكوّنة لقرية الجم (el-djem) الحالية، وأن عبد الله (بن سعد) المنتصر في سبيطلة تَمكّن من استئناف نهب مُزاق (Byzacium) دون خشية هجوم جديد عليه، من شأنه إقلاقه، غير أن السكان كانوا قد فروا إلى المواقع المعروفة (places régulières)

(1) Histoire de l'Afrique du nord,T.2,P.11.
(2) Les Berbères,T.2,p.112
(3) Id
(4) Histoire de l'établissement des arabes,p.55

التي يصعب عليه حصارها، ولم يكن الأجم سوى حصنَ صُدفةٍ، مليء بحشْد مذعور، لا يحميه أي موقع، بعيدٌ عن حصون الساحل، بما يجعل النجدات، في ظل البلبلة القائمة، تصل متأخرة..." [1].

ويستنتج المؤلف الأخير من روايتي المالكي وابن الناجي أن إظهارهما" انشْغال القائد والجنود بالغنيمة، بقدر كبير، يدلّ على اقتصار الحملة فيما بعد، على عمليات النهب، واقتصار الخطة (tactique) على مجموعة من الزحوف السرية (dérobées)، يصل فيها المحتل (l'envahisseurs) إلى أقرب ما يمكن من الثروات المستهدفة وإلى أبعد ما يمكن من ضربات العدوّ، وإنْ دافع هذا الأخير عن ثرواته، حاربه العربي بإقدام(résolument) وبعدما يحصل على المنفعة، ينسحب بنظام ليحفظها، في مكان آمن"[2].

ومع أن قيمة السهم الذي تحصل عليه كل مقاتل، من الغنائم، تدعو إلى الاستغراب إلا أن تصور (songer) انتقال هؤلاء الرجال، خلال شهور عديدة، من قرية إلى قرية، ومن مدينة إلى مدينة، يجمعون من كل مكان وبعناية دقيقة كلَّ ما كانوا يستطيعون حملَه، ويأخذون الباقي في شكل نقود معدنية (éspèces sonnantes)، عندما يتمكنون من ذلك... والمكسبُ كان، لا شك، معتبرا، ما دام عبد الله قرّر الانسحاب، مع ظهور أول إشارة لوّحَ بها سكانُ مدن الساحل بالمقاومة، ولم يستطع، وهذا مؤكد، الاستيلاء على مدن كثيرة، فلا يذكر المؤرخون منها سوى واحدة هي سبيطلة... وفي باقي الجهات كان هناك دفاع عن النفس، حتى في الأجم التي اشترت نفسها، وكان الدفاع سهلا، يكفي غلق

---

(1) Les premières invasions arabes,pp.72-73
(2) Ibid ,p.75

الأبواب وسدّ الثغرات التي أحدثتها الحروب السابقة في الجدران، وربّما كانت المدن الداخلية تعاني من المجاعة؛ أمّا الساحلية فلم تشعر بالضرر لأن الاتصال كان جاريا بينها عن طريق البحر، وكان بعضها يساعد البعض الآخر، ولثقتها أكثر بحصانتها، تصورت أسرع من غيرها، مشروع هجوم كان يمكن أن يجعله ضعف العدو محظوظا، وكانت ثقة الرومي بالنفس وحذر العربي تزدادان مع مرور الأيام، وكان لهذا الأخير، من الغنائم، أكثر ممّا يستطيع حمله، حتى راح يتساءل كيف يحمل كلّ ذلك إلى مصر؟ فالمقاتل المغتني (enrichi) كره الحرب ولم يكن يحلم إلا بالعودة، وكان القادة يرغبون فيها أكثر. فتم التفاهم بسرعة مع السكان الذين فضلوا دفع ضريبة على انتهاز فرصة خوض معركة...."[1].

ويذهب GAUTIER إلى القول: إنه" كان يتوقع، في بداية الأمر، أن يكون ممثل المقاومة المغربية هو"إفريقية" بلد الحضارة المدنيّة نعجوز (VIEUX PAYS DE LA CIVILISATIO URBAINE) الذي كان على التوالي: بُنيقيا ورومانيا، غير أنه أثبت، تماما، حسب اعتقاده، صحة حكم ابن خلدون، في مقدمته، على المراكز الحضارية القديمة في المشرق (Levant): بلاد الرافدين وبلاد الشام، حيث وقع الاحتلال (Conquête) الإسلامي، مرة واحدة، وكان سريعا ونهائيا" وكان لأحد هذين البلدين، كما قال، (أي ابن خلدون) الجيوش الفرسية لحراسته، وللآخر الجيوش الإغريقية و عندما طرد المسلمون

(1) Caudel, Op. cit., pp.77-78

الحاميات، لم يَعدْ هناك ما يُخشى، من مقاومة أو تمرد" وهذا ينطبق على إفريقية بالذات، أو إن شئنا، على قرطاجة"[1].

وقد فوجئ Gautier لعدم رؤية قرطاجة ولا المدن المجاورة لهـا تقوم بأي شيئ في أحداث هذا القـرن الأول مـن الغـزو (invasion) الإسلامي، ملاحظا أن الحامية (garnison) البيزنطية، بقيادة جرجيـر، هُزمت بِسُبيْطلة، جنوب البلاد التونسية، لكن العرب لم يزحفـوا علـى قرطاجة، فقد كان لهم، في رأيه، أفضل من ذلك، فهم منتصرون حذرون (avisés)، يمثلون حكومة نظامية، ذات ميولات جبائية، جمعوا ضـريبة حربية كبيرة، و لم يهتموا بقرطاجة، في كل ما تَبِع ذلك مـن أحـداث، سوى مرة واحدة سنة 698م، بعد نصف قرن من سبيطلة تقريبا..."[2].

ويرى .Terrasse H أن انتصارات العرب "الساطعة والسهلة لم تُستغل: فقَرْطاجة ومدن شمال البلاد التونسية، وقلاع شـمال الأوراس، بقيت كلها بأيدي المسيحيين، ويمكن الاعتقاد أن المسـلمين بقـوا مـدة طويلة، دون أن تكون لهم وسائل القيام بحـرب حصـار (guerre de siège) في إفريقية.... وكان يمكن لهذه الحرب السهلة والمثمرة التـي وَجد فيها المسلمون تواطؤات محلية، أن تتبع، في وقت قصير، بحملـة أخرى"[3].

ويقول (.Beker (C. H إنّ ابن سعد" تمكن من إخضـاع أرض (territoire) قرطاجة إلى الإسلام"[4].

---

(1) Le passé de l'Afrique du Nord, p.202
(2) Gautier: Op. cit., p.253
(3) Histoire du Maroc,T.2.P.79
(4) Op. cit., p.53

ويعلّل Julien غارة (raid) العرب على إفريقية بالرغبة في الحصول على الغنائم" فكان لنهب سبيطلة وغزوات جنوب مُزاق (Byzancium) عائدات كبيرة، غير أن ابن سعد، في اعتقاده، كان يمكنه أن يخشى هجوما مضادا تَدْعمه حصون الشمال، التي لم يكن قادرا على حصارها، فلمّا عرض عليه البيزنطيون غرامة حربية ضخمة، لمغادرة إفريقية (Byzancène)، قبل بكل سرور (Volontiers). والتحق بمصر، وبحوزته كلُّ كنوزها... ومهما كانت (الحملة) قصيرة، فقد وَجّهت ضربة قاسية إلى السيطرة البيزنطية، في منطقة إفريقية الجنوبية (Byzancène) المنهوبة والمهجورة، ولم تكن القبائل البربرية خاضعة لرقابة قرطاجة؛ وأضيفت موت جرجير إلى الفوضى والخصومات المزمنة، وخصوصا أن التجارب علّمت العرب ضعف مقاومة الإغريق ومكاسب الغارات الفاحشة"[1].

والمؤكد، كما يرى الجنرال Brémond "أنّ جرجير قُتل، وأنّ عاصمته نُهبت، وأنّ قرطاجة والمدن الساحلية، فدت نفسها بـ 2500.000 قطعة ذهبية، وكان نصيب كل فارس من الغنيمة 3000 قطعة ذهبية (فإنْ كان هناك عشرة آلاف فارس، سيكون للمجموع 30 مليون قطعة ذهبية، و هذا مستحيل). و قد اختفت الاغارة(razzia)، دون أن تترك أثرا، وكان الدفع الفوري للفدية(rançon)الضخمة، التي يصفها المؤلفون العرب بالدنانير، صدى كبير..."[2].

وبالنسبة لـ .Marçais G فإن الانتصارات التي حققها العرب في سبيطلة مكنتهم من "القضاء على الدفاع البيزنطي و فتحت ثغرة في

(1) Histoire de l'Afrique du nord,T.2pp14-15

(2) Berbères et Arabes,p.181

خط الحصون الأول الذي كان يُعتمد عليه في حمايـــة المقاطعـــة، لكـــن إستراتيجية المنتصرين البدائية أو غياب القوات الكافية أو تلقّيهم أوَامـــر من المشرق، لم تمكنهم من استغلالها، واكتفوا بحمل غنيمة ضخمة، وأَخذِ قطعان من الأسرى(1).

وفي تعليق Caudel على ما ذكره ابن الأثير مـــن قتـــل ثلاثـــة رجال فقط، في إفريقية يذكر أن هذا عدد قليل جدا، ويتناقض مع روايـــة المؤرخين التي تصوّر معركة سبيطلة اشتباكا جـــديا، كلّـــف الجـــانبين أرواحا،إذ ينبغي معرفة الإصـــغاء للعـــرب الـــذين يتحـــدثون بعفويـــة (volontiers) ولحْن (à mots couverts) ويتراجعـــون (reculent) أمام البحث عن المصطلحات الدقيقة أو عرض التفاصيل الكاملـــة، وقـــد كانوا يقصدون بكلامهم عن الرجال، الأشخاص المعـــروفين، الرؤســـاء، وأهملوا الناس العاديين... وقد لا يكون عدد القتلى معتبرا، ما دامت لـــم تقع، خلال الحملة كلها، سوى معركة جدية واحدة، وقد يكون موت القائد الإفريقي فيها خفظه كثيرا"(2).

ويذهب المؤلف الأخير إلى القول:" إنّ توقف الغزوات (العربيـــة) لم يكن كاملا، كما يمكن أن يعتقد البعض؛ فالعرب، مهما كـــانوا غيـــر مبالين ومن أول حركة، لم يكن في استطاعتهم نســـيان فائـــدة (profit) الحملات السابقة، ولا إهمال المغنم الذي كانت تَعِدهم به حملات أخرى، على ما يبدو: فقائد الحملة الأولى نفسه، استأنف قيادة عملية أخرى، من نفس النوع، سنة 33هـــ/653م، وهذا ما يدّعيه، على الأقل، أبو المحاسن (بن تغري بردي) الذي يقول بأن عبد الله (بن سعد) فرض الأمن علـــى

(1) La Berbérie musulmane,pp.29-30
(2) Les premières invasions arabes,pp78-79

السكان، ونشر فيهم الإسلام، وأجبرهم على دفع الجزيـــة. وقـــد تحـــدّث المؤلفـــون قلـــيلا عـــن هـــذه الحملـــة التـــي لـــم يكـــن لهـــا صـــدى (retentissements)، لأن ضعف وسائل القائد العـــام خفّضـــها إلـــى مستوى الغارات التي شنت على المقاطعة، قبل حملة 27هـ، فلا يُعرف أين ذهب ولا على ماذا تحصّل بالضبط، لأنه لم يذهب بعيدا، ولم يحصل على الكثير، لكنه مع ذلك، عاد بسرعة، لأن ابن عبد الحكم أشـــار إلـــى حملة جديدة في السنة الموالية 34هـ/654م" [1].

- حملة معاوية بن حديج التجيبي:

يرى H. Fournel أنه ما دام البلاذري والبكري وأبو المحاســـن (بن تغري بردي) والمقري ضبطوا اسم هذا القائد هكذا"حُديْج" فمن المسلّم به أن التيجاني والنُّويري وابن خلدون شكلوه "خديج"، بناء على أخطـــاء ارتكبها الناقلون، وأن النويري، المعاصر لابن خلكان، شكّله "خَدِيج"[2].

وفي حديث M. Caudel عن الحملة التي أشار ابن عبد الحكـــم إلى وقوعها ســـنة 34 هـ/654م يلاحـــظ أن الشـــك الفـــوري للســـيد fournel في وقوعها يعود إلى كونه لم يطلع على المالكي ولا على ابن الناجي[3]، وبعد عرضه لتفاصـــيل المعلومـــات التـــي أوردهـــا هـــذان المؤرخان، إضافةً إلى ما ذكره ابن أبي دينار، يخلُص إلى القول: إن ابن حُدَيج "شارك في حملة مصر، والحملة الأولى على إفريقية، فلا عجـــب أن يكون قد تخيل مشروع تجديد عملية (entreprise) ســـبق لـــه وأن استطاع تقدير فائدتها فقد كان بمصر سنة 34، ولم يكن هناك ما يمنعـــه

(1) Les premières invasions arabes, p. 84
(2) Les Berbères,T.2,pp.129-130, note6
(3) Les premières invasions arabes, p.84

من الزحف على مقاطعة إفريقية حيث لم يُقِم فيها طويلا، مع ذلك، لأننا سنجده في الفسطاط سنة 35هـ، يدافع عن حكم عثمان ضد محاولة محمد بن أبي حُذيْفة... وتحملنا هذه المجموعة من الوقائع على الاعتقاد بوقوع حملة لمعاوية بن حديج، فعلا، سنة 34هـ أو قريبا منها، ولو أن الاتفاق، حول هذه الأخيرة، تام بين الإخباريين، في واقع الأمر، وكانت ذات أهمية قليلة، وربّما أُوقفت في البداية، بسبب الإعلان عن الأحداث التي أربكت المشرق آنذاك (التمرد soulèvement) بمصر ومقتل عثمان، وقد أدّت قلّة أهميتها إلى نسيانها من البعض، وإلى الخلط بينها وبين غيرها، من الحملات اللاحقة، من البعض الآخر"[1].

ويتساءل Caudel عما إذا كان "معاوية (بن حديج) أسّس، فعلا، مدينة القرن سنة 34هـ/654م؟ مجيبا أن الواقعة في حد ذاتها قابلة للنّقاش، ويمكن هنا، رؤية لُبسٍ جديد بين الحملة الأولى والحملات التي تَبِعتها،وسنرى ،فيما بعد، أن موقع القرن سيلعب دورا كبيرا في حملة أخرى قادها ابن حديج، فما قام به سنة 34هـ كان مجرد مرور، وكان سيبقى مجهولا للأبد، لو لم يترك على أرض إفريقية أحد الرجال الأكثر وقارا، في بلاد البربر التي تفتخر باحتواء قبره، فابن الناجي يقول: إنَّ أبا زُمعة، عبيد الله بن آدم البلوي، مات بالقيروان، وبالضبط في موقع المدينة التي سيؤسسها عقبة (بن نافع)، فيما بعد، إنه الصحابي الوحيد الذي دُفن في إفريقية، بقيت نقطة تحتاج التوضيح: كيف نرى المؤلفين يشيرون باستمرار، في حملة 34هـ تلك، إلى مدينة لم تؤسس إلا ستة عشر سنة بعد ذلك؟ أَهُوَ غموض وقع فيه الإخباريون؟. أم أن الصدفة

---

(1) Caudel: Op. cit., PP. 85-86.

هي التي جعلت عقبة يأتي المكان الذي سبق وأن أقام فيه ابن حديج؟. إن المؤلفين لا يخلطون (بين الأمور) لأنهم عندما يتحدثون عن مقبرة البلوي أو باب السّلم، على سبيل المثال، يعتنـــون بإضـــافة "الآن" ويُـــوعِزون، بوضوح، أن المدينة لم تكن موجودة، أثناء وقوع الأحداث التي يتحدثون عنها، وأنا، من جهة أخرى، أميل إلى الاعتقاد أنّ عقبة لم يأت، من باب الصدفة، إلى نفس النقطة ولكن الضرورات التكتيكية نفسها، التي ســبق وأن قادت ابن حديج إليها، هي التي أتت به"[1].

وما يذكره .G Marçais عن العرب، بعد انتصارهم في سبيطلة وانسحابهم إلى المشرق: أنهم "ابتعدوا عن البلد الذي كان احتلالــه يبــدو ناضجا وسيظهرون، لمدّة خمس سنوات أو أكثر، عدم مبالاتهم أو علـــى أيّة حال، يحتمـــل أن تكـــون عصــابات مســلحة (bandes armées) ستمرّت في الانطلاق من منطقة طرابلس (Tripolitaine) إلى إفريقية لابتزازها، وقد تكون استطاعت تحويل الذين كانت تهددهم إلى الإســلام أيضا، وقد حركت حملة 34هـ/665م، وحدها، قوات هامة وتحصــلت على نتائج بارزة (notables)، وفيما بين الحملتين: الأولى والثانية، غيّر الإسلام حُكامه (maîtres) خلال صِراعات دَمويّة، كادت تقضي علـــى وحدته وقوته... وقد امتصت تلك الأزمات نشاط أسياد العالم الإسلامي، وبكل وضوح، نفترض أن غيابهم عن الغرب يفسَّــر هكــذا، رغــم أن الإخباريين لا يكلفون أنفسهم للبحث عن أسباب ذلك"[2].

وهو ما يعني أن Marçais يُدخل غزوة سنة 34هـ ضمن إطار عدد غير محدد من غزوات قام بها العرب، لغرض نهب إفريقية، انطلاقا

---

(1) Caudel, op. cit., p. 88.
(2) La Berbérie musulmane,p.30

من طرابلس، خلال الفترة الفاصلة بين حملتي :عبد الله بن سعد بن أبـــي سرح ومعاوية بن حُديج التُّجيبي.

ويجعل Pellat Ch. ابن حديج مَدينًا بثلاث حملات منها" استولى خلال الأولى، التي وقعت سنة34هـ/654-655م، على عـدة قــلاع، وجمع غنيمة معتبرة، وأقام معسكرا(camps-garnison) قرب القــرن، بقي فيه حتى عاد إلى مصر...؛ وبهذه المناسبة نَفَل جيشَه نصفَ الغنيمة، بعد اقتطاع الخمس. ويقع القرن، وهو تلّ يبلغ ارتفاعه 171م، على بعد 12 كلم شمال غرب مدينة القيروان الحالية، فــي طريــق جلــولاء.... ويروي المؤرخون الأوائل، أمثال ابن عبد الحكم والبكري، فيمــا بعــد، تفاصيل عجيبة عن الاستيلاء الخارق (miraculeux) على جلولاء مــن قبل عبد الملك بن مروان أو من قبل قائد الحملة نفسه"[1].

وهذا يخالف ما ذهب إليه Mercier E. من أنــه "كــان بإمكــان البيزنطيين، الذين علّمتهم التجربة، إيجادَ وقتٍ لتنظيم المقاومة، بطريقــة ناجحة، خلال سنوات المهلة (التي انشغل فيها العرب بفتنتهم عن إفريقية) ومدّتها عشرون عاما، لكن الحكام الإغريق، بــدل اســتدعاء الأهــالي وتبصيرهم بأن مصلحتهم تَكمُن في ضد المحتلين (envahisseurs) وفي تدريبهم (les dresser) على النظام، راح أولائك الحكام يُكمِلون إبعادهم عنهم بطُغيانهم (tyrannie) وابتزازهم (exaction)[2].

نفس الفكرة عبر عنهــا Terrasse H. بقولــه: إن إفريقيــا الشمالية (بلاد المغرب) عرفت (بعد انسحاب المسلمين سنة 27هــ) سبع عشرة سنة من الهُدنة (répit) وهي كلّ المدة التــي اســتغرقتها أزمــة

---

(1) E.I. n^{elle} éd. Leiden-Newyork Paris1993,T.VIII,art. Mu'awiya b. Hudaydj, p.27
(2) Histoire de l'établissement des arabes, p.56.

الخلافة، التي بدأت باغتيال الخليفة عثمان، والتي انتهت بعد قيام صراعات بين عليّ (بن أبي طالب) وبين معاوية (بن أبي سفيان)، انتصر فيها هذا الأخير وأسس خلافة دمشق سنة660م، وقد أصبح الإسلام، الذي امتصته نزاعاته الداخلية، عاجزا عن القيام بتوسعات (Conquête) جديدة. ولم تستغل إفريقية هذا الوقت (لتقوية دفاعها)، لأن الصراعات الدينية أثارت (dressaient) مسيحيي إفريقية الذين كانوا أوفياء جدا لرومة، ضد الإمبراطورية (Basileus) البيزنطية التي اقتصرت سيطرتها على شمال ووسط البلاد التونسية (الآن)، فلم تجد الخلافة الأموية، أمامها، عندما صار في وسعها استئناف الغزوات (Conquête)، سوى إكسارخية (exarquat) محتضرة، على ما يبدو".(1)

ونفس الطريق أيضا سلكه Julien، ملاحظا أن" الاضطرابات التي أعقبت اغتيال عثمان كلفت إفريقية (valurent à) سبعة عشر عاما من الهدنة (répit) وأن مصر، التي كانت تُستخدَم كقاعدة للحملات الموجهة لإفريقية، أُقحمت (mêler) مباشرة في تلك الاضطرابات: إذ ثارت على وُلاة عثمان، وأجبرت ابن سعد على مغادرتها، وأرسلت إلى المدينة المنورة قتلة الخليفة ثم انتقلت، بعد ذلك، إلى سلطة عليّ واستمرت كذلك إلى سنة 658م حيث استولى عليها أحد مساعدي (Lieutenant) معاوية: فالصراعات السياسية والدينية، نقلت، بطبيعة الحال، مشروع الهجوم على المغرب، إلى الدرجة الثانية من الأهمية، وقد استأنفت الأسرة الحاكمة (DYNASTIE) الجديدة مشاريع التوسع

(1) Histoire du Maroc,T.2,p.79

نحو الغرب بإسنادها ولاية مصر إلى عمرو (بن العاص) العجوز الذي لم يتخل عن نواياه في إفريقية. ولم تستغل إفريقية فرصة الهدنة لتمتلك نفسها، كما لم تستغل القسطنطينية موت جرجير لإعادة سيطرتها عليها، بل على العكس من ذلك، فإن الامبراطور قنسطانس الثاني (Constant II) أعلن في مرسوم (édit) جديد، وهو الصورة (le type).... عن عقوبات قاسية ضد كل الذين لم يتشبثوا بقوانين الايمان القديمة (anciens symboles)، مما أثار نصارى إفريقية الأرثوذكس (orthodoxes) الذين كانوا خاضعين للسلطة البابوية (pontificale) بقدر ما كانوا مناوئين للإدارة الامبراطورية."[1]

ويجعل الجنرال بريمون حدوث الغارة (razzia) الثانية، بعد واحد وعشرين عاما من الأولى، ونفس الشيئ، تقريبا بالنسبة لـ Fournel H. الذي يذهب إلى القول: "إن العرب لم يفكروا في المناطق الغربية، منذ 27، لكن السنوات التي مرت، منذ 25هـ، لم تُسكّن لدى عمرو بن العاص الحماسة التي كانت تجرّه نحو إفريقية... فعندما محا أثر الفوضى التي كانت مصر مسرحا لها آنذاك، وعندما تَبيّن له أنّ الخلافة أصبحت شبه شرعية، في يد معاوية، بعد موت علي، وتَنازُلِ ابنه الحسن عنها، في بداية 41 هـ، وبعدما أصبحت ولاية مصر موطّدة، بين يديه، التفت فورا نحو إفريقية واستأنف الغارات (EXCURSIONS) التي مهّد العرب بها لحملة 27هـ، ولا يعرف أي شيئ مضبوط عن تلك الغارات؛ لكن يبدو أنها دُفعت إلى أبعد حد ممكن في حالة ما إذا أُخذ بعين الاعتبار وجود أثرها في مقطع (PASSAGE) للبكري، هذا نصه: "وافتتحها

(1) Histoire de l'Afrique du nord,T.2,p.15

(إفريقية) معاوية بن حديج سنة إحدى وأربعين وكان معه عبد الملك بن مروان"[1].

ومن هنا يَعتبر Fournel أنّ ابن حُديج مهَّد (préluder) بغارات على إفريقية، قبل قيامه بالحملة التي كُلف بقيادتها سنة45هـ، مع لقب وال في ولاية عقبة بن عامر، الجهني على مصر. ويلاحظ Fournel أن المؤرخين البيزنطيين لم يفيدوا بأي شيئ،عن أوضاع إفريقية، في ذلك التاريخ، وحسب المؤرخ المصري (النويري) كما يضيف، فإن المسمّى حُباحِية ويفضل Fournel كتابة الاسم، كما كتبه ابن عذارى و ليس كما كتبه النويري، جُنَاحة أو ربما جناحنة، لأنه يرى أن هذا الأخير الذي، لم يتألق، لا بنقده ولا بدقته، اقتبس وقائع حملة 45 من مخطوط ابن عذارى الكامل، والمهم أن الشخص المذكور كان قد خلف الطاغية جرجير، وربما بقي مستقلا عن القسطنطينية، لأن النويري يدعي أن Héraclius (ويقصد به قنسطانس الثاني، ما دام الإمبراطور الأول كان قد توفي سنة20هـ/641م وخلفه قنسطانس الثاني إلى سنة 48هـ/668م) بعث إلى إفريقية بطريقا يسمّى أوليمة (Aoulîmat) فطرده حُبَاحِبة لكن رعايا هذا الأخير، كما يصور لنا النّويري، طردوه، وقدّموا على أنفسهم شخصية يسميها ابن عذاري الأطريون: إما لخشيتهم أن هذا العمل العنيف سيجلب إليهم غضب الامبراطور الجشع، وإمّا لسبب آخر، و قد يكون المغتصِبُ (Tyran) المخلوع سافر إلى بلاد الشام لاطلاع معاوية ابن أبي سفيان على وضعية إفريقية وتحريضه على اخراج الحملة التي أرسلها عام 45[3] فكان ذلك...

(1) Berbères et Arabes, p.181.
(2) Les Berbères,T.2, pp.138-139.
(3) Ibid T.2, pp.140-141

ثم أرسل قنسطانس الثاني(Constant II) إلى إفريقية أسطولا بقيادة البطريق نقفور: إما لأنه أراد التصدي للاعتداءات (entreprises) العربية، وإمّا لأنه عزم على استرجاع بلاد خرجت عن سيطرته، فنزل هذا الجيش سوسة، وأخرج إليها ابن حديج جيشا قويا بقيادة عبد الله بن الزبير فلما أُجْبر الروم على الدخول إلى مدينتهم، عاد من حيث أتى، ولما وصل إلى معسكر القرن، أخرج ابن حُديج عبد الملك بن مروان على رأس ألف فارس إلى جلولاء، علما أن عبد الملك هذا توفي سنة 86هـ، عن عمر يناهز ستين سنة، وهو ما يعني أن سنّه بلغ تسع عشرة سنة عام 45هـ وهذا ما يحول دون تكليفه بمهمّة حصار مدينة ما، ثم إن البكري أورد روايتين: تُسند إحداهما القيادة لابن حديج شخصيا، وهي الأكثر احتمالا. وقد نُقلت الروايتان حرفيا، عن ابن عذاري والنويري، ومهما يكن، فقد تم الاستيلاء على المدينة وتخريبها[1].

وقد أدى نقاش دار بين معاوية بن حديج وعبد الملك بن مروان، في أمر تقسيم الغنيمة، إلى وضع حدّ لحملة العرب الثانية على إفريقية، وهو ما تتضمنه، على الأقل، رواية النويري الذي يدّعي أن ولاية مصر أسندت، آنذاك، لابن حُديج بدلا عن إفريقية[2].

ويختصر Mercier E. كلامه عن هذه الحملة قائلا: "إن الاغريق عندما قدم معاوية بن حديج، من المشرق؛ بجيش جديد، حوالي 665 م، لم يكن لهم ما يواجهون به المحتلين (envahisseurs) سوى فرقة عسكرية (corps de troupes) واحدة، أرسلتها بيزنطة، على عجل، بقيادة البطريق Nicephore، فهُزم البيزنطيون في معركة واحدة

(1) Fournel: Op. cit., pp.145-146
(2) Ibid; p.146

خاضوها قرب الجمّ، بين صفاقس وسوسة؛ حيث كانوا متحصّنين، فأسرعوا بالإبحار ثانية. و قد حال جدال قويّ، في موضوع تقسيم الغنيمة، دون استفادة العرب بانتصاراتهم، والقضاء فورا على ما تبقى من السلطة البيزنطية في إفريقية، غير أن ما تمّ احتلاله، احتُفظ به هذه المرة، و صارت إفريقية، منذ ذلك الوقت، تشكّل مقاطعة مميّزة عُيّن على رأسها عُقبة بن نافع[1].

ويشرع M. Caudel في حديثه عن حملة معاوية بن حديج، منذ أن بَعَث معاويةُ بن أبي سفيان إلى مصر، فاتحها عمرو بن العاص، عام 38هـ، وعيّنه واليا عليها، وكان ابن أبي سفيان، آنذاك، يطالب بالخلافة (prétendant)، وكان عمرو، دائما، مشغول البال باحتلال (conquête) إفريقية، ولم يمنعه من تنفيذ مشروعه سوى الظروف[2]. ثم ينتقل نفس المؤلف إلى ما ذهب إليه Fournel، اعتمادا على نص البكري، من قيام معاوية بن حديج بحملة على بَنْزَرْت سنة41هـ، مُبديا قناعته بوقوعها في ذلك التاريخ، تقريبا، ومستعرضا ظروف وقوعها، فيما ذكره أحمد دحلان، عن إرسال الإمبراطور هرقل (Héraclius) سنة41هـ لبَطريقٍ مكلّف بالحصول على أموال، من سكان إفريقية، مساوية لتلك التي دفعوها للمسلمين، وكان قد تولّى أمرَهم (الأفارقة)، بعد قتل جرجير، شخص من الروم، فخاض البطريق ضدّه معارك كثيرة، تمكّن في نهايتها من هزيمته وإعادة سيطرة الإمبراطور، لكن المغتصب لجأ إلى معاوية ببلاد الشام فأنجده بمعاوية بن حديج الذي نزل قَمّونِيَة، فوجّه إليه البطريق ثلاثين ألف مقاتل، فهزمهم ثم حاصر جلّولاء واستولى

(1) Histoire de l'établissement des Arabes, pp.56-57.
(2) Les premières invasions arabes, p.89

عليها وهدّمها، وبعدما فرّق جيوشه على المناطق، وأخضع السكان، عاد إلى مصر. وقد لاحظ Caudel أن دحلان حدد تــاريخ وقــوع هــذه الأحــداث بسنة41هـــ، راح يقارنها بما حدّده ابن أبي دينار لوقوعها سنة 45 و جــاء فيها: أن ابن حُديج أُخرج إلى إفريقية على رأس عشرة آلاف مقاتل، فاستولى على سوسة، وكان قد أَخرج إليها عبد الله بــن الزبيــر فقاتــل النصــارى (chrétiens) ثم عاد إلى معاوية ابن حُديْج الذي أَخرج عبد الملك بن مروان نحو جلولاء فحاصرها، عدة أيام، واستولى عليها عُنوة فقسّم معاوية الغنيمــة على المسلمين، والله أعلم إن كان ذلك حدث سنة 34 أو45هـــــ، و يَخْلــص Caudel إلى القول: إن تحديد تاريخ هذه الحملة ليس سهلا: فهي بكل تأكيد، لم تقع سنة34هــ، لكن ليس هناك أيضا ما يثبت أنها وقعت سنة45هــ، رغم أنّ افتراضات قوية تشهد لصالحها، وعمّا أشار إليه ابن عبد الحكم من وقوع حملة لمعاوية بن حديج سنة 40هــ، دون أن يعطى عنها تفاصــيل، يميــل Caudel ، مثل Fournel، إلى الاعتقاد بحدوث خَلْط بينهــا وبــين حملــةٍ وقعت، فيما بعد سنة41، ويكون ابن حديج قد استولى فيها على بنزرت، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ونفس الشيئ يقوله ابن أبي دينار، مضــيفا أن ابــن حديج بعث رُوَيْفَع بن ثابت الأنصاري إلى جَرْبَة، و يقال إن رويفع كــان سنة 46 واليا لمعاوية على طرابلس، وفي سنة47 قاد حملةً من طرابلس نحو إفريقية، استولى خلالها على جَرْبَة، والواقع أنّ تاريخ 46(666) هو الــذي ينبغي الاحتفاظ به، عن حملة رويفع، ويحدد المؤلفون عادةً تــاريخ حملــة معاوية بن حديج بسنة 45هــ/665م، ومنهم: ابن الناجي والمالكي وحتى أبو المحاسن بن تغرى بردي وابن عذاري[1].

(1) Caudel: Op. cit., p.89 sq.

ويعتقد Caudel أن حملة جَلَولاء الواقعة على طريق القيـروان الحالي، في الأربس (Laribus)، غير بعيد عن جبل القرن، وهو جبـل أُوسَلاَت (Ousselet) في يومنا، لا تُقدّم فائـدة كبيـرة، فهـي تكـرار لسابقاتها، إنه نفس الزحف السريع، دائما، ونفـس الغـارات (razzia)، ونفس الحصار، غير المثمر عادة، أو الذي لا يكون له مَخْرَج سـعيد إلا بِصُدْفةٍ يصعب تصديقُها، وتُلمّح المصادر، تقريبا، إلى محاولة قـام بهـا الإغريق للدفاع عن مُزاق (Byzacium): إذ أنّ بطريقا يسمّى نِقِفـور (Nicéphore) يكون قد حاول القيام بعملية إنزال في سوسة لكنـه قـد يكون تراجع عن مشروعه، في حضور العرب، إلاّ أنّ البـاجي جعلـه يخوض معركة قرب قصر الأَجَم؛ و وقوع هذه المعركة قليل الاحتمـال، لأن الإخباريّين الآخرين لا يتحدثون عنها، وما كـانوا ليقصـروا فـي الإشارة إلى لقاءٍ خاضت فيه القوات المتواجدة في الجبهة معركة كبيرة، لم يحدث ذلك في حملة معاوية هذه، التي لم تزعج العدوّ عمليات نهبهـا إلا قليلا[1].

ويَنتَقد نفس المؤلف رواية المالكي، الخاصة بانطلاق حملة ابـن حديج من مصر سنة 45 والتي انتهت بالاستيلاء على جلولاء، ملاحظـا أنها تحتوي على خطأ كبير: لأن الأمر لا يمكن أن يتعلق لا بجرجير ولا بسبيطلة في سنة 41 أو 45هـ، ثم يتساءل عما إذا كان المؤلف يعنـي، ببساطة، أن جلولاء بقيت خاضعة للإغريق؛ و فيما يخص الاستيلاء على هذه المدينة فروايته مطابقة لما ذُكر في أماكن أخرى؛ و قد قيـل نفـس الشيء عن سوسة، والحَدَثُ معقول، في حدّ ذاته؛ ومن المؤسف فقط، أنه

(1) Caudel: Op. cit., pp.94 Sq.

أدهش العربَ لدرجة جعلتهم يردّدونه، مرّات عديدة، في موضوع مـدن مختلفة"[1].

وبعد اقتباس Caudel لما ذكره كل من الباجي وابن الناجي وابن أبي دينار عن تلك الحملة، راح يتساءل عما إذا كان" من اللّزوم الخلط بين حملتي معاوية اللتين جعل المؤلفون تفاصيلهما متطابقة؛ وحدّدوا تاريخ وقوع إحداها سنة 40 والأخرى سنة 45هـ، مجيبا: أنّ تطابُق الأحداث تجبرنا على ذلك، غير أنه بإمكاننا ملاحظة أن ابن عبد الحكم حدّد سنة 40 لحملة قام بها معاوية نفسه، وقد لا تكون سوى استكشافا، كالاكتشافات التي قام بها سابقوه، وقد تسبب لنا هذان التاريخان في الغموض الذي نعاني منه: حيث وضع المؤرخون، في الحملة الأولى (40 أو 41)، وقائع الثانية (45) التي سنتبنّاها، في آخر المطاف"[2].

ويسجّل .Pellat Ch لابن حديج، بعد حملة 34، حملتين أخريتين: حدثت إحداهما" سنة 40هـ/660-661م، أو سنة 41هـ: وقع أثناءها غزو(conquête) بنْزَرت...، أو 45 هـ، وأخيرا حملة 50هـ/670م التي انضم إليها جيش قدم من المدينة بقيادة عبد الملك بن مروان، وقد سار بها معاويةُ بن حديج، أيضا، إلى القَرْن التي كانت بمثابة (en quelque sort) قاعدة عمليّاتهِ"[3].

ويبرّر Caudel عودة ابن حديج السريعة إلى مصر، بعد عودة السرايا الاستكشافية إليه، وتقسيم الغنيمة، بعدم وجود طموح لديه، يختلف عن طموح سابقيه، بل اعتبر نفسه سعيدا، عندما جمع خيرات كثيرة،

---

(1) op. Cit., p.93.
(2) Ibid, pp.93-94.
(3) (E.I., n^{elle} éd, Leiden New YORK-Paris1993,T.VII,art, Mu'Awiya B. Hudaidj, p.27.

وأدخل (في الإسلام) أُناسًا كثيرين، بواسطة الإقناع بالسّيف أو الأمل في تقسيم الغنائم(1).

ممّا لفت انتباه .Marçais G: أن الإخباريين لم يُكلّفوا أنفسهم بالبحث عن أسباب غياب العرب عن المغرب، و يَرى أنه لا يستطيع، بدوره، سوى تقدير تلك التي أدّت إلى استئناف الغزو (.conquête): إذ أُخبِرنا بنداءٍ وجّهه إلى الخليفة المسمى جناديوسُ (génnadius) الذي تولى قيادة المقاطعة، بعد موت جرجير، وسانده البربر في البداية، وربما تخلوا عنه، فيما بعد، لصالح إغريقي آخر، يسمّى .Eleuthère، وقد يكون ذلك أدّى به إلى توجهه إلى المسلمين لطلب مساعدتهم، ونَعْلَم، من جهة أخرى، أنّ الإمبراطور قُنْسْطانس الثاني كان قد أرسل من صقلية، في نفس الوقت تقريبا، جيشا بيزنطيا، بقيادة البطريق نِقِفور(Nicéphore)، لاستعادة المقاطعة، مما يدفع إلى الاعتقاد أنّه بالإمكان إعادة ترتيب (rétablir) الأحداث هكذا: غَداة رحيل العرب، أراد gennadius الإغريقي وِراثَة الإكسرخوس (exarque) جرجير، غيرأن اختفاء هذا المغتصب أَوْحى إلى الإمبراطور الذي كان مقيما، آنذاك، بسرقوسطه (syracus)، ومنشغلا بإعادة سيطرته على الغرب، بمشروع إعادة الاستيلاء على إفريقية، في حين كان Eleuthère ، خصم gennadius المدعوم بأغلب الأفارقة، مستعدّا ولا شك، للخضوع، فيجمع الإمبراطور الجيوش التي ستعيد احتلال (réoccuperont) البلاد، غير أنّ gennadius الذي بقي متمردا (rebel) بدون أنصار، التفت نحو العرب، فتسارع هؤلاء(2).

(1) Op. cit., p.96.
(2) La Berbérie musulmane, pp.30-31.

ويعترف Marçais أنه لا علم له، في الواقع، بما إذا كانت عملية الإنزال التي قام بها البطريق Nicéphore، سابقة أم لاحقة لوصول العرب بقيادة معاوية بن حديج، والذي يبدو مؤكدا أنّ حملة 665م. هذه وَجّهَت ضربة جديدة للقوة البيزنطية بإفريقية: فقد يكون جيش نقفور عاد إلى البحر، وبعد لقاء غير حاسم، تمّ الاستيلاء على جلولاء ونهبُها، وكانت ضمن الحصون التي تشكّل الخط الثاني للدفاع عن المقاطعة، وقد تبع ذلك الانتصار تحويلات مغرضة (إلى الإسلام)، لكن المنتصرين لم تكن لهم أية إقامة (établissement) هذه المرة أيضا[1].

وفي نظر (ش.أ.) جوليان فإنه من الممكن أن يكون المغتصب Gennadius قد استفاد من ظروف الخلاف الذي نشب بين البيزنطيين ونصارى إفريقية الأرثودوكس، لتشبثهم بقوانين الإيمان القديمة وخضوعهم للسلطة البابوية على حساب الإدارة الإمبراطورية، "فحافظ على إمارة مستقلة لعدّة سنوات، ولما رأى نفسه مهددا بمُنافس يدْعَمُه الإمبراطور، راح يفاوض المسلمين للحصول على مساندتهم، وعندما استعاد الإمبراطور السيطرة، لم يبق بيديه سوى بقايا من الاكسارخية، وقد يكون ترك خط القلاع الأول ليقتصر على حماية أطراف البلاد التونسية الوسطى الحالية... وفي سنة 665م. دخل قائد الحزب الأموي، في مصر، معاوية بن حديج، مُزاق (Byzacène) بأمر من الخليفة، وهزم جيشا بيزنطيا أُنزل في Hadrumète ثم استولى على قلعة جلولاء ونهبها، وعاد إلى مصر محملا بالغنائم"[2].

---

(1) op. cit., p.31.

(2) Histoire de l'Afrique du nord,T.2pp.15-16.

وممّا توصل إليه الجنرال Brémond أن" الإمبراطور قنسطانس الثاني (641-668) لم يرسل أية نجدة (إلى إفريقية) ولم يحتفظ في هذه القضية (قضية الغزو العربي) إلاّ برقم الفدية المدفوعة بِيُسـر، فأصدر أمرًا بأن يدفع له مبلغ مماثل وذلك سنة663، فهرب الحاكم البيزنطي، العاجز عن دفع مساهمة كهذه، إلى دمشق لدى معاوية بن أبي سفيان... وحرّضه على غزو إفريقية، مُظهرا له ضعف الإغريق، من جهة، وغناء وخصب البلاد، من جهة أخرى، وكان معاوية في حاجة إلى تَثْبيت حكم أسرته (dynastie) فَقَبِل، وكانت تلك هي الغارة (razzia) الثانية...، قادها والي مصر، معاوية بن حديج، وتحصلت على ثلاثة مائة قطعة ذهبية لكل فارس، ولم يحدث أي حصار، لأنهم لم يعرفوا تقنية هذه العملية، غير أن المسلمين جعلوا البلاد المفتوحة (pays ouvert) ولاية على رأسها عقبة بن نافع"[1].

- نشاط عقبة بن نافع الفهري قبل ولايته الأولى على بلاد المغرب:

يعتبر Mercier E. عقبة بن نافع،أول من كان يفرض، من بين المحتلين......العرب، اعْتِناق(la conversion)الإسلام، على المنهزمين، مع إخضاعهم في آن واحد"[2] ويعتبره Caudel M. "إفريقيًّا قديما (Vieil africain) ساهم... بفاعلية، في حملتي 21 و27 هـ...أي أنه (في نظره) كان يعرف جيّدا البلاد ورجالها، فهو جندي جيّد... كانت له، على ما يبدو، ميزة ملحوظة أذهلت رجاله، فصارت له في ذاكرتهم مكانة خاصة. ومع أن بعض النوادر(anecdotes) المبعثرة:

---

(1) Berbères et Arabes,p.181.
(2) Histoire de l'établissement des arabes,p.57

رواية كرامتين أو ثلاثٍ وقصّةَ موتٍ رائعة، لا تكفـــي لتلخـــيص سِـــمةِ محتلٍّ، إلا أنها تعكس، بما فيه الكفاية، عَمَله حتى يمكن القول: إنه كـــان مؤمنا وداعية وقائدا"(1).

وهو الذي حاول، في نظر Provençal (E. Lévi) "وضع حـــد لمقاومة بربر البلاد، بتدعيم النتائج الأولى للتوسع (Conquête) العربي في إفريقيا الشمالية، لكنه مات، بعد فترة مضـــطربة، تحـــت ضـــرباتِ جماعاتٍ إفريقية متمردة"(2).

وعن نشاط هذا القائد في منطقتي برقة وزويلة يذهب Mercier E. إلى القول: إن عمرو بن العاص" تقدم، بعد إخضاع مصر، نحو الغـــرب حتى برقة، في حين كان مساعده، عقبة يجول في مناطق الجنوب ويدخل منتصرا إلى زويلة في فزان. ولما كان وقوع احتلال مصر سنة 640م، ينبغي تحديد تاريخ حملة عقبة على فزان بسنة 641 أو 642م. وأثنـــاء ذلك كان عمرو يقوم بغـــارات فـــي اتجـــاه الغـــرب واســـتولى علـــى طرابلس..."(3).

وفي سنة 647م كلف عبد الله بن أبي سرح عُقبة لينوب عنه أثناء غيابه، و فيما بين641 و647 م هذه لا توجد أية إشـــارة عـــن محتّـــلِ فزّان (conquérant)، وعند اللزوم يمكن التسليم بأنه بقي، منـــذ ذلـــك الوقت، في الجنوب ما دامت مشاركته في حَملاتِ هذه الفترة لم تَثْبُـــت، وقد يكون اعتزل منصبه بعد عودة الجيش إلى مصر، ويُحتمل أن يكون

(1) Les premières invasions arabes, p.96.
(2) E.I., n^elle éd., Leiden-Paris1936,T.3, art. Okba B. Nafi'a, p.1040
(3) sidi Okba,ses expéditions dans l'extrême sud,Revue africaine,no23 4ème trimestre 1898, p.23:

عندئذ، عاد إلى المراكز الأمامية، أي إلى حدود أرض برقة ومنطقة طرابلس لكن هذا يبقى مجرد فرضية ولا يُعرف موقفه من الفتنة التي كدّرت صفوَ بلاد العرب سنوات طويلة، وعرفت مصر فيها فوضى عارمة[1].

ويكون، من المفيد هنا، الإشارة إلى المقال الهام الذي نشره إسماعيل هامت سنة 1899 بالمجلة الإفريقية رقم 228 تحت عنوان note complémentaire sur l'origine des foulanes ou peuplades foulbé du soudan." على الرغم من أن صاحبه ليس فرنسيا بل هو مترجم جزائري، من اللغة العربية إلى الفرنسية، ويعود سبب الاهتمام بما كتبه هذا المؤلف، إلى كونه تطرق فيه إلى نقطة جديدة في الموضوع الذي يشكل مادة هذا البحث، كما أن ما كتبه كان محلّ نقد كاتب فرنسي مهتم بتاريخ الجزائر وبلاد المغرب ألا وهو.Mercier E.

تعتمد فكرة هامت على كتاب، ألّفه عبد الله بن فُودْيو، أخو مؤلِّف كتاب نور الأرب، بعنوان "تَزيين الورقات" عالج فيه تاريخ من يُسمون (فُولَن)". أو "فولبي" منذ غزوة (l'invasion) عقبة بن نافع لفوتاتورو (أو سينيغامي) إلى عصره، أي حوالي1807م؛ ومن جهة أخرى فإن سلطان أماداوة، الزبير، المقيم بيولا (yola) يدّعي، بناء على روايات، أن سيدي عقبة، يكون قد وصل في تَوسّعاته (ses conquêtes) إلى السنغال، حيث يكون قد استقرّ،مع أصحابه وجيوشه، وقتا طويلا جدا، وربّما تزوجوا هناك بسودانيات اعْتَنَقْن الإسلام على الفور، وقد يكون الأبناء المَولُودون من هذا الزواج شكّلوا نواة جنس "الفُولَن" أو قبائل

(1) Mercier, Sidi Okba, pp.323-324.

جنس البول (peuplades de race peule) الذين يكونون انتشروا، من السنغال، في السودان الغربي ونشروا فيه الإسلام تَكْمِلة للعمل الذي بدأه أباؤهم[1].

هذه المعلومات جعلت هَامَتْ يفكـــر فـــي أن غمـــوض الأخبـــار التاريخية عن سلوك (faits et gestes) عقبة، خلال فترة الفتنة (عشـــر سنوات)، تدفع إلى الاعتقاد بِأن القائد العربي قد يكون تَمكّن أثناءها مـــن دخول بلاد السودان، وفَرْضِ الديانة الجديدة فيه، وأنه، هـــو وأصـــحابه ومساعدوه، يكونون قد نفثوا (infusé) الدّم الأبيض في قبائل ســـودانية، عن طريق الزواج بنساء سودانيات، فنشـــأ هـــذا الجـــنس الهجـــــين (métis) المسمى"فُولَن"[2].

وانطلاقا ممّا أَخْبرَ به أبو المحاسن بن تغري بردي، من قيام عقبة بعدة حملات على بلاد السودان سنة43هـــ، في ودّان وفي برقـــة، راح هَامَت يتساءل عما إذا لم يكن"سيدي" عقبة، الدّاعية النشيط الذي لا يكـــلّ والناشر لشريعة (loi) محمد، في كامل شمال إفريقيا (بـــلاد المغـــرب)، دون هدنة، ودون راحة، إلى أن مات؟

ومن ثمّ يتساءل هَامَتْ، كيف يـــتمّ التســـليم بـــأن هـــذا الداعيـــة الملتهب (apôtre enflammé) يمكث ستة عشر عاما كاملا فـــي أرض برقة وحدها؟ وكيف يمكن تصديق أنّ الذي لم يتوقف، في الغـــرب، إلا أمام أمواج الأطلنطي، لا يكون قد تقدّم إلى بلاد السودان، مرورا بالطرق المتبعة، خلال التاريخ القديم بكامله وإلى أيامنا (نهاية القرن19) والتـــي

(1) Hamet Ismail ,Note complémentaire sur l'origine des Foulane ou peuplades Foulbé du Soudan, Revue africaine,no228,1899,pp.71-72.

(2) Ibid, p.73.

تؤدي، من طرابلس ومن برقة، إلى بحيرة التشاد، وأنه لم يقُم بما قامت به في ذلك العصر، حسب ابن خلدون، قبيلة هوّارة المنتشرة (cantonnée) في مُقاطعتَي: برقة وطرابلس والتي اجتازت الرمال حتى الصحراء(jusqu'au désert) واستقرت بجوار أبناء قبيلة لَمْطَة الملثّمين، المنتشرين قرب كُوكُو (gaugua)، الواقعة على نهر النّيجر، جنوب غرب تَمْبُوكْتُو، فهل من الممكن، عندئذ، ألاّ تكون أقطار السودان الغنية والآهلة قد أغرته واستبقته؟. المعروف أنّ البربر، بمجرّد إسلامهم، أصبحوا مساعدين للجيوش العربية، والحال (or) أن الذين كانوا يحتلون (occupaient) الصحراء إلى حدود السودان، هم أنفسهم الذين كان لعُقبة مهمة استيعابهم وإدخالهم في الإسلام، فأين العجب، حينئذ، أنْ يكون صَنْهاجة هؤلاء أو البربر الملثمين، الذين كانوا يسيطرون على أقصى الصحراء، قد أرشدوا العرب نحو بلاد السودان التي كانت، ولا شك، معروفة لديهم[1]؟

ويضيف هامت، من جهة أخرى، أنه من الممكن أن يكون عقبة ظهر في بلاد السودان على إثر حملته جنوب المغرب الأقصى، اعتمادا على ما ذكره ابن خلدون من أنه"...دخل السوس وتَارُودَانْت، وهزم البربر بالصحراء" وهؤلاء البربر، في اعتقاد مؤلّفنا، ليسوا سوى صنهاجة أو مَسُّوفة ابن بطوطة، الذين كانوا يَصِلون الى كوكو، عاصمة سنغاي، وغير بعيد عنها كانت تنتشر قبيلة هوارة القادمة من طرابلس[2].

ويحاول هذا الكاتب تدعيم رأيه بما ذكره الرحالة أُسكار لانز (Oskar lenz) عن انتساب عائلة البكّاي، المستقرّة في تَمْبُوكْتو، إلى

(1) Hamet Ismail:op.cit.,pp.73-74.
(2) (Hamet: Op. cit., p.74.

(سيدي) عقبة، مستدلا بشجرة نسبها التي نشرها Barthe ثم يَخْلص إلى القول: إن هذه الرواية تتفق مع رواية الدكتور Barthe، المعروف، الذي يدّعي أن انتشار قبائل الفولبي (les Foulbé) بالسودان كان من الغرب إلى الشرق وليس العكس، حسبما يُعتقد عادة[1].

ويتساءل نفس المؤلف عما إذا كان من المجازف الإقرار أنّ عقبة يكون قد استطاع الدخول في أرض السودان إلى Torodo ثم أنجب فيها أطفالا، بمقتضى مبدأ أنّ العرب، ومعهم البربر الأعوان، كانوا عندما يتوسعون يطلبون الأراضي والنساء؟. مجيبا أن الأمر، على ما يبدو، ليس كذلك، لأنه إذا تمّ التسليم بأن عقبة أنجب بِتِمْبُوكْتُو، يمكن جدّا التسليم بأنه فعل مثل ذلك جنوب النيجر، مع العلم أنه عندما يقال إن جنس الفولن (les Foulanes) ينتسبون إلى (سيدي) عقبة ينبغي فَهْم أنّ أمهاتهم كنّ سودانيات، من Forodo وأماكن أخرى، وأباؤهم عقبة وأصحابه والبربر الذين كانوا معهم. وقد يكون القائد العربي، عندما غادر السودان، بأمر من الخليفة، لحُكم إفريقية، ترك به أعوانا من البربر استمروا في إنجاب مولَّدين (métis)، ومنذ ذلك العهد، بدأ، ولا شك، إدخال الأسماء الإسلامية في هذا البلد، وتَواجدت مجموعات بربرية أو عربية مبعثرة في بلاد الزنج، من المحيط إلى شرق بحيرة التَّشَاد، وباختصار فإن الأحداث (les faits) السابقة الذكر تُثبت، في اعتقاد هامت، أن عقبة وجيشه دخلوا Sénégambie كما ذُكر في كتاب "تزيين الورقات" وأَنجبوا فيها جنس الفُولَن الهجين (métisse)، بدليل ما توصل إليه الرحالة الأوروبيون الذين درسوه، من أن شعوبه مازالت تقدّم اليوم

1 - Hamet, op. cit.

خصائص طبيعية (physiques) تُذكّر بالملامح المميّزة لأجدادهم، كما أن (ج.أ.) كراوز (krause G. A) جمع معلومات عن أصل قبائل البُول (les peul) تفيد بأن أقوال أبناء جنس الفولن (les dirs des Foulanes) توضح أنّ جيشا عربيا يكون قد وصل، خلال القرن السابع الميلادي، إلى السنغال وإلى شعوب Torodo، وأن أحد قادة هذا الجيش، ترك في البلاد فتزوّج من بنت الملك وأن أبناءه ربما كانوا أجداد جنس الفولن[1].

وفي تعليق إ. ميرسيِي (Mercier . E) على كلام إ. حامت، ذكر "أنّ عقبة قام بحملة على مناطق أقصى الجنوب و تجوّل في فزان، منذ 641م، مادُمنا لم نره يشارك في "الجهاد" قبل سنة 647م، فمن المعقول أن يكون هذا المحارب النشيط، تمكّن من اجتياز Sokoto ويتقدم حتى النيجر ولكن ليس هناك ما يثبت ذلك"[2]، ويضيف قائلا: "إنه تولّى قيادة مصر بالنيابة سنة 647م ثم يتساءل عن المدّة التي يكون قد احتفظ فيها بتلك النيابة، ويفترض أنها تكون سنتان على الأقل، عاد بعدهما، ولا شك، للقتال على الحدود، ليتساءل، من جديد عمّا إذا كان أخذ طريق فزّان، ومنها طريق السودان؟ ثم يُجيب أنه ليس هناك ما يُثبت ذلك، ومادام المشرقُ كان ملتهبا ومصرُ كانت في وضعية تمرّد (révolte) فلا يُحتمل أن تكون شخصيةٌ كعقبة بقيت غير مبالية بالأمر ومع ذلك، فَمن أين يكون قد أخذ الوسائل والقوة العسكرية (effectif) الضرورية لعملية من هذا النوع[3]؟

---

(1)Hamet Ismail:op.cit. p.75sq

(2) sidi Okba,ses expéditions dans l'extrême sud,revue africaine,n°231,4ème trimesre [illegible] p.325

(3) Mercier: Op. cit., p. 325.

ولكي يدعم Mercier رأيه، راح يتصوّر أن عقبة، عندما سيّره الأمويون إلى المغرب سنة665 م، ترك قوة الجيش الرئيسية تتقدّم على الساحل وانطلق هو إلى أقصى الجنوب حيث"ظهر من جديد في فزّان لإكمال الاحتلال (conquête) ونشر الإسلام (l'islamisation) وهذا التزامن (في نظره) يدل على:

1) أن غزوته الأولى في فزّان لم تكن لها نتائج دائمة.

2) أنه انتظر، ليعود إليها، أن يحميه جيش من الشمال؛ ويراد التصديق أن يكون قد قام، وحده وبدون موارد، في هذه الفجوة الزمنية الممتدة من 650 إلى 665 م بحملة مُخاطِرة على السودان، في حين أنه لم يكن قادرا على مجرد العودة إلى فزّان.

وأخيرا، لا يمكن تحديد غزوه للسودان بفترة 666-668 م، ما دامت مدة رحلته الثانية لفزان معروفة، وهي خمسة أشهر، كما أنه ليس من باب السياسة أن يبتعد كثيرا، في الوقت الذي كان تعيينه على إفريقية قريبا جدا، وقد يكون سَعَى (briguer) إلى هذا المنصب..."[1].

وفي سنة641م. كان عقبة غير معروف تقريبا، وقد يكون، وهو بفزّان، في حماسة شبابه الكاملة، انجرّ في حلة مخاطرة إلى التّشاد أو السوكوتو (Le Sokoto)، ولكن عودته إلى فزان لم تكن إلا حوالي 666، ولم يحاول، في ذلك الحين، القيام بمغامرة كهذه، ثم إن مادحيه ماكانوا ليقصروا في إعلان ذلك[2].

وعن احتمال ظهور عقبة في بلاد السودان، انطلاقا من جنوب المغرب الأقصى، يفترض.E Mercier "أن يكون تَرَك القيروان حوالي

(1) Mercier, op, pp.325-326.
(2) Ibid, p.326.

منتصف 682م، ثم إن حملته لا تكون قد دامت إلاّ حوالي سـنة، وعنـد الاطلاع على تفاصيل الصعوبات التي واجهته، ينبغي الاعتراف أنه لـم يكن لديه الوقت الكافي للذهاب من السوس إلى النيجـر، مـادام قطـع المسافة كان يستغرق ثلاثة أو أربعـة أشـهر للـذهاب ونفـس المـدّة للإياب.."(1).

وفي النهاية يَخْلص Mercier إلى القول: إنه عند التسـليم بـأن عقبة نفّذ بنجاح هذه العملية الكبرى (عملية غزو السودان)، فإنه لم يكـن يستطيع ذلك إلا في الفترة المحصورة بين سنتي 641 و647م، انطلاقـا من فزّان، مع مقاتلين محدودي العدد، وهذا غير مسـتحيل، لكنـه فـي الواقع، قليل الاحتمال، اللّهم إلاّ إذا انضمت إليه مجموعات من البربـر الملثّمين، لأنه لم يكن في استطاعته الإقامة، لمدة طويلة تمكنّه من إنجاب أحفاد يُشكّلون مجموعة عرقية ما، إضافة إلى أن غزوته ربما كانت، مثل غيرها، باسم الخلافة، وكان سيقدّم الولاء إلى أمير المـؤمنين؛ وأخيـرا كيف.. يمكن تفسير عدم إشارة الحوليات التاريخية والأساطير، التي كان هذا البطل مادة لها، إلى حدَثٍ خارج عن المألوف، في حين أنها كانـت تعرِض بِمُحاباة (complaisance) أعمالا أقل من ذلك بكثيـر؟. وقـد يقال: من أين جاءت الروايات الدقيقة جدا، والمحفوظة في السودان، عن هذا الموضوع؟ لا أحاول تفسير ذلك وأكتفي بالقول: إن أهالي إفريقيا لا ينظرون إليها من قريب، و يَرُوق لهم اصطناع سلالات تربطهم بأوليـاء الإسلام أو بمحمد (Mahomet)، ومن المحتمل جـدا أن يكونـوا قـد احتفظوا بذكرى غَازٍ أَحدثَ من عقبة بكثير، ثم راحـوا يطلقـون عليـه

(1) Mercier: p.327.

إسمه، وفوق ذلك، فإن الإسلام لم يدخل بلاد السودان إلا مدة طويلة بعد ذلك، بعد غزو البربر الملثّمين الذين لم يعتنقوه سوى خلال القرن الثالث الهجري (9م)... [1].

- ولاية عقبة بن نافع الأولى على بلاد المغرب:

يذكر إ. ليفي بروفنسال "أن عمرو بن العاص، قبل وفاته بقليل سنة 43هـ/663م، أسند إلى عقبة قيادة (commandement) فريقية، وحسب روايات يصعب التحقّق من مصداقيتها، فإنه قد يكون، آنذاك، وجّه نشاطه نحو السودان، وثبّت الإسلام بحدّ السّيف في غدامس، لكن ذلك لم يكن سوى غارة (raid) وليس احتلالا (occupation) منظّما للمنطقة(pays)، و ينبغي الانتظار عدة سنوات حتى تأتي حملة جديدة، أكثر إعدادا من غيرها ولاشك، قصْد التوغل نحو الغرب...إنها حملة 50 هـ(670م) التي تَمخّض عنها تأسيس موقع القيروان العسكري..."[2].

ويتوقف.H. Fournel عندما قول البكري: إن عقبة بن نافع الفهري سار سنة46هـ إلى المغرب حيث سبقه معاوية بن حُديْج "ملاحظا أن المؤلف سَرَد رواية طويلة نقلها عن ابن عبد الحكم، رواية خاصة بحملة دامت خمسة أشهر وتكفي نهايتها، بصرف النظر عن المشاكل الأخرى، لإثبات استبعادها، ما دامت انتهت هكذا" من هناك التحق عقبة بالجيش في زويلة بعد غياب دام خمسة أشهر، وعندئذ اتجه غربا متفاديا المسلك المطروق (chemin battu)، فدخل أرض مزاتة واستولى على كل قلاعها، ثم توجه إلى قفصة، وبعد الاستيلاء عليها

---

(1) Mercier E.op,cit.,pp.327-328.
(2) Provencal E. Lévi: E.I.,n^{elle} éd., Leiden-Paris1936,T.III, art. Okba B. Nafi'a, p.1040.

وعلى قصطيلية وصل إلى القيروان". والواقع أن الأمر يتعلق بقيروان يكون قد أسسه معاوية بن حديج، في نقطة يسميها ابن عبد الحكم قُونْية، وهذا قبل أن يقيم معسكره في القرن، غير أن هذا المقطع الذي يبدو غامضا لا يستحق التوقف عنده، والذي ينجم، على ما يبدو، من الروايات التي رَأيتُ من الواجب السكوت على تفاصيل كثيرة منها مشكوك في صحتها، هو أن الحملة التي بدأت سنة 45هـ تواصلت أو ربما رُوفِقَت (seconder) سنة 46هـ بتحويل (diversion) تلقّى عقبة بن نافع أمرَ القيام به في فزّان وغدامس، في نفس الوقت الذي عُيّن فيه رُوَيفع بن ثابت الأنصاري واليا على طرابلس: فاستولى على مقاطعتها، وبعد ذلك بقليل أي في سنة 47 استولى على جرْبة[1].

وفي اعتقاد Fournel: أنه يمكن التصديق بأن تلك الحملة، حملة 46 وقعت رغم أن ابن عذاري والنويري وابن خلدون لا يشيرون إليها، وقد يكون من اللائق حذف التفاصيل العجيبة منها فقط، وإذا كانت بعض الخصوصيات دقيقة، وإذا كان صحيحا أنها انتهت بالاستيلاء على قفصة وقصطيلية، فكيف لم يظهر الروم، وكيف لم يظهر أحد من قادتهم؟ هل كانت هاتان المدينتان بعيدتين عن ممتلكاتهم، إلى الحدّ الذي لم يجعلهم يقلقون من استيلاء العرب عليهما؟. ويعترف Fournel أنه لا يمتلك عناصر أجْوِبة هذه الأسئلة لكنه يشك في أن الممتلكات الرومانية (romaines) (ويقصد الرّومية (roumaine))، كانت مثل ممتلكات الونذان، عند انحطاطهم، ضيّقة جدّا، عند قيام العرب بمحاولتهم الثالثة ضد إفريقية[2].

---

(1) Les Berbères,T.2, p.146sq.

(2) Ibid, p.150

ويلاحظ هذا الكاتب أن" الخط البــارز للحملتــين (حملتــي: 27 و45هـ) اللّتين رسم بهما العرب احتلالهم (conquête) لإفريقيــة هــو أنهما كانتا نُزهتين سريعتين تقريبا، انسحب فيهمــا المنتصــرون إلــى المشرق، بعد ابتزاز (rançonné) السكان، وما سيميّز الحملة الثالثة التي قادها عقبة بن نافع، والذي سيطبع، لأول مــرّة، الغــزو (conquête) العربي بخاصية الاستقرار، هو تأسيس مدينة على حدود إفريقية الحقيقية (propre) ومُزاق (Byzacéne)"[1].

ولتحديد تاريخ هذه الحملة، يعتمد نفس المؤلف على سطر أشــار فيه ابن عذارى " إلى حملة بَحْريّة، يكون عقبة، مع جيش مصريّ، قد قام بها ضد الروم سنة 49"[2] ويقول: "إن الأسطر الموالية له مفقــودة فــي المخطوط، وهذه الفجوة تمنعنا من معرفة النقطة التي يكون الــروم قــد تلقوا هجوما فيها. لكن النص سرعان ما يُستأنف ويُبيّن لنا عقبــة وهــو يغزو (envahissant) إفريقية، على رأس عشرة ألاف رجــل، ويُقتّــل (massacrant) النصارى، ويَحْمل الخراب إلى بلادهم، وهنــا أيضــا تُعوزنا التفاصيل، غير أنه يمكن تصوّر الذّعر (Juger de la terreur) الكبير الذي تركت مآثر (exploits) عقبة انطباعَهُ في القسطنطينية، عن طريق المبالغة التي تعكسها روايات المؤرخين البيــزنطيين: إذ يجعــل Théophane وCedrenus و Anastase le bibliothécaire السَّــنة الأولى من حكم قسطنطين الرابع، (Constantin IV) المدعو Pogonat تاريخ حملة قام بها الشرقيون(les sarrasins) على إفريقية و أســروا فيها ثمانين ألف شخص"[3] عِلْمًا أن السنة الأولى من حكــم قســطنطين

---

(1) Les berbères,T.2, P. 150.
(2) Id.
(3) Ibid, pp.151-152.

الرابع، تمتد من 15 يوليو 668 إلى 15 يوليو 669 م، وأن أول محـــرّم سنة49 هــ يوافق يوم الجمعة 9 فبراير 669م، مما يمكّن، مـــع بعـــض الاحتمال، من جعل بداية حملة عقبة في الأشهر الخمسة الأولى من عـــام 49هــ/669-670م[1].

فإشارة هؤلاء المؤرخين البيزنطيين، إضافة إلى نـــص البيـــان، وإلى تاريخ تأسيس مدينة القيروان، وهو تأسيس لا يمكن أن يتم إلاّ بعـــد الانتصار التام، جعلت Fournel يستنتج أن الحملة الثالثة، حملة عقبـــة بن نافع بدأت سنة 49هــ[2]، وهو هنا،كما يتبيّن، يسجل لعقبة حملتـــين على إفريقية أولاهما سنة 46هــ وثانيهما سنة 49هــ.

وفي علاجه لهذه النقطة ينطلق Caudel ممّا ذكره ابن ناجي عن تحديد بعض المؤرخين لتاريخ غزوة عقبة الأولى بسنة 41هــ، واعتباره سنة 46 هــ هي الأصح، كما يشير إلى تاريخي 40 و41هـــــ، اللـــذين حدّدهما به الوراق، وإلى ما قاله ابن أبي دينار من أن غدامس فُتحت في ولاية عقبة الأولى سنة 42، وإلى تحديد الورّاق لتاريخ حملة عقبة الثانية بسنة 46 هــ، وقد تكـــون الأولـــــى حـــدثت ســـنة 40 أو41 هــــــ. ويستخلص، أخيرا، وجود نفس الغموض دائما، يتمخضّ عنه الشك، ثـــم يتوقع أن يكون عقبة قام، في واقع الأمر بحملة استكشافية في المقاطعات الإفريقية سنة 40هــ تقريبا، وهو ما لم يمنعه من قيادة حملة جديدة سنة 46هــ[3].

وينتقد Caudel M. السيد Fournel لاعتباره الرواية التي يقدّمها البكري، عن هذه الأخيرة، أسطورة موضحا أن المؤرخ العربي ينقل عن

---

(1) Fournel, op. Cit., p.151, note5
(2) Les Berbères,T.2, p.151
(3) Les premières invasions arabes, pp. 96-97

ابن عبد الحكم روايةَ حملةٍ دامت خمسة أشهر، خَرّب عقبة أثناءها أرض مزاتة، واستولى على قفصة وقصطيلية، ووصل إلى القيروان، فعــلاوة على أننا لا نرى جيّدا مظهر الأسطورة في رواية بسيطة للغايـــة عــن حدثٍ وُقوعُه محتمل جدا، ينبغي علينا ملاحظـــة أن كُتّابـــا آخـــرين، لا يعرفهم السيد Fournel أكّدوا رواية البكري، وفضلا عن ذلك فإن مؤلفنا يتراجع عن قوله بسرعة كبيرة، ملاحظا أن الحدث، بعــد كــل شـــيء، ممكن، والحملة قد تكون تحويلا (diversion) وُجّه إلى غــدامس، فـــي حين كان رُوّيفع بن ثابت يستولي على طرابلس، ورواية المالكي تؤكــد هذا الخبر بجدية كبيرة، وفي السنة الموالية (47) ســـار رُوّيفـــع مــن طرابلس إلى إفريقية وعاد منها في نفس العام، وحسب ابن الناجي فقــد يكون أسس، آنذاك، مسجد الأنصار بالقيروان، كما استولى رُوّيفع، وهو في طريقه إلى إفريقية، على جربة، وقد رأينا سابقا أن ابن أبي دينار بقي معلقا بين تاريخي 40 و 46هـــ. غير أن اتفاق المؤلفين لا يســمح لنـــا بالتردّد بين الاثنتين، فالثانية هي التي ينبغي تبنيها.(1)

وبعد كل هذا يتساءل Caudel قائلا: فيما يخص حملة عقبة، فمـــا هي بالضبط؟ ثم يجيب: أن بحوزتنا معلومات قليلة عن هذه النقطة وما يقدّمه منها ابن الناجي يَتشابه مع مايتعلق بحملة 50" واستولى على قلاع كثيرة، وقتل أعدادا كبيرة من الروم والبربر، وأسس مدينـــة القيـــروان، وبقي بها عدة أيام" وباختصـــار، يعتقــد Caudel أنهـــا كانـــت غـــزوة كسابقاتها، ومِن ثَمّ فهو يرى بحزم، كما يقول، وجوب تَبَنّي نظام تعــدّد الحملات، في هذا الموضوع: إذ أن محاولات العرب في إفريقية، ليست

(1) Les premiẽres invasions arabes, pp.97-98

في حاجة إلى تخطيط مسبق، من مدّة طويلة، ولا إلى إعداد كبير، فالقادة الذين يقومون بها يَعرفون أنهم غير مستقرين في أماكنهم، ويُفضّلون البقاءَ بعيدا عن السلطة المركزية وتلهيةَ رجالهم: فالقوة الإسلامية الطاردة نشرت الإسلام بسرعةٍ كبيرة ونجاحٍ باهر، قذفتهم خارج مصر، نحو الأطلس مثلما دفعت زملاءهم إلى ما وراء نهر دجلة (oscus) والذين ببلاد الشام إلى آسيا الصغرى وهذا الاعتبار يؤدي بنا إلى قبول الاحتمال الكبير لوقوع حملةٍ لمعاوية بن حديج سنة 40، وأخرى سنة 41 وحملة عقبة سنة 43 على السودان وودّان، من بلد برقة، وحملة معاوية بن حديج سنة 45 وأيضا حملتا: رُويفع و عقبة سنة46. وقد كانت كلها مسيرات عادية، غير جديرة باهتمام المؤرخين، وقد أربكت تفاهتُها الراوي الذي تأخر كثيرا ولم تُوضّحها له الروايات المُريبة جدّا لدرجة أن الأحداث فيها كانت هاربة (fuyants)، غير منطقية ونسبية، والحدث الذي يهيمن على غيره من الأحداث، والذي يهمنا وحده، والذي نُتابعه من خلال سطحية التفصيل هو استقرار العربي في إفريقية[1].

وبالنسبة لإ. مرسيِـي (Mercier E.) "فإن الأمويّين أرسلوا جيشا إلى مصر سنة663م واستؤنفت الحملات على المغرب، وعاد ظهور عقبة على المسرح، فقاد عدة حملات، ثم وكأنّه جُذب نحو الجنوب، فعاد إلى فزّان وقضى بها خمسة أشهر، فارضا الإتاوات (tributs) مع الخضوع والإجبار على اعتناق الإسلام و ارتكابِ فضائع كبرى (666-668م)..."[2] ويَعتَبر نفس المؤلف هذه الغزوة هي رحلته الثانية لفزّان وأن مدّة قيامه بها كانت قريبة جدّا من تاريخ تَعْيينه على

(1) Caudel M:op.cit., p.98
(2) Sidi Okba, ses expéditions dans extrême sud, p.324

ولاية إفريقية وهو 669م[1]. وقد يكون سعى (briguer) للحصول على هذا المنصب، وأنه كان له مخططه الجاهز، كما كانت تجذبه، لإخضـاع بلاد البربر بوجه خاص، جاذبية قوية[2].

ويعتبره Caudel الأكثر خبرة تقريبا، مقارنة بجميع قادة الحملات السابقة لأنه، منذ الشروع في الغزو، في عهد عمرو بن العـاص، كـان يسكن برقة وزويلة[3] ومن برقة حيث كان يقيم (réside) تَمكّـن مـن متابعة الحملات التي لم يشارك فيها مباشرة فأدهشه عجز جهوده وجهود رفقائه في السلاح ورأى تحول تعاون البربر النشيط إلى عـداء معلـن (ouvert) تقريبا، ممّا صار يعرض نجاح الحملات إلى خطر، وبالإمكان تحويل الانسحابات إلى هزائم ولاحظ عودة المقاتل المسلم، بسرعة إلـى الخلف، بعد تقسيم الغنائم، في كل مرّة، دون أن يحمل هـمّ المسـتقبل، تاركا بلدا ينبغي عليه إعادة احتلاله (reconquérir)، في حـين كـان بإمكانه الحفاظ عليه بسهولة، وقد استغرب مَنطقُه العسكري مـن هـذه الأخطاء، وسخط حماسه الديني من ارتدادات البربر وتراجعات الإسلام، فهو يفكر في الإيمان (foi) أولا، يريد معاقبة المرتدين ونشـر العقيـدة الإسلامية؛ ومن أجل ذلك ينبغي الاستقرار، نهائيا، فـي الـبلاد وعـدم التراجع، أبدا، ولو بخطوة واحدة..[4] فكان له هـدف واضـح ووسـائل محددة: الهدف هو إخضاع إفريقية نهائيا، والوسائل هي الاستقرار فـي البلاد، ومن هناك ينشر الإسلام بين سكانها، بعد ذلك[5].

---

(1) Sidi Okba, p.326
(2) Id.
(3) les première invasions arabes, p.98
(4) Ibid, pp.100-101
(5) Ibid, p.99

وللاستقرار يجب تثبيت العربي، الذي يلتفت باستمرار إلى مصر، توفير مكان آمن له ولعائلته وسيهيمن على المقاطعة جيش متحصن بقوة. في موقع مختار بعناية، وينشر بسهولة بين البربر، عقيدة يتقبلونها عن طيب خاطر، على ما يبدو، فإن لم يتقبلوها طوعا، سيفرضها عليهم بالقوة، وفي البداية سيُرْهِبهم بإبادة المرتدين الذين ستقع عليهم يده، إبادة جماعية، ذاك ببساطة هو مخطط المحتل[1].

ويرى Fournel أنّ "الحملة العربية الثالثة" التي قادها عقبة وجهت أساسا ضد الأهالي (indigène)، لأن المعمرين البيزنطيين، لم يعتنقوا الإسلام تفاديا للابتزاز، مع أنهم تكبّدوا اغتصابات المنتصرين، فيتأكيد إذًا أنّ عقبة كان يقصد البربر، عند اقتراحه على جنوده، قائلا: "بناء مدينة عندما يدخل إمام إفريقية..."

ويلاحظ Caudel أنه لم ينصرف، ولو لحظة واحدة، عن هدفه فلم تكن له هناك أعمال أخرى، ما عدا تأسيس القيروان، في هذه الحملة إلا ما أشار إليه البلاذري من استيلاء بسر بن أبي أرطأة على قلعة مجاورة للقيروان، كما يلاحظ أيضا أن الروايات التي تحدّثت عن الحملة لم تتطرّق إلى الغنيمة وقد تكون هذه الأخيرة جُمعت، لأن الجندي لم يكن يتحرك بدونها ولكن انشغالات القائد العام كانت في غيرها[2].

ويعتقد إ. ليفي بروفنسال Provençal (E. Levi) أنّ قصد حملة 50هـ/ 670م، التي تمخّض عنها تأسيس مدينة القيروان، هو التوغل نحو الغرب و لم تستهدف، هي الأخرى، تدعيم نتائج الاحتلال العربي" وربما كان تحت تصرف عقبة في هذه الحملة، عشرة آلاف فارس، وقد

(1) les premieres invasions arabes, p.102
(2) Ibid, p.101

يكون هذا العدد ارتفع شيئا فشــيئا، بانضـــمام فــرق (contingents) بربرية، اعتنقت الإسلام، إليه وبفضل ذلك تمكن من مواجهة البيزنطيين الذين صمدوا في مدن الساحل الإفريقي وكذلك البربر[1].

وفي رأي .Marçais G "فإن عقبة يبدو أنه تصرّف بمنهج أكبر، ومقاصد أوسع من سابقَيْه، ولم يسبق للظرف أن كان مناسبا أكثر للعرب: فالإمبراطور قنسطانز الثاني (Constant II) كان قد قُتل، قبــل قليــل، فوجه خلفُه قنسطنطين بروقونة (Constantin Progonat) نــداء إلـــى القوات البيزنطية، في الغرب، لمجابهة مغتصب ظهر بصـــقلية، تاركـــا فراغا كبيرا بإفريقية، ومن المؤكدّ أن عقبة، أثناء تقدّمه، عبـــر الجريـــد ومُزاق (Byzacène) لم يلتق بالبيزنطيين: فـــلا تَصــادُم للجيـــوش ولا حصار للمدن، والقلاع المحرومة، ولا شك، من المدافعين كانت تســقط تلقائيا، والممتلكات كانت تُنهب وتُهدّم، والسكّان يُقتّلون أو يحوّلون إلـــى عبيد، إلاّ إذا أسرعوا في الدخول إلى الإسلام؛ وهذا الانتصار السهل في الظاهر، حُقق ضد بربر مسيحيّين في أغلبهم، غير مُهيئَين للمقاوْمة، ولم تحميهم الحاميات الإغريقية – إن بقيت هناك حاميـــات– ولتـــدعيم هـــذا الغزو العسكري وتسهيل سَيْره، فيما بعد، أسس سيدي عقبة القيروان سنة 670م[2].

ويذهب.Terrasse H إلى القول: إن الغارات العربية اســـتؤنفت على مزاق (Byzacéne) سنة 664 م، معلّقا بأن كـــل الغـــارات التـــي تحدّدها النصوص ما بين 660 و664 مَشكوك "في أمرها كثيرا، و فـــي سنة 670 م تمكن جيش" بقيادة عقبة بن نافع من الاستيلاء على الجنوب

---

(1) E.I..,n[elle] éd., Leiden- Paris 1936,T.III, art. Okba B. Nafi'a, p.1040

(2) La Berbérie musulmane, p.31

التونسي (الحالي) بدون صعوبات، ولإظهار أن الإسلام استقر نهائيا في بلاد البربر، أسس عقبة مدينة جديدة، هي القيروان[1].

وقد وقع لُبس كبيير للجنرال Brémond فاعتبر"سيدي" عقبة وصل في جولته (sa randonnée) هذه حتى المحيط الأطلسي" دون أن تعترضه مقاومة من البربر، وقرّر، أثناء عودته، تأسيس (crée) بادية (bédouinerie) مقرّا للبدو، مثلما فعل المسلمون في بلاد الشام وبلاد الرافدين... وقد سميت تلك البادية القيروان، المعسكر (le camps)"[2].

وفي تعليقه على تأسيس القيروان، في موقع قمّونية الواقعة على بعد ثمانية فراسخ إلى الشرق من جبل ممطور، حيث كان يوجد حصن صغير، بناه الإغريق، يذكر Fournel H. أن السيد Hartaman شكّ، منذ 1796 في كتابة تسمية قمّودة عِوضا عن قمّونية، وأن السيد Nicholson رأى "أن وقوع هذا التغيير غير مدعوم بما فيه الكفاية؛ وعلى العكس من ذلك، فقد أعرب عالمان مستشرقان Quatremère Et. de goeje؛ عن رأيٍ مَفادُه: أن البكري يكون قد أخطأ في كتابه قمّونية بدل قمودة... وأنّ منطقة جنوب القيروان كانت، على ما يبدو، تحمل اسمين"[3]؛ وقارن Fournel بين ما يشير به البكري" إلى قمونية ليس كمدينة ولكن كإقليم يحتوي على بلدات (bourgs) وقرى، وبين ما قاله التجاني من أن" مدينة قمونية هي باب من أبواب الجنة" ثم تحدّث عن سواحل قمونية... شواطئ قمونية" وهي عبارة تتضمن فكرة إقليم (territoire) واسع"[4]، وبين ما تحدث به" اليعقوبي وابن حوقل وابن

---

(1) Histoire du Maroc,T.1,pp.79-80

(2)Berbères et Arabes, p.182.

(3)Fournel H.: Les Berbères,T.2, p.152 sqq.

(4)Ibid, p.153, note2.

سبّاط عن قمّودة كبلد (pays) وما تحدث به الإدريسي وابن عذاري والنويري وابن خلدون والزركسي عنها كمدينة"[1] ويستخلص، في النهاية أن المقابلة بين مقطعين مأخوذين من حُجتين (autorités) كبيرتين: ابن حوقل والبكري يثبت، في آن واحد، أن قمّودة وقمّونية هما اسم لإقليم واحد: يقع جنوب القيروان وتمتد من ناحية الشمال الشرقي إلى البحر[2].

ويتساءل Fournel ما إذا كان القيروان أُسّس على أنقاض حصن قديم مثلما قال النويري؟ ثم يجيب أنّ هذا الجزم (assertion) لا يَستبعد فكرة أن يكون عقبة قد اختار موقعه على ميلين، شمال المدينة الرومانية، على الآثار التي ستبنى فوقها، بعد ذلك بكثير، في سنة 335هـ/946م مدينة صبرة الفاطمية[3] ويستطرد نفس الكاتب قائلا:" من المؤكد إذًا أن تكون مواد (matériaux) رومانية استعملت في بناء هذه المدينة، ويحتمل جدا أن تكون جاءت من نقطة غير بعيدة وأن جِوَار محطة رومانية، ولو خربة، (ruinée) من شأنها أن تُلقِيَ، في مجال الأساطير، تلك الرواية العربية التي تصور لنا موقع القيروان كغابة غير نافذة (impénétrable)، مليئة بالثعابين والحيوانات المتوحشة... وأن العرب كانوا في حاجة إلى العجيب (du merveilleux)، وأن عقبة كان، كلّما رأى ترددا لدى هؤلاء الأطفال الخطيرين في ميدان القتال، يَعرف دائما كيف يُدخل حادثا مناسبا، خارقا للعادة، يوحي بالخضوع...وعند افتراض قبول الرواية العربية لِلَحْظة واحدة، فلا يُحتمل أن يكون الجنود البواسل الذين كان عقبة يقودهم ذُعروا من تواجد بعض الحيوانات المتوحشة، ولكن فكرة مدينة لإقامتهم، بعيدا عن مسقط رأسهم، ربما تكون قد

---

(1) Fournel, op. cit., p.154, note2.
(2) Id
(3) Fournel: Op. cit., p.155

عَاكَست غَرائزَهم وطبائعهم، ومن هنا ولا شك، جاءت الكراهيــةُ التــي كنّ على قائدهم الانتصارُ عليها"[1].

ويستغرب Fournel أخيرا أن يكون البيزنطيون، محتلوا إفريقيــة الحقيقية (propre)، قد تركوا العرب يبنون مدينة على بعد ثلاثة أيام من قرطاجة، في أمان، وهذا مشكل قد يكون حلّه مختفيا، في بعض الأسطر الساقطة من كتاب ابن عذاري الذي يبدو أنــه تكلــم، حســب البكــري الاشبيلي)، عن معاهدة سلام مــع الافــرنج (les francs)، ويلاحــظ فورنيل بأنّ القسم الخاص، من كتاب البكري، الذي يشير فيه إلى تأسيس القيروان لم يصلنا[2].

ويَردّ Caudel على الذين ادّعوا أن معاوية بن حديج سبق لــه و تصوّر المشروع الذي نفذه عقبة بن نافع بقوله: " لقد حدث لعقبة مثلما يحدث لكل مبتكر (innovateur)، بحيث يلتقــي أشــخاص ليــدّعوا أن شخصا قبله، سبق له وأن تصوّر المشروع الذي نفذه"[3] ثم يَفْتــرض أن ابن حديج يكون قد قام بغارة سنة 50هــ، وهذا غير مستحيل، لكنه لــم يكن يستطيع الإقامة في القرن ثلاث سنوات، بحجــة أنــه مــات ســنة 52هــ/(972)، خارج إفريقية. ويتساءل أخيرا ما إذا كان ابن حديج سبق عقبة في هذا التصور؟ ثم يجيب أنه من الطبيعي أن يُفكّر أمير"(كــابن حديج) في تحصين، موقع وجعله مركزا لعمليات نهبه، لكن هذا يختلــف تماما عن تأسيس مدينة خاصة بالإقامة الدّائمة، ففي الروايــة الخاصــة بالحملة السّابقة، كما في بقية الروايات، تأخذ الغنيمة مكانها فيها، وهــذا يكفي لتمييزها؛ فإنْ سبق لابن حديج أن أنشأ موقعا متحصنا فعقبة يعلــم

---

(1) Fournel, op. cit., pp.156-157
(2) Les Berbères,T.2,pp157-158.
(3) Les premières invasions arabes,pp.101-102.

ذلك، وقد يكون استفاد من الفكرة وطوّرها كثيرا ونفـذها بتـألّق كبيـر ليجعلها مِلْكا له، وتمت عملية التأسيس سنة50 هـ/670م. فـي موقـع مدينة يسميها العرب قمّونية وقد سجّل Caudel (الخطأ الواضـح) فـي رواية المالكي التي تُحدّد تاريخ التأسيس بسنة 57هـ/670م. ملاحظا أنه يخلط، من البداية إلى النهاية، بين ظـروف حملتـي سـنة 50 وسـنة 62هـ[1].

وعن موقع القيروان يرى هذا المؤلف أن اختيـاره "كـان جيّـدا لدرجة أن الولاة العرب، والأمراء المستقلين الذين أعقبوهم، استقروا فيه طويلا ولم يغادروه إلاّ بعدما كانت ضرورات سياسية جديدة تجبرهم...، فهو وسط سهل واسع ومفتوح، قريبٍ جدا من الجبال التي تغلق أشباحها الزرقاء الأفق، غربا، غير بعيدٍ عن البحر....

فموقع المدينة الاستراتيجي كان بارزا، والأمير الذي وضع هناك مركز عملياته، يرى تقدّم العدوّ من بعيد، ويستطيع بسهولة الاحتراس من هجمات (المقاتل) البربري المفاجئـة، المألوفـة، وإنْ أراد ملاحقتَـه أو البحث عنه في نُجودِه، فإن الطرق تنفتح أمامه: إذ تنقله بعضُ سـاعاتِ المشي في منخفضاتِ (vallées) وادِ زرود أو وادِ مَرْ قَلِّيل، أو شـعاب (défilés) جبل بَارْقُو، إلى الهضاب العليا التي يُمكنُـه، دائمـا، مسـح أطرافها، إنْ كانت له قوّات كافية، وخيالة خفيفة، ماهرة جدّا فـي هـذه الخدمة الاستكشافية، من غارات سريعة ومراقبة مستمرة، ففي الغـارات السابقة كان الجيش العربي مثقلا بأمتعته وعائلاته، أما الآن وقد تمكّـن من تركها بموقعٍ، في أمان، فهو أكثر مرونة وخفّة من الجيش البربـري

(1) Caudel: Op. cit., pp.102-103

نفسه، وكانت قُدرة هذا الأخير تتمثل، تقريبا، في سرعة حركاته فقط، والتفوق عليه في السرعة يعني هزيمته في عين المكان؛ أما الإغريقي (البيزنطي) فإن الأمير يتجاهله ويتحدّاه، ويتعجب السيد Fournel من رؤية العربي يستقرّ نهائيا، قريبا جدا من قرطاجة، ويتساءل من جهة أخرى، عن وضعية الروم آنذاك. والسؤال الأول هو حلّ للثاني: فالأمير العربي، في القيروان، على بُعد ثلاثين فَرْسخا من العاصمة الإغريقية، مقيم بجرأة، خلف تحصينٍ مُبْهم، يُمكنه توقيف المهاجم البربري، لكنه يدفع آخر مهندسي الإمبراطورية العسكريين إلى السخرية، و هذا يعني الضعف الكبير (للإنسان) الرّومي، بل تدميره قبل ذلك، و ربما بقي صامدا خلف بعض التحصينات، وربما سَيَتمكّن، من حين لآخر، من جمع بعض العساكر وضمّها إلى القبائل البربرية، في محاولة أخيرة، لكنه كان عاجزا بمفرده. فكان حلفاؤه، من الأهالي، محلّ اهتمام المحتلين (envahisseurs)..."(1)

ويحدّد (أ. ف.) قوتيي (Gautier E.F.) موقع "المحتل العربي الرئيسي في طرف (l'orée) الصحراء، وهو يحمي الطريق الصحراوي الكبير، الآتي من مصر، في حالتي الهجوم و الانسحاب، كما يواجه الأوراس و فيه، وليس في مدن الشمال، يوجد العدوّ الخطير الذي قد يقض عليه، في تلك الكتلة الجبلية و في الوديان (Vallées) المرتفعة التي تمتدّ شمالا، و هذه الأرض هي بالضبط نوميديا الرومانية والقرطاجية، و ما من شك أن كل الصّدامات الحاسمة التي حدثت في العشرية (décade) الأولى من الغزو (conquête) العربي كانت هناك،

(1) les premières invasions arabes, pp.105-106.

حول الأوراس، والوضعية كانت هي نفسها في القرن السابق، عند إعادة الاحتلال البيزنطي..."[1].

وفي نظر Terrasse H. فإن عقبة أسس مدينة جديدة، القيـــروان، ساحة العرض العسكري، في مدخل الأراضي المحتلة أو التي ســتُحتل، لإظهار أن الإسلام استقر نهائيا في بلاد البربر؛ وكـــان قـــادة الجـــيش الإسلامي يؤسسون دائما، مدنا جديدة يستخدمونها، كقواعد لعملياتهم، ثـــم يستقر فيها، بعد ذلك، جيشهم، بعيدا عن السكان غير المسلمين...، وقـــد كانت هذه المدينة الحديثة تَحرُس طريقَ مصر، وتواجه الأوراس حيـــث كانت تلتقي (se conjuguer) المقاومات البيزنطية والبربرية، وكانـــت تحمل علامة مؤسسيها: إذ كانت ترتفع في هضاب واسعة، حيـــث كـــان البَدْو المعادون للجبل والغابات والبحر، في آن واحد، يشعرون بالأمـــان بجوار أرض الفيضانات، وحيث يمكن جمعُ محصول جيّد، وقد حـــدَّدت موقعَها بئرٌ.. وعُدّت أحدَ أقطـــاب الإســـلام الغربـــي... قَبـــل قُرْطُبـــة بكثير...[2].

ويرى (إ. ليفي) بروفنسال أن تأسيس القيروان شكّل نقطة دعم قوية للجيوش العربية، حتّى وإنْ لم يكن مكّن من احتلال إفريقية وتأمينها بسرعة، فهو على الأقل مكّن من ضمها إلى ديانة المحتلّ وسلطته[3].

وبالنسبة للجنرال Brémond فإن عقبة اختار، لتأسيس باديتـــه، القيروان سنة 665 م، مفترقا للطرق، كان آنذاك خالـــيا تماما، في أرض

---

(1) le passé de l'Afrique du Nord,p.254
(2) Histoire du Maroc,T.1p.80
(3) E.I..,n^{elle} éd.,Leiden- Paris 1936,T.III,art. Okba B. Nafi'a,p.1040

قاحلة، قرب بعض الآبار، ذات ميـــاه أجّاجه (saumâstre)، ويُعتبر أحد تلك الآبار، بئر بَرُوتَة، متصلا ببئر زمزم في مكة[1].

ويذهب (ش. أ.) جوليان إلى القول: "إن عقبة بن نافع الذي ســبق نه وأن قام بحملة ساطعة على فزّان، نظّم حملـــة ثالثـــة، تختلــف عـــن سابقتيْها الأخريين، من حيث أنها انتهت بتكوين إقامة دائمة...فـــي قلـــب مزاق، بسهل واسع، شبه صحراوي، وهي القيروان، بعدما خلّص الموقع (la place) من كل الحيوانات المتوحشة والحيّات... وهو موقع موجّه، بكل تأكيد، ضد البيزنطيين الذين كان بامكانهم استعمال المدن الســاحلية لقيام بهجوم، ولكن بصفة خاصة، ضد البربر الذين أصـــبحوا وحـــدهم يمثلون، بعدئذ، الخصوم الخطيرين، ثم إن القيروان لم تَحْمِ طريق مصر، لذي كان ينبغي أن يبقى حرا للتموين والانسحاب المحتمل، فقط، ولكـــن كانت تواجه الأوراس الذي صار لُبّ (Môle) المقاومة[2].

وعن أسباب عزل عقبة من منصبه يـــرى Caudel أن التنحيـــة، في ذلك الوقت،" كانت تَضْرِب، خبط عشواء، الوُلاّة المتحمّســين جــدا (trop zélés) أو الذين تنقصهم الحمية للقيام بمهـــامهم، الـــذين كـــانوا سعداءجدّا أو الذين لم يكونوا سعداء، بما فيه الكفاية، وكان عُقبة من بين الأوائل؛ وقد تكون خطته أدهشت الخليفة (معاويه) وكذلك نظرته البعيدة لمدى التي قد يكون نسي عرضها عليه؛ كما أن غياب الغنيمـــة قـــد لا يكون أعجب الخليفة[3]. ويرى في مكان آخر، أن والي مصر، مَسْلَمة بن مخلّد، أرسل مولاه أبا المهاجر إلى إفريقية "لأن مظاهر عقبة الاستقلالية كانت تُقلقه، ولأنّه لم ير ما ينفع في الحملة التي قادها هذا الأخير، ولأنه

(1) Berbères et Arabes, p182
(2) Histoire de l'Afrique du Nord,T.2, p.165
(3) Les premières invasions arabes, p.108

أراد تعويضه برجل ثقة، يُرسل إليه مواد الخراج بانتظام"[1]؛ ويردّ (ش. أ.) جوليان أسباب ذلك العزل لما أُخذ" عن أفكاره العسكرية الصرفة وموقفه العنيف من رؤساء البربر، وتقتيله (Massacre) المنظّم، وغاراته (raides) التي كانت خطيرة بقدر ما كانت عديمة الفائدة[2]؛ أو أن ذلك يعود، حسب .Terrasse H، إلى أن "الخليفة كان، ولاشك، يحترس من الروح الاستقلالية للقادة المنتَدَبين إلى ثغور الإسلام"[3] أو يَرجع، حسب ج. مارسي، إلى أن الوالي الجديد، مسلمة (ابن مخلد) الذي استقبلته مصر سنة 671أو 672م، وكانت إفريقية تابعة إليه عَوّض عقبة برجلٍ له، هو مولاه أبو المهاجر[4]، وهذا نفس ما ذهب إليه (إ. ليفي) بروفنسال بقوله: "إن إفريقية بقيت تابعة لولاية مصر، فعزله واليها الجديد، مَسْلَمة بن مخلد الأنصاري، بمولاه أبي المهاجر سنة 55هـ/675م[5].

ويتوقف Fournel عند موضُوع ولاية مصر وعلاقتها بإفريقية فيقول: إن" البلاذري يَزْعم، حسب الواقدي، أن معاوية بن حديج عُزل عن ولاية مصر ليَتْرُك المكان لمسلمة بن مخلد، لكن هذا خطأ، بكلّ تأكيد،ما دمنا رأينا...أنّ ابن حديج، كان قد مات، منذ ثلاث سنوات (سنة52هـ)، و قد نقل ابن عذاري والنّويْري وابن خلدون نفس الرواية (assertion) التي أَعتقِد أنها خاطئة، في كل النقاط، لأن مسلمة، بالنسبة إليّ، كان واليا لمصر منذ عام47هـ، وبقي بها إلى عام 62هـ، ولهذا السبب، ولاشك، افتَرضَ بعضُ المؤلفين، خطأً، أنه كان يحكم مصر

(1) les premiéres invasions arbes, p.107.
(2) Histoire de l'Afrique du Nord, T.2, P.16.
(3) Histoire du Maroc, T.1, P.80
(4) La Berbérie musulmane, p31.,
(5) Provençal E.Lévi, op.cit, p.1040

بإفريقية منذ عام 50هـ، وراحوا يُنْسبون إليه تأسيس القيروان الذي قد تمّ على يديه وحسب هذا الافتراض، فقد يكون تمّ، على الأقل في عهد ولايته. والمؤرخون الذين سلّموا (admettant) بأن ابن حُديْج كان واليا على مصر، قبل مسلمة بن مخلّد، يقولون بأنه احتفظ بهذه الولاية مدة أربع سنوات، وقد يكون هو الذي أرسل عقبة بن نافع إلى إفريقية، حسب رأيهم، لكن البلاذري نفسه يضيف: أن هناك من يقول: إن معاوية بن أبي سفيان هو الذي عيّن عقبة على ولاية المغرب. وابن خلدون يقول هذا بإيجاب (positivement)، وهنا تَكمُن الحقيقة، ويُمكن رؤية تفسير الأحداث اللاّحقة...، ولِتأييد حلّ مشكلتي يمكنني، إلى حدّ ما، الاستناد إلى عبارات القيرواني، رغم خطأ تاريخه وتشويه أسمائه، تقريبا"[1].

ويذهب Caudel، انطلاقا من رواية ابن أبي دينار، حول عزل عقبة وتولية أبي المهاجر سنة 51هـ، حيث وصفها بعدم الدقة في كلّ بعضها الى القول: ورأى أن صاحبها" يَخْلط، بصفة مؤسفة، ولاية مصر مع ولاية إفريقية، زيادة على ارتكابه خطأ في التواريخ، فولاية مصر كانت، منذ 47هـ/667 م، لِمسلمة ابن مخلد الأنصاري الذي احتفظ بها حتى وفاته (في 25 رجب سنة 62)، ولم يَقُم الخليفة سنة 55هـ/674م، و ليس سنة 51 هـ/671، كما يقول ابن أبي دينار، إلاّ بضمّ ولاية إفريقية إلى ولاية مصر، فولّى مسلمة...على إفريقية أحدَ مواليه، دينار.."[2].

ويعلق Pellat CH.، أيضا، على ما ذكره الطبري من أن ابن حُديج عُيّن واليا على مصر سنة 47 هـ/667 م وعُزل سنة

---

(1) Les Berbères,T.2,p.159,note.5 .
(2) Les premières invasions arabes,pp-106-107

50هـ" قائلا: "إن مسلمة بن مخلّد هو الذي كان، في الواقع، يشغل هذا المنصب.

- ولاية أبي المهاجر دينار:

يعرّف Caudel M. هذه الشخصية بأنها ليست ما يمكن تسميته "رجل الخيام الكبيرة"، رجلا من معدن طيّب بل، على العكس من ذلك هو من نمط القائد بالصُّدفة، نشأ من العدم، ووصل إلى القيادة عن طريق محاباة سيّدٍ بقدر ما وصل إليها عن طريق موهبته الخاصة، فهو مولًى لوالي مصر... يسمى دينار فقط، وربّما لا يستطيع أن يقول مَنْ هو أبوه، وقد كُنيَ بأبي المهاجر، وهذا لا يُكوّن له نسبا، ويبقى شخصاً (Personnage) صغيرًا، إلى جانب قادة آخرين من نسب عريق، لكنه رجل وفيّ وخضوع، ينفّذ بدقة وذكاء أوامر سيّده... فدينار يريد، قبل كل شيء أن يُرضي، وهو يعرف أنه لكي يُرضي، عليه أن يرسل نقودا معدنية إلى مصر، وسيبحث عنها أينما وُجدت، وسيستخدم، في البحث عنها، الذين يستطيعون مساعدته، والبربري موجودٌ هناك، قريب جدا منه، يَعْرِض نفسه، شريطة أن يكون له نصيب من الغنيمة، ولن يُستغرب أن يكون هو الأول الذي يدلّ على الضربات التي ستوجّه، ويقترح مساعدته... والمولى دينار ليس من جنس زُهَيْر بن قيس: إذ لا تُربك بَالَه انشغالاتُ الآخرة، وهو قليل التقدير للدعوة المفرطة، ليس كَعُقبة، الذي يحاسب البربر والروم على ردّتهم، ويَدّعي إرْشادَهم إلى الطريق المستقيم، بحدّ السيف: فدينار يُمارس دعوةً أكثرَ حِذقًا، دعوة النّهب، وطبعا فهو يشترط على من يقاتل تحت لواء الإسلام أن يكون مسلما، فأعلن القائد البربري إسلامه من طرف اللسان (du bout des lèvers). وهذا ما لم يُكلّف كثيرا، ونفس الشيء بالنسبة لبقية أفراد

القبيلة، والأمير يغضّ النظر عن كل البدع التي تزدهــر (fleurissent) في معسكره، بل قد يتفق فتورُ (tiédeur) عقيدته ووطنيته العربية مع لا مبالاة قادة الأهالي، أكثر مما يلتقي مع الكبريــاء الوطنيــة المتّحمسّــة والتعصّب الوحشي لمُساعدِيه (العرب)، أنه صديقٌ لِكُسَيْلة، وقد تَرافَــق الشريكان الماكران، دون أن تُكدِّر أيّــة ســحابة صــداقتهما، لســنوات عديدة"[1].

وعن كيفية وقوع الاتصال الأول بين الرجلين يتوقــف Fournel عندما ذكره ابن خلدون عن وفاة سكرديد ســنة 71هـــ/ 690-691م، معلّقا بأن "الأحداث التي ستُتْبع مباشرة تُبيّن أنه ينبغــي قــراءة 51هـــ عِوَضًا عن 71، إلاّ إذا تمّ التسليم بأن سكرديد، إنْ كان تُوفي فعلا ســنة 71، سبق له وأن تنازل عن القيادة لِكُسَيْلة، نظرا لكبر ســنّه ولخطــورة الظروف، غير أن هذا الافتراض يفسر ما يقوله ابن خلدون، في مكــان آخر، "... ومُرادِفه سكَرْدِيد..."، ومهما يكن، فإن هذين القائــدين كانــا يحتلان (occupaient) المغرب الأقصى، مع قبيلتهما أوربــة وقبائــل أخرى. وبالتالي فأنهم بقوا غرباء تماما عمّا جرى، بعيدا عن أرضــهم، من غارات (Courses) عربية على إفريقيــة وكــذلك تأســيس مدينــة القيروان التي اكتمل بناءها سنة 55هـــ ولكن أحد أعمال أبي المهــاجر الأولى، كان تَقَدُّمه نحو الغرب إلى عيون تلمســان، بــل إن القيروانــي يقول: إنه استولى على المدينة، ولم يكن هذا الزحف الجَسور، والاستيلاء على مدينة هامة، قريبة من ملوية، ليقصرا في إيقاظ قلق أوربة، فجــاء

---

(1) Les premières invasion arabes, pp. 122-123

كسيلة للاشتباك بأبي المهاجر لكن القائد البربري الذي هُزم وأُسر، لم ينج من الموت إلا باعتناق الإسلام"[1].

وحسب Mercier E. فإن المولى أبا المهاجر الذي جــاء فجـأةً، كخلف لعقبة في الولاية، كان عليه خوْض حرب (eut à Lutter) ضــد ثورة الأهالي الجديّة الأولى، فيسطر عليها بسرعة وتقدم منتصــرا إلــى الموقع الذي ستقام به، فيما بعد، مدينة تلمسان حيث كانت توجد آنــذاك آثار متناثرة لإقامة رومانية صــغيرة تســمى pomaria[2] ولــم يشــر Mercier هنا إلى ما يكون قد حصل بين أبي المهاجر وبين كسيلة.

ويذهب (إ. فـ.) قُوتيي إلى القول: "إن ابن خلدون ...لــم يحــدد مواقع الأوْرَبيّين الأوائل (Primitif) في الأوراس، بل لا يحددها في أية جهة أخرى، فالأمر على ما يبدو قديم جدا، والدقة تَفلِت منه، غيــر أنــه يُستنتج من روايته للأحداث أن كُسيلة وأَوْرَبَتَهُ كانت لهم ارتباطات، ليس في الأوراس وحده ولكن، مع التّل الوهراني أيضا، في منطقــة تلمســان وحتى في ممرّ (Couloir) تازة: فَخلَفُ عقبة، أبو المهاجر، أَسَر كُسَيْلة في"عيون تلمسان"[3].

ويقول Terrasse H.: "إن أبا المهاجر بعــدما حطّــم القيــروان الناشئة، قد يكون وصل في غارة، حتى تلمسان[4].

ويعرف م. طالبي " كُسَيْلَة أوكَسيلَة (كما يقول) على أنه من نمط ماسينيسا أو يوغرطة، ومن أبرز رموز كفاح البربر، من أجل استقلالهم. وفي سنة 55هــ/674 م، عند قدوم المولى، دينار أبي المهــاجر، مــن

---

(1) Les Berbères, T,2.pp.160-161
(2) Histoire de l'établissement des Arabes , pp. 57-58
(3) Le Passé de l'Afrique du Nord, p. 268
(4) Histoire du Maroc, T.2,p.80

مصر، كوالٍ لمقاطعة المغرب، خلفاً لعقبة بن نافع ... وكان كسيلة، بكل تأكيد، ملكا لأَوْرَبة ... التي يغلب عليها طابع الاستقرار (Sédentaire)، وكان مركزها آنذاك، منطقة تلمسان، بُومَارية القديمة، وكانت أرضهم تمتدّ، ولاشك من غرب الأوراس إلى وليلي (Volubilis) فإلى الشمال من فاس... وكانت النصرانية، وقت الاحتلال (conquête)، منتشرة بكثرة وسط هؤلاء، والواقع أن حاضرتهم (capitale) تلمسان، حسب شهادة البكري احتفظت، حتى القرن الخامس الهجري (11م)، بنصارى كثيرين، متأثرين بحضارتها القديمة"[1] مع العلم أن ما ورد بنص البكري، في هذا المعنى، جاء فيه ما يلي: "وفيها (تلمسان) للأول أثار قديمة، وبها بقية من النصارى إلى وقتنا هذا، ولهم بها كنيسة معمورة[2]، ويضيف طالبي "أن صِدَام أبي المهاجر بكسيلة حدث بتلمسان وأن الوالي الجديد الذي عوّض سياسة القوة بسياسة المصالحة، عَرَف كيف يكون حليفا لمَلِك أَوْربة، الذي اعتنق الإسلام واستقرّ، بعد ذلك، مع أبي المهاجر في تَاكِرْوَان التي كان اسمها يشّكل، بأداة تصديره (son Préfixe) برنامجا كاملا للاتفاق (Pacte) العربي – البربري"[3].

ويعتقد Fournel أنه من الصعب التصديق بوفاء كسيلة لإسلامٍ اعتنقه بهذه الطريقة، غير أن صحابة (Apôtres) محمّد يمكن أن يكونوا مارسوا عليه تمرينا لا يُقام (irrésistible) أو قد يكون هو بالأحرى ظنّ أنه بالإمكان بذْلَ كِتْمانٍ حاذق لمواجهة إرشادهم المسلّح، فعَرف كيف يستحق عِطف أبي المهاجر، بكلّ مظاهر عقيدة راسخة، وبدون شكّ

(1) E.I. n^elle éd., Leiden Paris 1986, T. V, art Kusayla b. Lemzam, p.521.

(2) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، ص 76.

(3)Talbi, op. cit., p.521.

أيضا، بأمل الخدمات التي يمكن أن يؤديها نفوذه على البربر، وأصبح صديقا ورفيقا له، ومثل هذه المودّة كانت تَهوُّرا من القائد العربي: إذ أنّ العملين الوحيدين اللذين وصلانا، في ولاية أبي المهاجر، فيما عدا الحملة المشار إليها يُمكّنان من التوقع بأن مولى مَسْلَمة استسلم لإغراء المَاكِر، حديث العهد بالإسلام (néophite)، الذي قدّم له نصائح غادرة (Perfides): إن القيروان بُنِيت خصوصا، لغرض إبقاء البربر على الخضوع (obéissance)، وعلى العقيدة (la foi)، وأبو المهاجر هدّم جزئيا هذه المدينة وهاجرها لبناء أُخرَى على ميلين منها، وفي نفس الوقت، راح يهاجم الإغريق بدلا من مراقبة البربر.

ويعترف Fournel أنه لا يستطيع ضبط الحملة، التي شنّها أبو المهاجر على جزيرة شريك، بدقّة، وهي الحملة التي أسند قيادتها إلى حَنَش بن عبد الله الصنعاني، لكن أبا المحاسن (بن تغري بردي) يحدّدها بسنة 59هـ، ويحدد البكري موقعها ما بين سوسة وتونس، وفي سنة 59، حسب أبي المحاسن أيضا، سار أبو المهاجرإلى قرطاجة ، ودار قتال بين الطرفين انتهى بعقد سلم في مقابل تسليم الجزيرة إلى المسلمين، ويستنتج نفس المؤلف، أخيرا، أنه إذا كان الأمر،كما قال المؤرخ (أبو المحاسن) بأن أبا المهاجر ذهب، بعد ذلك مباشرة، للاستيلاء على ميلة، حيث أقام حوالي عامين، فإن هذه الأخيرة كانت، قبل ذلك،خارجة عن مُلْك قرطاجة [1].

ويتساءل Caudel عمّا إذا كان أبو المهاجر حطم القيروان أمْ احتفظ بها لإقامته ؟ مجيبا: أن ابن الناجي ذكر أنه خرّبها ليؤسس

(1) Les Berbères, T. 2, pp.161 Sqq .

أخرى في تكرون وأن المالكي يقول لنا: إنه استقر، بعد حملة قرطاجة، في دكرور وهي مدينة بربرية في ضواحي القيروان، ويقول نفس المؤلِّفين، اعتمادا على روايات أخرى، إن أبا المهاجر عندما سار إلى تلمسان لم يترك بالقيروان سوى الشيوخ والنساء والأطفال، وإنه استقر بها عند عودته من الحملة، والرواية الأولى تبدو، في نظر Caudel أفضل، ما دام عقبة سيعيد بناء المدينة التي أسسها من قبل، ويمكن أن يَعود خطأ الروايتين إلى كون موقع أبي المهاجر الجديد يجاور مدينة عقبة، ويسجل هذا المؤلف أنه يولي أهمية خاصة إلى صفة المدينة البربرية التي وصف بها المالكي تكرون أو دكرور(1). إن دينار، في نظر هذا الكاتب " لم يُكلّف نفسه بتأسيس مدينة أو على الأقل،تأسيس موقع عربي بإفريقية، كما فعل سابقه لكنه استقر في نقطة مسكونة، قبل ذلك، وقد تكون محصنة، وسط البربر، إنه كان يريد أن، يعتمد عليهم، في واقع الأمر، للتوسع في إفريقية، فمنذ وصوله إلى البلاد أمّنهم، وعمل على نيل ودّ رئيسهم الأكثر شهرة (Le plus en vue)... كسيلة..."(2).

ويقتبس نفس المؤلف عن Fournel قوله: قد يكون سكَرْديد هو أمير أوربة الوحيد الذي حكم مدةَ ثلاثٍ وسبعين سنة، ولم يكن كسيلة سوى خليفته، معلقا بأن علاقات رؤساء البربر، مع بعضهم البعض، وكذلك التواريخ المضبوطة، لانتقال السلطة بينهم، صعبةُ التّحديد، ومُستَنْتِجًا أنه إنْ كان سكرديد توفي فيما بين سنتي 50 و60 هـ، فإن تنقّل سلطاته إلى كسيلة يكون قد حدث، تقريبا، في الوقت الذي تولى فيه دينار إدارة بلادهما، ومن ثَمّ يُحتمل أن يكون القائد العربي واصلَ، ضد

(1) Les premières invasions arabes, pp.109-110.
(2) Ibid, p. 110

أحدهما، الحملةَ التي بدأت ضد الآخر، وهو ما قد يُفسّر الغموض الذي وقع فيه ابن خلدون وتراتيب أبي المهاجر التسامحية، تجاه رؤساء الأهالي، تتفق جيّدا مع فرَضيّة القيام بحملة ضدهم، وقد يكون جَنى إرث عقبة الذي لا يبدو أنه كان ليّنا كثيرا مع هؤلاء الرؤساء، فكان يجب عليه، بالطبع، قبل بدء المفاوضات معهم، مواصلة العمليات الجارية التي لم تكن طويلة جدا، لأنها فاتت (échappe) مؤلّفَيْن، مثل المالكي وابن الناجي اللذين اكتفيا بالقول: إن أبا المهاجر" أحسن معاملة كسيلة، وصادقَهُ، بعدما أمّن سكان إفريقية " دون الحديث عن الحرب التي وقعت[1].

ويرى نفس المؤلف أن أبا المهاجر كان يتقرب من البربر لِمحْق (écraser) ما تبقى من الروم بإفريقية، وقد ذهب يبحث عن هؤلاء في قرطاجة منذ سنة 55هـ، حسب المالكي، و59، حسب أبي المحسن بن تغري بردي، الذي أورد أن الجيش العربي اصطدم بالإغريق (Grêcques) وأن المعركة لم تُحسم حتى الليل وأن الغُزاة (envahisseurs) أقاموا معسكرهم على جبل يقع جنوب بولس (Boulis) الذي لا يكون سوى خطأ إملائي لكلمة تونس وتفاوضوا، بعد ذلك، مع السكان الذين تعهدوا أن يدفعوا (à Payer) لهم الجزيرة، إنها دائما نفس الخطّة، (tactique)، ودائما نفس الهجمات غير المثمرة، ضد المدن الإغريقية، وقد كلفها الأمن (paix)، هذه المرة، أكثر من العادة، لأنها لم تحصل عليه إلا في مقابل جزيرة شريك، وهي الرأس الطيب (Cap bon)، ومَوْقعها يسيطر، في آن واحد، على الساحل الشمالي، نحو

(1) Caudel: Les Premiers invasions arabes, p. 111

قرطاجة، وعلى الساحل الجنوبي، نحو الحمامات والمهدية وسوسة، وقد تعب أبو المهاجر، بدون شك، من انتظار استسلام قرطاجة، دون فائــدة، فأرسل حسين بن عبد الله إلى الجزيرة، فاستولى عليها ثم انضم إليه، بعد ذلك، وعندها قام بتقسيم الغنائم. وبسيطرته على شــبه الجزيــرة، حيّــد الأميرُ القوات البيزنطية واستطاع نقل تطلعاته (ses regards) إلى جهة أخرى، واستفاد من تحالفه مع أوربة للدخول في الموريطانيتين[1].

وفي تعليق نفس الكاتب على تقبّل السيد (Fournel) للتاريخ الذي حدده المالكي لوقوع هذه الأحداث، أي سنة 55هــ، يعتقد أنه " يبدو من الصعب، في الوقع، أن يكون الأمير قد تمكّن منذ سنة من استلامه الولاية (أي 55)، من قيادة حملة كانت تتطلب بعض التحضيرات، ومن جهــة أخرى، فإن سنة 59 متأخرة بعض الشـــيء، لأن أبــا المهــاجر هــاجم قرطاجة، بكل تأكيد، قبل زحفه على الغرب، وهكذا فعل، حسب المالكي، سنة 57... ويكفينا، كما يقول، تحديد حملتي الأمير، على التوالي، ضــد للروم وضد البربر المتمرّدين (insoumis)، في السنوات التي مــرت بين سنتي 55و 58 هــ، وفي المقابل نتمسّــك بحــزم (fermement) بالرأي القاضي: بأن حملة قرطاجة سبقت حملة تلمسان، وفي هذه النقطة نختلف تماما مع السيد Fournel"[2].

ويوجه Caudel انتقاده إلى كيفية تقديم Fournel لحملة دينار، حيث ذكر أن "مَوْلَى مَسْلمة، سار إلى تلمسان، بمجرد دخوله القيــروان، وهَزم كُسيلة في المغرب الأقصى، وأن كسيلة اعتنق الإســلام وصــار صديقا للأمير الذي استسلم لإغراء الماكر، حديث العهد بالإسلام، الــذي

(1) Caudel: Op. cit., pp.111 sq.

(2) Ibid., p.113.

زوّده بنصائح غادرة، وبناءا على هذه النصائح حطّم القيروان وسار إلى روم قرطاجة، وباختصار، فإن دينارا قد يكون عديم المهارة (maladroit) ألقَى بنفسه، مُطَأطأ الرأس، في الحلف البربري، دون اعتبار الظروف و الرجال، وقد يكون عَمِلَ، بسذاجة، لحساب القادة الأهالي وهذه النظرية (Théorie) تتفق تماما مع الفكرة العميقة التي يعرضها السيد Fournel، في الجزء الأول من كتابه، وهي أن البربري يحتل دورا متفوقا ورئيسيا في تاريخ الاحتلال (Conquête) ومع الأسف فإن الفرضية لا تتماسك أمام الأحداث (les faits)، مثلها مثل الفكرة الأساسية نفسها، إضافة إلى أنه من الخطر، دائما، تَناوُلُ موضوع معقّد لهذه الدرجة، وغامضا في التفاصيل كموضوعنا، مع رأي مسبق: ففي التاريخ، يكون من باب الخطأ الفادح، افتراض روح التهوّر، والأخطاء المستمرة، والعمل غير المنطقي للإنسان الذي يُنتقَد. إن تقديم دينار كطائش (étourdi) لدرجة أنه راح يهاجم في عمق المغرب، قائدا بربريا قويا، تاركا خلفه الرومي مستعدا للسير (Prêt à marche)، يعني جَعْلَ نجاحه على هذا وذاك، وكذلك مُكُوثَه بإفريقية، مدة سبع سنوات، غير قابلين للشرح، ويعني جَعْلَه، فيما لا يريد السيد Fournel أن يكون، وما لا أظن أنه كان، استراتيجيا، من الطراز الأول، حَجَب مَجدُه مجدَ عقبة وأمجاد الآخرين جميعا، والواقع أن دينارا كان رجلا ماهرا (adroit)، لم يفرّط في استغلال انتصاره على كسيلة، واستفاد من حيّاده المتسامح للقضاء على الروم ومن تعاونه المغرض، للمجازفة بعملية جانبية في المغرب، وفوق ذلك فإن مقطع كتاب المعالم الآتي، سيوضح لنا الظروف التي قام فيها أبو المهاجر بحملته إلى الغرب" أبو المهاجر، كما قال، أمّن بربر إفريقية بقيادة كسيلة الأوربي... ثم سار بجيشه نحو

المغرب". إن خطأ السيد Fournel يقوم، في غالب الأمر على استعداده لتحديد حملة جزيرة شريك بسنة 59هـ، اعتمادا على أبي المحاسن، لكنه قال لنا، من قبل، إنه لا يستطيع تحديد تاريخ دقيق لها، ونعرف، من جهة أخرى، أن الحجة (L'autorité) التي يعتمد عليها مشكوك في مصداقيتها بدرجة كبيرة: فأبو المحاسن هذا، باعتراف السيد Fournel الذي يصحّحه، يخطئ بعشرين عاما في حَملة حسان الغساني، واحتمال وقوع حملة قرطاجة سنة 55، كما يحددها المالكي هو أكبر بكثير[1].

ويَخلْص هذا الكاتب إلى القول: "إن المتلتنين (Les latinisants) الذين تتبعوا، خطوة خطوة، تقدّم الحملات الرومانية البطيء، في حرب يوغرطة، يندهشون، بحق، من نجاح مذهل كهذا، وهم مستعدون كثيرا للشك فيه، مع أنه ممكن جدا: فالعربي ينجح، بسرعة كبيرة، حيث يفشل الروماني، لمدة طويلة، لأن الظروف ليست هي نفسها، ومع ذلك، فإن نجاحه النسبيّ جدا، لا يمكن مقارنته بنهاية الحملات الرومانية المملوءة بالنتائج، فالصعود فوق الهضبة الموريطانية، واجتيازها من جهة لأخرى، يبدو سهلا جدّا أو صعبا جدا، حسب الإمكانيات والأعوان المتوفّرين، والهدف المقصود، إذ أنّ مُحتلاّ خفيفَ التّسلّح وسريعاً جدا، ونهّابا حازما، لا يريد سوى دفع اكتشاف ثم الرجوع غدا، يستطيع استئجار قبيلة أو اثنتين بربريتين ليستا أقل جشعا في النهب، ومعهما فهو لن يضل الطريق، وسيُفشِل حِيَلَ الأهالي الذين سيرغبون في اعتراض سبيله، ثم إنه، في غالب الأحيان، يُلحقهُما بجيشه، اقتداء (à l'exemple) بمساعديه، وتذهب كل العصابه (bande) لِتَنْقضّ على المقاطعة المأهولة

(1) Les premières invasions arabes, p. 113 S q.

والمزدهرة (prospère)، وبانتهاء الحملة يقسّم النهب (prise)، وينتفع به كل طرف، وقد كان البربري، قبل ذلك، يتسكع (rodait) منذ أَمَد طويل، حول الأسوار الإغريقية المهدمة (démantelés) لكنه لم يكن يجرؤ ولا يعرف مهاجمتها، إذ كان عديم المهارة (trop maladroit) حتى يتمكن من تنظيم حملة جديّة، وكثيرَ التردّد لكي يقودها بحيوية وأمان، وكثير الحذر من جاره كي يستخدمه في عملية مشتركة، على نطاق واسع، حتى تكون الفوائد أكبر من المخاطر، ولكن هاهو العربي يأتي بالذّهن المتوقد (agile) واليد الطويلة، له روحٌ مغَامِرَةٌ وجرأةٌ في مستوى طموحاته وهو، أساسا، لا يساوي أفضل من البربري، فالاثنان مُتضوّران جوعا (faméliques) ومتوحشان (hommes de proie) لكن أحدهما ضَبْعٌ والآخر أَسَد، والعربي سلاّب على درجة رفيعة، يُعِدّ عملياته بدقة، وينفذها بجرأة وثُوقة (confiante) وطيش هادئ، والسعادة الوقحة للرجل الذي يعرف هذا والذي نجح فيه دائما، يستطيع مع البربري، جمع غنيمة كثيرة، في غارة واحدة، وهو لا يفعل سوى ذلك، وسيعود فيما بعد، وهذا سببُ مَا جعل رواية مؤرخينا، عن زحف أبي المهاجر على تلمسان، تقتصر على خمسة أسطر، ليس لهم ما يقولون أكثر من ذلك[1].

وفي محاولته استنباط سياسة أبي المهاجر، يسجل نفس المؤلف النباهة التي كانت له في استمالة البربر، وأن كلّ سياسته الإفريقية كانت تعتمد على التحالف معهم، ثمّ يستطرد قائلا : إن مصطلح السياسة طموح جدّا، وكلمة التحالف دقيقة جدّا، لإثبات (démontrer) هذه الأحداث

---

(1) Les prèmières invasions arabes, pp. 115- 116.

(faits)، وأبو المهاجر لم تكن له سياسة دقيقة، كان له هدف نعرفه جيّدا، ولبلوغه كان يستخدم وسائل يعتقد أنها أفضل: كان يريد النهب، ومَرْدُود مزاق بدأ ينفذ، فَكَان ينبغي الذهاب بعيدا، و الصعود فوق الهضبة، لكنه كان يجهل الطرق، وكان يسمع عن قبائل قوية ومواقع محصنة جدا، وكانت المخاطرة في هذه النواحي مغامرة كبرى، ولم يكن أتى للقيام بمغامرات[1].

ويقتبس. Marçais G من ابن أبي الدينار قوله: " إن أبا المهاجر ناقض كلّ ما فعله عقبه" مضيفا: أنه حاول، على ما يبدو، إتّباع سياسةِ مصالحةٍ مع البربر، لم تكن على غرار سياسة سابقه المندفع (fougueux)، وأنه استطاع، أن يُحوّل كسيلة ، بعدما هزمهُ قرب تلمسان، من العقيدة المسيحية إلى الإسلام، وجعل منه حليفا وصديقا ويلاحظ أخيرا، أن الانتصار حدث بالقرب من تلمسان، وأن العرب لم يكونوا تقدموا إلى هذا الحدّ من بلاد البربر، قبل ذلك[2].

ويذكر ش.أ. جوليان، في هذا الصدد، أن أبا المهاجر يبدو أنه قد تفاوض مع رؤساء القبائل (البربرية) للحصول على دعمهم ضد البيزنطيين، وعلى العموم فإن سياسة أبي المهاجر الأقل لمعانا من سياسة عقبة، يظهر أنها كانت مُثمرة أكثر.[3]

- ولاية عقبة بن نافع الثانية على بلاد المغرب:

حاول Fournel تسليط الضوء على نشاط عقبة في فترة ما بين تاريخ عزله سنة 55هـ وتاريخ إعادته، على رأسها سنة 62هـ، فذكر

(1) Caudel, op. cit, pp.121-122.
(2) La Berbérie Musulmane, pp. 31- 32.
(3) Histoire de l'Afrique du Nord, T.2,p.16.

أنه: "لم يتوقف، منذ استدعائه من إفريقية، عن الاحتجاج على عمل كان يبدو له بمثابة انتزاع مُلْك، جعلته خدمات جليلة حقا له" وأن " إفريقيـــة، بالنسبة إليه هي لَحمُه ودمُه، وكان يَعتبِر إخـــلاء القيـــروان وتحطيمهـــا الجزئي إهانةً له، لدرجة أفقدته كلّ اللّياقـــة (retenue)، فـــراح يـــوبخ (apostrophé) معاوية بن أبي سفيان بعبارات حادة جـــدا (très vifs)" وبقي الأمر معلقا إلى أن مات معاوية وتولى ابنه يزيد، في أول رجـــب سنة 60 هـــ/ الســـبت 7 ابريـــل 680م،" فســـارع لاســـتغلال فرصـــة (profiter) تراتيب الرّفـــق (dispositions bienveillantes) وهـــي بمثابة بشائر حُكمٍ جديد، لتكرار طلباته المُلحّة، غير أن يزيد لا يَظهر أنه كان، أكثر من أبيه، مستعدا لارتكاب هذا النوع من الإســـاءة فـــي حـــق مَسْلمة الذي كان المانع الحقيقي، بطبيعة الحال، ويَذكُر النويري أن عقبة، عندما عاد إلى إفريقية، مرّ بالفسطاط والْتقى بمسلمة بن مخلّد الذي قابله وهو راكب على فرسه، وقدّم له اعتذاراته، فقبلها ببرودة (froidement recues) ويُعلق Fournel على هذا الخبر بقوله: إنِه "قليـــل الاســـتعداد لتصديق هذا الهجوم (assaut) من الحماقـــات (malasresses)" لكنـــه يرى "أن مسلمة تُوفي في 25 رجب سنة 62هـــ، وهذه الصـــدفة، مـــع إعادة عقبة (إلى منصبه)، تجعل تسليم الخليفة، بإلحاحات مَطالب المُثَابِر الذي يُنشد الإنصاف، محتملا جدا، والأكيد، على الأقـــل، أن المـــؤرخين العرب يُجمعون بأن ولاية عقبة السعيد (heureux) الثانية على إفريقيـــة كانت سنة 62هـــ، وتاريخ هذه الإعادة (réparation) لم يضبط ولكـــن يُفترض أن الأمير الجديد، وهو يمر بالفسطاط، ألقى التحية على والـــي

مصر، وقد يكون حضر أمام سَعِيد بن يزيد بن عَلْقَمة الذي دُعي لاستخلاف مَسْلَمة، واستلم مهامه في بداية رمضان 62هـ"(1).

ويذهب Caudel إلى القول: "إن عقبة عندما نُفِي من إفريقية، لم يستقر ببرقة لكنه سافر إلى بلاد الشام (Syrie) يطلب الإنصاف من الخليفة، وعندما وصل إلى دمشق كان معاوية قد توفي (ممّا يدل على أنه لم يصل إليها إلاّ سنة 60هـ) وكان يزيد يتولى الخلافة فنجح الأمير المخلوع في إسماعه شكواه فأحسن استقباله، ثم أسند إليه قيادة جيش وأعاده إلى إفريقية ... وقد صادفت هذه العودة وفاة مَسلمة بن مخلد، والي مصر وحامي دينار أبي المهاجر، وقد أشار السيد Fournel إلى احتمال وقوع هذا الحدث لكنه لم يجد مؤلّفا يؤكد له ذلك، و المالكي يقول لنا بوضوح أن سعيد بن زيد (zeid)، خليفة مَسْلَمة هو الذي أرسل عقبة ابن نافع إلى إفريقية، وهذه الرواية تتفق جيّدا مع رواية أخرى لنفس المؤلف، وتُقدّم لنا إعادة عقبة إلى منصبه من قِبَل الخليفة، والواقع أن والي إفريقية كان تابعا لوالي مصر وبالتالي يمكن اعتبار أنه أُرسل من قبله(2).

وبالنسبة لطالبي فإنّ "وفاة الخليفة معاوية أدّت إلى تغيير في السياسة، وفي عام 62هـ/ 681م عاد عقبة إلى إفريقية، ولم يكن يحلم إلا بالانتقام وبالجهاد الأكبر (le grand djihad)، وقد استُؤنفت معه سياسة إخضاع البربر بالقوة على أشدّها"(3).

وبعد إعادة عقبة إلى ولايته، انطلق على رأس عشره آلاف مقاتل، فوصل إلى القيروان وقد يكون، حسب المالكي، استولى في طريقه، على قَفْصَة وقصطيلية، وهو ما يبدو غريبا ويعطى فكرة شاذة (singulière)

---

(1) Les Berbères, T,2, pp.164-165.
(2) Les premières invasions arabes, P. 117.
(3) E.I, n^{elle} éd., Leiden,- Paris 1986,T.5, art. Kusayla b. Lemzam, p. 525.

عن سلطة (autorité) أبي المهاجر وتكتيكه، إلا أننا رأينا مؤلف ريّاض النفوس يَخلط بين حملتي عقبة، فالتفاصيل الموجودة في كتابه، والتي يُحدّد تاريخها بسنة 57هـ هي نفسها تفاصيل حملة ابن نافع الأولى، وتحديد تاريخ الثانية بـ 62هـ مُؤكد ... والإشارة إلى قصطيلية وقفصة، كمرحلة، مفيدة على أية حال، لأنها تُبيّن لنا الطريق التي قد تكون اتبعتها، عادة، الغارات (invasions)، إذ تسمح لنا كثرة تكرار اِسمَيْ هذين الموقعين، في روايات الحملات، أن نستنتج بأنهما يُكوّنان مرحلتين مألوفتين لجيش الإسلام. فلْم ينشغل الغُزاة بإتباع الساحل حيث كانت حصون كثيرة محمية بما فيه الكفاية، بل كانوا يفضلون المرور بالداخل حيث كانت شبكة المواقع المحصنة أكثر ضعفا، وحيث كان بالإمكان تغريم البادية (Campagne) غير المحمية ... لأن الطريق كان معبّدا (tracée)، وكان الأهم بالنسبة إليهم تحريك اغلب جيشهم عبر نقاط مياه معروفة مسبقا، غير أن الحقول كانت تُفـرَغ (se vidaient) من سكانها والغنيمة أصبحت نادرة فيها، أو منعدمة، وعندئذ استهدفوا المدن وتحوّلوا إلى الساحل، وهكذا استولوا أو حاولوا الاستيلاء على سوسة وبنزرت وقرطاجة، على التوالي، وكانت القيروان تقع على ذلك الطريق الذي يتوسط (médiane)، البحر والسهل المرتفع، وتلك كانت إحدى مميزات موقعها[1].

ويقتصر إ.ليفي بروفنسال على القول: "إن عقبة، عند عودته إلى المشرق، (بعد العزل) يكون قد شكا الخليفة معاوية من الطريقة التي عامله بها والي مصر..."[2].

---

(1) Caudel : op.cit., p. 117 Sq
(2) E.I, n[elle] éd, Leiden,- Paris 1986,T.III,art. okba b. Nafi'a, pp1040-1041.

وفي اعتقاد Caudel فإن حملة عقبة، هذه المرّة، "ربّما كانت... موجهة ضد (أبي المهاجر) أكثر مما كانت موجهة ضد الأهالي وروم إفريقية، وأنه إذا كان هناك صراع بين القائدين العربيين فهو لم يكن طويلا لأن المصادر، دون أن تقول لنا أي شيء، تبرز أبا المهاجر في قبضة غريمه، حينا..."[1].

والملاحظ أن Caudel لم يستخدم نفس الأسلوب الذي استخدمه Fournel في علاجه للموضوع إلاّ أنه لم يكن دائما دقيقا في اختيار كلماته والتعبير عن أفكاره: فاستخدام فعل نُفِيَ للتعبير عن خروج عقبة من إفريقية إلى بلاد الشام، مثلا، ليس في محلّه، والقول: إنّه وصل إلى دمشق، بعد وفاة الخليفة مُعاوية، يحتاج إلى إقامة الحجّة، مثل التي طالب بها سلَفَه Fournel ، عندما تحدّث عن وفاة مسلمة وتعويضه بسعيد بن يزيد بن علقمه. ثمّ إن Caudel لم يقدّم، بدوره، أيّ دليل على ما ذهب إليه من القول: بأن الغُزَاة أي الفاتحين، تفادوا طريق الساحل بسبب كثرة الحصون المحمية فيه، وفضّلوا المرور بالدّاخل، لضعف شبكة المواقع المحصنة، مما كان يسمح لهم بتغريم الأرياف غير المحمية، ولم يتحوّلوا إلى الساحل إلاّ بعد استنزاف الدّاخل من الغنائم، وفي هذا الإطار حاولوا الاستيلاء على سوسة وبنزرت وقرطاجة. وبطبيعة الحال فإن مثل هذا الكلام، إذا أريد به ألاّ يبقى مجرّد كلام في مهبّ الريح، بل يصبح تاريخا موثوقا به، يحتاج إلى تقديم حجّة تاريخية، أي إلى توثيق مِن مصادر موثوق بها وإلى استنتاجات منطقية.

(1) Les premières invasions arabes, p.119

وقد وصل عقبة القيروان، حسب Fournel، "مليئا بالغضب الذي كان يغلي في قلبه، طيلة سبع سنوات من الإخفاقات المهينة، ولم يكن يتنفس سوى الثأر ... غير أن أبا المهاجر كان قد جعل راية الرسول (صلعم) تخفق فوق جدران تلمسان وسيكون له، إذًا، فخر حمل الأسلحة العربية إلى أبعد ما يمكن نحو الغرب..."(1) ويستنتج المؤلف الأخير من التاريخ التقريبي لترميم القيروان، ومن العنايات التي خصصها عقبة لذلك الترميم، عند الوصول إلى إفريقية، أن تاريخ انطلاق حملته على النواحي الغربية من بلاد المغرب لا يمكن تحديده قبل بداية عام 63هـ(2).

وقد سجل طالبي أن "أول ما قام به عقبة في القيروان هو تقييد أبي المهاجر بالحديد وإلقاء كسيلة في السجن ثمّ أعاد إلى العاصمة اسمها القديم والموقع الذي اختاره لها في ولايته الأولى"(3).

ولم تكن عملية "الترميم" المشار إليها هنا أو عملية "إعادة بناء القيروان "كما يرى Caudel، كلّفته، "عناءا كبيرا، لأن العرب مهما قيل عنهم، ليسوا مهدمين قساة (farouches) وحتى لو أن أبا المهاجر غادر المدينة، وهذا ليس مؤكدا، ...لا يكون قد فرض على جنوده، ما لم يقبلوه إلا بصعوبة، أي هذه المهمة العقيمة لتحطيم الجدران، لأن تحطيم مدينة بالنسبة لهؤلاء الناس هو مغادرتها، وتفريغها من الأشياء التي يسهل حملها، وترك مهمة التحطيم إلى الزمن. وهذا نفس ما يكون عقبة قد فعله بتكرون"(4) ويستنتج نفس المؤلف من قول ابن الناجي: "إن عقبة نقل إليها

(1) Les Berbères,T.2, P116 .
(2) Id.
(3) E.I, n^elle éd., Leiden,- Paris 1986,T.III,art. kussayla b. Lemzam, p. 521.
(4) Les premières invasions arabes, P.119

(القيروان) الناس لتعميرها "أنه نقل إليهــا الأهــالي (indigènes) مــن المناطق المجاورة وقد يكون جعل منها ملجأ واستقبل فيها سكان الــبلاد الذين اعتنقوا الإسلام حديثا أو الذين كان يأمل أن يعتنقوه"[1] كما يرى أن سكان مُزاق المهجورة جزئيا، كانوا عبارة عن هَجِين من الناس يُشــكّله أحفاد العائلات الرومانية، والبربر الخاضعون، منذ مدة طويلة، إلى الحياة الحضرية: يمارسون الزراعة والحرف الصغيرة والتجــارة المحــدودة، وهي مفيدة جدا للقبائل المحاربة التي لا يحب رجالها العمــل اليــدويّ، لكنهم في حاجة دائمة إلى تلك المنتوجــات، ويحتــاجون (réclament) أيضا التجار (mercanti) الذين يشترون منهم الغنيمة ويبيعونهم مكملات (suppléments) الطعام أو السلاح، وكان العرب كذلك، في حاجة إلى هؤلاء الناس الصغار لنفس الأسباب، وبإسكانهم المدينة فإن عقبــة قــدم خدمة لرجاله وأخرى وإلى للأهالي، في آن واحد[2].

ويسجل Caudel أن عقبة، عندما عاد إلى إفريقية وجد خصــمه (rival) متقدما كثيرا، في ارتباطه بسياسة تحالف بربري، بــلا مبــالاة دينية، وكان عقبة قائدا عربيا، له غطرسة العرق وحماس العقيدة، اللتان تنقصان دينارَ، وكان له على هذا الأخير وعلى عملــه (œuvre) حقــد قَصِر (trempée): نفس القدر من الأسباب للقيام بنقيضِ كلَّمــا أنجــزه مولى مسلمة أو فكر فيه، فبدأ بوضع كُسَيلة في السجن، وعامله بقســوة كبيرة، وفي آن واحد، نفّر قبيلة أَوْرَبَة وجعل غيرها من القبائل في موقع الحذر ثم قام بحملة، باشر فيها احتلال الهضبة التي كان دينار اجتازهــا بسرعة فيما بين 55و 57هــ. ولم تبقَ الظروف كما كانت، في حين أن

---

(1) Caudel: Op. cit., p . 120.
(2) Id .

جرأة عقبة صارت أكبر بكثير من جرأة أبي المهاجر، ولم يستطع الأول أن يعتمد، هذه المرة، سوى على قواته وحدها، وكانت تكفي فقط لـدحر الرومي، الذي بقي قويا، وللسيطرة على البربري المناوئ. وقد عامل أبا المهاجر أسوأ ممّا تعرض له هو نفسه، والواقع أن نكبة دينار كانت كاملة، فبِمَوْت سيده (Patron) مَسلَمة بن مخلد، لم يعد له حامٍ، وبقي تحت رحمة عقبة المطلقة[1].

ويحاول M. Caudel المقارنة بين شخصية الأميرين العربيّين، انطلاقا من نص المالكي الذي نَصَح فيه أبو المهاجر عقبةَ بعدم غزو طنجة، فاستخلص منه أن سياستي الأميرين تظهران هنا بوضوح: فدينار، في اعتقاده، هو رجل ماهر، يستفيد من الظروف ولا يطلب منها أكثر مما تستطيع إعطاءه، وهو منشغل باحتواء البلاد كي يستغلها أحسن استغلال، ويَصُون (ménage) القوى التي نستطيع مساندته، ويبحث عن تنظيم نوع من الحماية التقريبية (grossière) على الأهالي، في المنطقه، تُشتمّ فيه رائحة المرونة الفكرية و لياقة إدراك الإنسان المصري، الخصب في الموارد، ورائحة رجل من أصل وضيع، لم ينجح إلا بفضل براعته الكبيرة؛ أما عقبة فهو قائد عربي يعمل للقضية الإسلامية، ولا يريد أن يكون الفضل في نجاح مشارعه إلاّ له، هو نفسه ولذويه، وهو يحتقر الذين ليسوا من جنسه، وإن استخدمهم فكأعوان مُزْدَرين، زيادةَ على كونه لم يستعملهم، على ما يبدو، عن طيب خاطر، بدليل موقفه من كُسَيلة الذي كان دائما خَلْفَ الجيش، دون أن تَفُوت عقبة فرصةٌ لإشعاره أن الدم الذي يجري في عروقهما ليس واحدا، وقد تم الادعاء

(1) Les premières invasions arabes, P.125.

(on prétend) أنه وصل به الحدّ إلــى معاملتـــه، ذات يـــوم، كـــآخر السّجناء، عندما أمره بذبح شاة وسلخِها أمامه، وتَدخّل أبو المهاجر، مرة أخرى، في محاولة تفادي هذه الإهانة القصوى لمُساعِدِه القديم، وقد يكون كسيلة نفّذ الأمر، ونذر (voua) في ذلك اليوم، إلى عقبة وجنسه، حقـــدا يتعذّر إخماده[1].

ويتابع. H Fournel حملة عقبة على النواحي الغربية من بـــلاد المغرب، منذ انطلاقها قبل بداية عام 63هــ، فيقتبس ما أورده البكـــري من معلومات عمّا دار بينه وبين الروم و البربر من قتال، هَزَمَهُم فيه، ثُمّ مُضيُّه في سبيله دون التوقف لحصارهم عندما تحصنوا بباغاية[2]: وهي مدينة يحدد Caudel موقعها بين كتلة الأوراس وغرَارة الطَّرف، ويبدو نه أنها كانت مهجورة منذ القرن السادس الميلادي، وقد يكـــون ســـكان الإقليم (canton) راحوا يبحثون فيها عن ملجأ مؤقت، وراء ما تبقى من جدرانها المُرمّمة بسرعة، والأمر لا يتطلب أكثر من ذلك لتحطيم اندفاع الجيش العربي الذي ينتصر عادة في أرض مكشوفة، ويبقى عاجزا أمام أصغر التحصينات، ويبتعد بمجرد فقدان أمـــل استســـلام العـــدو بفعـــل المجاعة أو الخضوع للتهديد"[3]. وكالعادة فإنّ هذا الكاتب لم يؤكّد كلامه بحجة مقبولة منطقيا.

ومن باغاية انتقل عقبة مباشرة "إلى Lambaesa، وهي حســـب Fournel مدينة رومانية هامة، خاض العرب على أطرافها معركة شاقة (rude) ما دام المسلمونِ ظنوا لِلَحظة، حسب النويري، أنهم سَيُبَادُونَ"[4]

(1) Les premières invasions arabes, Pp.123-124
(2) Ibid., p.128.
(3) Les Berbères, T.2, P.166.
(4) Les Berbères, T.2, P.167

وفي رأي Caudel أن المدافعين عنها انسحبوا، بعد محاولة دفاعية في الأرض المفتوحة، إلى الموقع وقاوموا فيه بنجاح[1]. والملاحظ أن المؤرخيْن الفرنسيين يُحاولان هنا إثبَات شدة مقاومة الروم والبربر للزحف العربي على المنطقة.

وفي مواصلة Fournel لاقتفاء آثار زحف عقبة، يذكر أنه هبط من لميس إلى الزاب وتقدم نحو أَرَبَة، التي قيل له أنها حاضره هذا الإقليم، فاستولى عليها" في مقابل دفعه ثمنا باهظا لأن العرب هنا أيضا، حسب نفس الشهادة (شهادة النويري) فقدوا كل أمل في الانتصار عندما نصرهم الله، وقد واصل عقبة زحفه إلى أن توقف تحت أسوار تاهرت دون أن يترك حاميات، ودون أن يشغل نفسه بالمقاومات (résistances) التي اعترضته في النقاط الثلاثة حيث قاتل"[2].

ويتوقف Fournel عند تاهرت ليبدي تفهّمه لاتحاد البربر والروم للدفاع المشترك، في باغاية التي بقي فيها الشّعبان (Les deux peuples) يعيشان، ولا شك، متصلين ببعضهما لكنه، كما يقول، لا يستطيع تفسير مقطع ابن الأثير هذا الذي نقله النويري هكذا: "توجه عقبة إلى تاهرت ولما علم الروم (Les grecs) بنواياه (son dessein) استنجدوا بالبربر فأنجدوهم" ويُرجع هذا المؤلف عدم استطاعتِه تفسير هذا المقطع إلى كون تاهرت تبعد بمسافة طويلة جدا عن الممتلكات التي بقيت آنذاك بأيدي الإغريق، والعكس هو الذي كان ينبغي أن يحصل، ويرى أن ما قاله ابن خلدون، بعقلانية أكبر، ومفاده أن "عقبة تحدى، في هذه الحملة، أمراء البربر الذين حاربوه في الزاب وتاهرت، بدعم من الفرنجة

---

(1)Les premières invasions arabes, P.125
(2) Les Berbères, T.2, P.167

"يعني أن الإغريق تحققوا، بطبيعة الحال، من مدى المصلحة القوية لهم في إيقاف زحف هذا الوباء الذي لا يستطيع مدّ دماره نحو الغرب إلا ليثقل (s'appesantir) على كاهلهم، أثناء عودته، فبعثوا لبربر تاهرت، حامية لمساعدتهم في الدفاع عن هذا الموقع لكن الجيشين تكبدا هزيمة دامية، وزحف المنتصرون على طنجة، دون أن ينشغلوا بالمدن التي تركوها خلفهم، ويضيف النويري كما يقول Fournel أن الروم غادروا تاهرت، في حين لم تكن لدى عقبة وسائل للحصار، ولم يكن يُفكّر في إنشائها (à les créer) ما دام وَاصلَ زحفه نحو الغرب، فكان بإمكان الروم، إذًا، البقاء بالمدينة، في أمان تام، ويؤكد انسحابهم، لغير ضرورة من المدينة، فكرة تواجدهم المؤقت هناك كمساعدين، ولم يكونوا في موقع من ممتلكاتهم[1].

ويتوقف Caudel عند انشغال Fournel بهذا الموضوع، ملاحظا أن هذا الأخير الذي تساءل عن الصفة التي وُجد فيها الروم بعيدين جدا عن ممتلكاتهم الإفريقية آنذاك، أجاب بسرعة، جاعلا منهم، في تلك الظروف، مساعدين (Auxiliaires) للبربر، وحّدهم الخطر المشترك الوشيك بأعدائهم القدماء، إنه التفسير الوحيد الذي يمكن إعطاءه للحدث، وهذا في رأيه يتفق تماما مع الروايات العربية التي تُبيّن دائما البربر والروم، وهم يتشاورون، ويتبادلون الرسائل ويُوقّعون المعاهدات، قبل القيام بعمل ضد العربي[2].

ويذكر .E Mercier مرّة أن عقبة، عندما تحصل من جديد على ولاية إفريقية سنة 681 م، "جمع أفضل مقاتليه وجرّهم إلى غزو (Conquête) المغرب، وأقسم لهم أنه سيقاتل حتى لا يبقى أمامه كفار،

(1) Fournel: op.cit., p. 167.Sq
(2) Les premières invasions arabes, P.127

وتقدم غربا، وبعد محاولته الفاشلة في إخضاع بعض قلاع الأوراس، حيث تحصّن أواخر البيزنطيين، تابع سيره ... متلقيا خضوعَ البربر واعتناقَهم الإسلام في كل مكان، وأخيرا وصل إلى طنجة .."[1]. واللاّفت هنا أن طرح Mercier يختلف تماما عن طرح كلّ من Fournel وClaudel: فبالنسبة إليه فإنّ الذين قاوموا عقبة هم البيزنطيون الذين صمدوا في قلاعهم، أمّا البربر فإنهم خضعوا له واعتنقوا الإسلام، في كل مكان مرّ به، وهذا كلام غير مبرّر تاريخيا أيضا، كسابقه تماما.

ويَذْكُر، مرة أخرى، أن ذلك القائد "قام بحملته الكبرى، مرورا بالزاب، حيث حاول عبثا الاستيلاء على آخر القلاع البيزنطية، ثم تابع خط النجود، وتصادم مع تجمُّعات كبيرة من الأهالي، قرب تيهرت (تاهرت) فدحرهم وانتهى إلى سبتة"[2].

يذهب Gautier (E. F.) إلى القول: "إنّ عقبة عندما اقترب من الأوراس وجد الروم والسكان لاجئين في مدينتي: باغاية (Bagai) ولميسة (Lambèse) المتحصنتين، وبعد مناوشات قليلة، ليست دائما سعيدة، واصل طريقه، في اتجاه الغرب، إلى تاهرت (Tiaret) تقريبا، حيث خاض معركة "ضد الروم الذين أُخطروا باقترابه، وتلقوا نجدة البربر... ولم يستطع الروم والبربر هزيمة المسلمين"[3] وبالنسبة لهذا الجغرافي المؤرخ، فإنّ مَن كانوا بداخل قلعتي: باغاية ولميس، هم الروم الذين تلقوا نجدة البربر، وهذا رأي مخالف لما ذهب إليه كلّ من Fournel و Claudel، مما يدلّ على عدم توظيف الوثائق المتاحة بأمانة، كما يتطلبه المنهج التاريخي. وقد أطلق Terrasse على هذه

(1) Histoire de l'établissement des arabes, p.58..
(2) Sidi Okba , ses expéditions dans l'extrême,Sud,p .326 .
(3) le passé de l'Afrique du nord, pp. 272- 273

الحملة تسمية "ملحمة (épopée) عقبة " وكان انطلاقها، بعدما رجع صاحبُها إلى منصبه، حوالي 683م وأَعَاد (relvé) بناء عاصمته، ففعل ذلك على نطاق واسع (de grand style)، نحو الغرب وليس نحو الشمال حيث كان البيزنطيون يمسكون، دائما البلاد. والرواية التقليدية لهذه الملحمة تتضمّن تفاصيل، لا توجد في أقدم المصادر، وهي في أغلب الأحيان محل شك، "فقد انتصر، شمال الأوراس، على جيش بيزنطي وبربري، في باغاية، باغاي القديمة، وتخلى عن الطريق الشمالي ليتوغل في النجود فاجتازها دون أن ينشغل بالمدن التي ترك خلفه حتى تاهرت (Tiaret) حيث حقق نصرا جديدا (ثم) وصل إلى سبتة، دون أن نعرف عن أي طريق فعل ذلك"[1].

وفي نفس السياق ذهب (ش. أ.) جوليان، قائلا:" إن عقبة بعدما أُعيد إلى منصب القيادة العليا بإفريقية، سنة 681م،" قام مباشرة بحملة على نطاق واسع في المغرب، يكون من باب التهور ضمان حقيقتها، ولإشباع انتقامه كان يجر خلفه، أبا المهاجر وكسيلة مقيّدين، ويقال إنه لم يقصّر في إهانة القائد البربري الذي جعله يدفع الثمن غاليا، ولم يحاول محاصرة مواقع شمال الأوراس المحصنة، وبعدما اصطدم بجيوش للأهالي مدعومة بعناصر إغريقية – رومية – قرب باغاي(باغاية) ولامْبِيزَ (لميس) ثم في تيارت (تاهرت)، انطلق مباشرة إلى طنجة[2].

ويختصر الجنرال بريمون الحديث عن هذه الحملة قبل وصولها إلى سبتة في سطرين، جاء فيهما أن " سيدي عقبة عاد إلى إفريقية سنة 682م وجابها (qu'il parcourt)، دون أن يستولي على أية مدينة،

(1) Histoire du Maroc ,T.I, pp.80-81 .
(2) histoire de l'Afrique de Nord, T.2, p.17 .

وكانت له هذه المرة بعض الصدمات مع البربر"[1] كما يكتفي إ.ليفي بروفانسال بنقل مضمون روايةٍ لابن خلدون، مفادها: " أن عقبة (في تلك الحملة) كان مسبوقا بمقدمة على رأسها زهير بن قيس البلوي، وتقدم من القيروان نحو المغرب الأوسط، وتقابل (rencontra)، أوّلاً في الزاب ثم في تاهرت، بعناصر بربرية وبيزنطية، فهزمها ..."[2].

ويتحدث Fournel H. عن وصول عقبة إلى سبتة (Ceuta)، وهي كما يقول، المدينة الوحيدة التي كانت خاضعة للبيزنطيين، في هذا الجزء البعيد، من المغرب، وعندها رأىَ القومس(julien (Comte (إليان عند العرب) يتقدم إليه بأدب[3] وإليان هذا هو الذي يطلق عليه راهب سيلوس (Le moine de Silos) تسمية (Julianus comes)، وقد لَعِب، بعد ثلاثين عاما من ذلك التاريخ، دورا اعتبره Masdeu من باب خيال القصاصيين العرب، ووصل الأمر إلى حدّ نُكران وجود الكونت يوليان (Comte Julien)، ومنذ 1839 أعلن السيدRomey معارضتَه لهذا الرأي الذي فنّده السيد Dozy سنة 1860، بجدارة (victorieusement) في مقال علمي أثبت فيه أن إيزدور الباجي (منتصف القرن الثامن) سبق وأن عين الحاكم الصغير الذي يدّعى (soi-disant)، أنّ المؤلفين العرب هم أول من أشاروا إليه، وفيما يخص مغامرة ابنة الكونت يويليان التي جرت في بداية القرن الثامن: إذا كان راهب سيلوس (le moine de Silos) هو أول كاتب إسباني تحدث عنها، فإن ابن عبد الحكم سبق وأن أشار إليها، حوالي منتصف القرن

---

(1) Berbères et Arabes , p. 182.
(2) Provençal E. lévi, op. cit.,P.1040.
(3) Les Berbères , T.2, P.169.

التاسع الميلادي، وقد أكد روايته صاحب كتاب أخبار مجموعة الذي حُــرِّر في منتصف القرن الحادي عشر[1].

وقد كان Julien هذا واليا لقسطنطين الرابع، ويسميه النــويري، نقلا عن ابن الأثير، صاحب الجزيــرة الخضــراء (Seigmeur d'El-Djezirat el –Khadra)، سبتة وأمــاكن أخــرى، وصــاحب طنجــة (seigneur de Tanger)، ويسميه ابن خلدون خطأً (prince) غمــارة وصاحب (seigneur) طنجة، ومن المؤكد أنّه كان واليــا لِسَــبْتَة، وأن سلطته كانت تمتد على الأراضي المجاورة التي تسيطر عليهــا غمــارة، وعندما وصل عقبة أمامه خرج إليه، حسب البكري، بهدية قيّمــة فأمّنــه وأبقاه في منصبه، ومن هناك سار القائد العربي إلى طنجة التــي دافــع عنها البربر بحزم، والبكري هو الذي يقول لنا، مرة أخــرى، إنّ عقبــة استولى على المدنية عُنوة، وأفنى سكانها من الــذكور وســبى البــاقي، وكانت هذه المدينة ستُحترم لو أنها كانت تابعة للقومس (comte) الــذي لم يَكْتَف بخضوعه، لكنه أظهر استعجاله لتزويد عقبة بالمعلومات التــي طُلبت منه، عن أوضاع البلاد وعن السكان المطلوب إخضاعهم، وكــان مستعجلا في ذلك لدرجة أن ابن خلدون ذهب إلى حدّ زَعْمــه أن عقبــة استخدمه دليلا في حملته جنوب طنجة، وبطبيعة الحــال، فــإن الــوالي الحاذق المجامل، دلّه بنصائحه فقط وهي تهدف، على الخصوص، إلــى إبعاده عنه، بإيقاظ رغبة الزحف على البربر في نفسه، فقدّم له، عــنهم، صورة قادرة على إشعال حمية المسلم المتعصب [2].

---

(1) les berberes, T.2, p.169 , note 2.

(2) Fournel, Op. cit., T.2, p.169 sq.

ويعتبر .Mercier E القُومس يوليان واليا لقوط إسبانيا في موقـــع سبتة، ويختصر كلامه عنه بقوله:" وكان له لقاء سلمي، مع عقبة، زوده فيه بمعلومات عن داخل المغرب الأقصى"[1].

ويصفهُ (.Gautier (E. F بحليف عقبة الجديد ويقول: إن هـــذا الأخير طَلب منه إرشاده إلى رؤساء الروم والبربر[2].

ويقول .Terrasse H: إن عقبة عندما وصل سبتة "تقدم إليه فيها أو في ضواحيها "البطريق" يليان الذي كان يحكم ساحل المضيق الإفريقي لحساب الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع ، وكان يليان، ولا شـــك، قائدا محليا عيّنته بيزنطة، فقدّم إلى عقبة هدايا ثمينـــة ومعلومـــات عـــن إسبانيا القريبة جدا والمحروسة كثيرا وكذلك عنِ البربر، فاستحق، بهداياه ومساعيه الحميدة، البقاء في منصبه لحساب الخليفـــة، وقاومـــت طنجـــة فأُخذت عنوة، وقُتل رجالها وأخذ غيرهم أسرى[3].

وبالنسبة لـــ (ش. أ.) جوليان فإن عقبة ذهب من تاهرت مباشرة إلى طنجة وإن المصادر العربية تذكر أن البطريـــق Julien (إيليـــان- يويليان) بدلا من أن يحاربه استقبله بهدايا ثمينة، فسأله عقبة عـــن قـــوط اسبانيا والروم وبربر المغرب، وبناءا على المعلومات التـــي زوده بهـــا دخل السوس[4].

وقد قام عقبة في جولته (randonnée) الثانية هذه إلى المغرب، حســـب الجنــــرال Brémond، "بزيــــارة تشــــريفاتية جــــدا (très protocolairement) إلى الكونت يليان الذي كان يحكـــم ســـبته

(1) Histoire de l'établissement des arabes, p.58
(2) le passé de l'Afrique du nord, p. 273
(3) Histoire du Maroc ,T.I,p.81
(4) Histoire de l'Afrique de Nord, T.2, P .17

والمدن القوطية (goths) الأخرى بساحل طنجة[1]، وكان القوط قد عَبَروا مضيق Calpé سنة 620، أي ستين سنة قبل ذلك [2] وربما بقيت بها حاميات بيزنطية، حسب دوزي[3].

ويعتبر إ.ليفي بروفنسال يوليان رئيسا لغمارة ويقول: إنه خضع للرئيس العربي (عقبة) وصار مستشاره العسكري، فصرفه عن اجتياز مضيق جبل طارق للقيام باحتلال اسبانيا، ودلّه على الخطر الذي تُمثّله، على الجيش العربي، القبائل البربرية التي ليس لها دِينٌ، في الأطلس الكبير وفي السوس[4].

ويفضل Caudel M. إحالة قارئه، في موضوع حملة المغرب الأقصى على ما ذكرة السيد Fournel الذي عرف حسب رأيه، كيف يستغل جيدا المصادر العربية (les auteurs arabes) والذي يقدم عن تلك الحملة ملخصا، ليس له ما يضيفه إليه لكنه " يشير فقط " في تلك الحملة كما في غيرها، إلى الغارات (excursions) السريعة للفروسية (cavalerie) التي كانت تكوّن الجزء الهام والمثمر لكل حملة، وقد كانت لها هذه المرة نتيجة هامة (billant) ثم راح يقتبس نصا للمالكي جاء فيه " أنهم استولوا على نساء وخيرات (biens)، وبلغ ثمن جارية رومية في أسواق المشرق ألف دينار"[5].

أمّا نص Fournel الذي أحال عليه Caudel M. قرّاءه فجاء فيه أن عقبة توجّه بعد طنجة "مباشرة إلى الجنوب، وأسرع في مهاجمة وليلي (Oualili)، فاستولى عليها وواصل زحفه نحو الجنوب حيث دخل

(1) Berbères et Arabes , p. 182.
(2) Id, note2
(3) Ibid ,p.182.
(4) Provençal (E. Lévi), op. cit., p.1041.
(5) Les premières invasions arabes, p.129 .

الأطلس حتى وصل نَفِيس، مدينة مصـمودة دَرَن وهـي، حسب ابـن خلدون، " قبيلة تميّزت دائما بكثرة أعدادها وقوتها وشجاعتها " ولم يمض وقت طويل حتى اكتشف القائد العربي ذلك: " فبعد معارك عديدة تمكّـن المصامدة من حصار عدّوهم في جبال درن لكن الزنـاتيين... انجـدوه وتمكنوا من فك الحصار عنه " فإن كان الأمر كذلك، فقد يرجـع غـزو عقبة لنفيس، إلى هذه المساعدة، وهناك جَمَع غنائم كثيرة، كمـا يقـول البكري، وبني مسجدا ما زال قائما إلى اليوم (القرن الخامس)، وعندئـذ عَبَر الأطلس إلى السوس الأقصى، فخاض معارك طاحنة ضـد القبائـل التي حاولت اعتراض سبيله ودخل إيجلّي أوْتارودانت وهناك سبَى عددا من الجواري، لم يَعرِف المؤلفون كيف يصـفون جمـالهن، ويؤكـدون، لإعطاء فكرة عنهن، أن كلّ واحدة منهن بيعت بألف دينار وأكثر، وعند وصول عقبة إلى ضفة البحر الكبير، دفع فرسه وسط الأمواج، معبـرا، بابتهال شديد، عن أسف عدم وجود شـعوب للإخضـاع (à courber) تحت هلال محمد وقال لأصحابه " لنعود الآن من حيث أتينا، على بركة الله". ويستطرد Fournel في كلامه قائلا: قبل أن أتعرض إلى الأحداث الكبرى التي مّيزت تلك العودة، يجب عليّ ملاحظة استبعاد نجدة زناتـه لعقبة، لأنها كانت إلى وقت قريب، متحدة مع الروم للقتال تحت أسـوار تاهرت، غير أنه، إن جاءوا، فعلا، إلى تخليص القائد العربي ونجدته من إخوانهم، فإن مثل هذا الشذوذ (anomalie) لا يُفسَّر بحمايـة عقيـدتهم الإسلامية، بقدر ما يُفسَّر بكراهية (inimitié) الجوار الحادة، وبالفرصة السانحة للانتقام، بأي ثمن، من بعض الهزائم السـابقة، فـي الحـروب الداخلية، غير المعروفة، ويمكن أن يُنظر إلى ذلك، أيضا، على أنـه أول إعلان ينقله لنا التاريخ عن العداوة التي كانت مجودة بين أحفاد فرعـي

البربر: فرع مادغيس وفرع البرانس، تلك العداوة التي عبرت عنها، فيما بعد الحروب الطاحنة بين الزناتيين والصنهاجيين..."[1] .

ويلخّص. Mercier E نشاط تلك الحملة منذ انطلاق العرب من طنجة " إلى قلب (cœur) الأطلس، فاجتازوه، بعد معارك طاحنة ضد الأمم (nations) الجموحة (indomptées) التي كانت تسكنه، وعند انتقالهم إلى السوس الأدنى، وجدوا أمامهم المحيط الأطلسي وعندما أوقف عقبةَ هذا الحاجزُ، متعذر العبور، أدخل فرسه في البحر وأشهد الله أنه لم يبق أمامه أعداء دينه للقتال"[2]: ويقول نفس المؤلف، في مكان آخر، إن عقبة دخل من هناك، أي من طنجة، "الأطلس، ومرّ قرب الموقع الذي أقيمت فيه فاس، واندفع إلى قلب السلاسل المرتفعة، وانتهى إلى أطراف السوس، على ضفاف الأطلنطي حيث التقى لَمْطَة وجزّولة، من طلائع الملثمين، لكنه لم يبتعد أكثر وعاد بسرعة عن طريق النجود إلى إفريقية ..."[3].

ويسجل. Marças G أن عقبة " تنقّل في إفريقية الشمالية بكاملها، فاجتاز المغرب وهو ينهب (en pillant) من منطقة طنجة إلى وادي سوس، و الرواية تفيد أنه قد يكون أدخل حصانه في أمواج المحيط الأطلسي متأسفا عن عدم استطاعته حمل الحقيقة إلى أبعد من ذلك"[4].

ويبدو لـ .Terrasse H " أن عقبة اجتاز، دون عناء، السهل الأطلسي إلى وليلي ثم اتجه نحو الأطلس، فقاومته مصمودة، وقد تكون زناته هي التي أنقذته بينما كان في وضعية حرجة بالجبال ... وقد

---

(1) Les Berbères , T.2,p.72 sq.
(2) Histoire de l'établissement des arabes, pp.58-59
(3) Sidi Okba, ses expéditions dans l'extrême ,Sud,pp .326- 327
(4) La Berbérie Musulmane, p- 32.

استولى على مدينة نفيس بسهل Haouz، وكان بهـا الـروم والبربـر المسيحيون، فبني بها مسجدا بعد جمع غنائم كثيرة، وبعد ذلك انتقل إلـى السوس حيث استولى على مدينة إيجلي، و بيعت الجواري اللائي أَخَذَ في تلك النواحي بأثمان باهضة، وقد يكون دَفَع جواده فـي البحـر بسـاحل السوس، مُعلنا أنّه لولا حاجز المحيط، لوسّع أكثر مجال الإسـلام، وقـد يكون وجد صنهاجة الملثمين، في هذه المقاطعة، كما قـد يكـون هـاجم وهزم سكانا صنهاجيين آخرين، مسوفة، جنوب تلك المنطقة "[1].

ويعلق Terrasse قائلا: "إن حملة عقبـة، فـي حـدود معرفتـه البسيطة لها، "من خلال الروايات المشوّهة بالأساطير، يبدو أنها مسّـت، في المغرب الأقصى: شمال البلاد والسهول الغربية، وربمـا الجنـوب والجنوب الأقصى، وعلى الرغم من مقاومات مشتتة (de détail)، فهي لم تُحدث أيّ رد فعل شامل، ولا يعرف إلى أي حد نَشر عقبة الإسلام في البلاد، وقد يكون بعض القادة المحليّين المنضوين تحت لوائه، مثل يُليان، تقلّدوا السلطة، وسيختفي نفوذ الإسلام الأول والخفيف هذا، غداة النكسـة حيث غرقت المحاولة الجزئية"[2].

ونفس الكلام يقوله جوليان، تقريبا، بحيث يذكر أن " عقبة دخـل بلاد السوس بناء على المعلومات التي زوده بها يُليَلان " فقام بتقتيل عدد كبير من السكان، وباختطاف ثمين لجاريات جميلات، متخذا الله شـاهدا بأن المحيط وحده هو الذي حال دون ذهابه أبعد من ذلك لتقتيل الكفـار أكثر" لكن جوليان يرى أن كل هذا غريب جدا، مذكّرا أن إ. ف . غوتيي بنى عليه نظريةً مفادها: أن الاحتلال (occupation) السـهل لمنطقـة

(1) Histoire du Maroc ,T.I,p.81
(2) Terrasse: op. cit., pp`.81-82.

طنجة (Tingitane) يُشبه احتلال إفريقية، وبعد ذلـك بقليـل، احـتلال إسبانيا، إن جميع أراضي إفريقيا الشمالية التي عانت (subi) من النفـوذ القرطاجي (Carthaginoise) انضمت بسهولة للمسلمين، لكـن أغلـب التفاصيل لم تظهر إلا في المصادر المتأخرة، فلا يوجد لدى ابـن عبـد الحكم،وليس في كل رواياته، سوى إشارة إلى السوس، وهـو مصـطلح غامض. لدى الجغرافيين المتأخرين والذي يحتاج معناه في القرن الثـامن إلى تحديد، ثم إن كلمة عُقبة المشهورة أمام ضفة البحر (لكن أي بحر؟) متخذا الله شاهدا على أنه لم يستطع الذهاب أكثر من ذلـك، فـلا ذكـر لطنجة، ولا أي تفصيل عن هذه النزهة (chevauchée) الخارقة للعادة في بلد مجهول. يوجد هنا، على أية حال ما يدفـع إلى التفكير والشـك: من المؤكد أن عقبة أجهد نفسه لتوسيع الإمبراطورية الإسلامية غربـا، ولهذا الغـرض حـارب فـي الأوراس، ويكـون مـن بـاب التهـور (téméraire) تأكيد أكثـر مـن ذلـك، وهنـا يَقتـبس جوليـان مـن R. Brunschvig قوله: "إذا كان مـن الممكـن النظـر إلـى نُزْهـة (Randonnée) عقبة كحقيقة (authentique) فأنه يكون من اللائـق، في انتظار إثبات عكس ذلك، تحديدها ببلاد الجزائر الوسطى، وقد تكون وصلت، علـى أبعـد تقـدير، إلـى منطقـة وهـران الحاليـة ووادي الشّلف...."[1].

ويعتقد م. طالبي "أنْ ليس هناك أسباب جدّية تدفع إلى الشك، فـي وصول عقبة في جولته الكبرى (grande Chevauchée)، إلى المحيط الأطلسي، وهو يجرّ خلفه أبا المهاجر وكسيلة وقد بذل جُهدا خاصا، أثناء

(1) Histoire de l'Afrique du Nord, T. 2, P 17

الطريق، لإذلال "المَلِك"البربري رغم تحذيرات أبي المهاجر، والمشـــهد (Scène) النّموذجي الذي أجبر فيه عقبةُ كسيلةَ على ســلخ شــاة فـــي حضوره، زيادة في إهانته، معروف لدى كل المصادر. ويبدو أن الحملة الخاطفة (éclaire) التي بدأها كانت، بالأحرى، بطريقة مباغتة، زيــادة على أنها أعقبت سياسة السّلم والمصالحة التي مارسها سابقُه؛ فاســتفادت في مرحلتها الأولى من عنصر المفاجأة، وهذا ما يفسّر، على الأقل جزئيا نجاحاتها اللاّمعة"[1].

ويذهب إ. ليفي بروفنسال إلى القول: إن عقبة، بعدما انطلق مــن طنجة "بدأ بالاستيلاء على جبل زرهون ومدينــة أولّيــل (volubilis)، واجتاز الأطلس الأوسط ثم تقدم إلى درعة فإلى السوس، حيــث لاحــق السكان إلى صحراء لمتونة، ثم توجه نحو الســاحل الأطلنطـــي، فحــل بأرض آسفي (Safi)، وشرع في إخضاع كتلة قبائل مصمودة البربرية، بجبل درن (الأطلس الكبير) ثم كتلة الأطلــس الصـــغير (Anti-Atlas) حتى تَارُودَانْت لكن هذه النتائج، مهما كانت تبدو لامعة، لم يكن لهـــا أي استمرار، حتى التقدّم بدون مقاومة في بلد ما، لا يعني شيئا، إن لم يكــن متبوعا باحتلال، لم يكن في وسع عقبة ضمانه مباشرة"[2].

ويكتفي الجنرال بريمون بالقول: "إن التحــرك الإســلامي وجــد بساحل طنجة (Tingis) سلطة قائمة أوقفت زحفه ولم يبــذل أي جهــد لمحاولة المرور، فلم تكن له وسائل لذلك"[3].

وفي حديث Fournel H. عن رجوع حملة عقبة مــن المغــرب الأقصى ذكر: "أن الجيش أخذ معه إلى القيروان غنائم انتصاراته، ولــم

---

(1) E.I. n^elle, éd. Leiden - Paris 1986, T.V ,art. Kussayla B. Lemzam, p. 521
(2) Provençal (E. Lévi), op. cit, p. 1041
(3) Berbères et Arabes, p. 182

يفكّر السكان الذين أصابهم الرعب في قطع طريقه، فليس هناك إشـــارة واحدة إلى وقوع أية مناوشة خلال هذه المسيرة الطويلة. لقد ســـبق لـــي وأن قُلتُ: إن ابن الأثير والنويّري، حدّدا أثناء هذا الرجوع، الأســطورة التي قدّمت التفسير المزعوم لماء فرس الذي أطلـــق علـــى منبـــع مـــاء (source) يكون حصان عقبة قد اكتشفه، عنــدما طلـــب هـــذا المســلم المستجاب (privilégié)، من الله أن يرسل الماء إلى جيشه الذي كـــان يعاني من العطش، "وفي الواقع، توجد عين فرس، حسب ما يقول الســـيد دوسلان، عند حافة (au pied) برْق (télégraphe) دَاحُو، بين تلمسان وسيدي بلعباس، وبالضبط على الطريق الذي يكون عقبة قد سلكه، عنـــد عودته إلى إفريقية" لكن قد يكونُ سلَك نفسَ الطريق أيضا عند انتقاله من تاهرت إلى سبتة، بحيث أن هذا التقارب لا يكون مقنعا جدا لدعم روايـــة ابن الأثير، ثم إن عقبة لم يكن في حاجة إلى كرامـــة (miracle) فـــي المنطقة التي توجد بها، فعلا عين فرس، إذ توجد بجوارها مجاري مائية جيّدة جدا..... ولم يترك عقبة خَلْفـــه ســـوى ســـكانا (populations) خاضعين، وكان يُحسّ أنه قويّ جدّا بشجاعته التي لا تُقهـــر، وبالرُّعـــب الذي لحق بقبائل البربر، من بداية المغرب إلى نهايته، وكان يتقدم بكـــل ثقة لدرجة أنه عندما وصل طُبنَة قسّم جيشه إلى مجموعات التحقت كـــل واحدة منها بالقيروان بمعزل عن الأخرى، ولم يبق معـــه إلا مجموعـــة صغيرة من الفرسان يُقدّرهم ابن خلدون بحوالي ثلاثمائة رجل، مُعلنًا أنه سيقوم بجولة تفقدية إلى تهودة وباديس. وقد انتهز كسيلة هـــذه المناســـبة للفرار"[1].

(1) les Berbères, T. 2, p. 75 sq.

وبالنسبة لـ .mercier E "فإن العرب عادوا، بعد تلك الجولة الجريئة.. وهم يجرون خلفهم غنائم معتبرة، ولكن البربر (Course) دبّروا، أثناء ابتعاد عقبة، مؤامرة واسعة ضدّ المسيطر عليهم، وبدأت العاصفة، عندما أرسل عقبة، الواثق من نفسه، جيشه، أفواجاً إلى القيروان، ودخل هو عن طريق الزاب على رأس بعض الفرسان، وعند حلوله بواحة تهودة، رأى نفسه محاطا بجمع من الأهالي (indigènes)[1].

ويعلق .Terrasse H على ما ذُكر، من أن عقبة شرع في العودة إلى القيروان، متّبعا طريق الدّاخل بقوله: "لا نعرف المسلك الذي سار فيه عقبة من جنوب المغرب الأقصى،....، ويعتقد أن عَيْنا، تقع ما بين تلمسان وسيدي بلعباس، قد استَخْرَج ماءَها حافرُ (sabot) حصان عقبة، ولكن لا يمكن الاعتماد على مثل هذه الأسطورة، ويبدو أن عقبة وصل إلى الجنوب الجزائري: إمّا عن طريق فجوة (trouée) تازة، وإمّا (إذا تمّ التسليم بحملاته، في جنوب المغرب الأقصى، دون اجتياز سهولِه، من جديد) عن طريق واحات السفح الصحراوي للأطلس"[2] كما يسجّل أيضا أن عقبة "يبدو أنه ارتكب خطأ إرسال جيشه: مجموعاتٍ صغيرة، وعند وصوله إلى جنوب شرق بسكرة وجنوب غرب الأوراس، راح يستطلع مدينتي تهودة وباديس المحصنتين، وعندئذ هاجمه البربر الثائرون المتحالفون مع البيزنطيين، على ما يُعتقد، بقيادة كسيلة"[3].

وللحديث عن كسيلة يذكر Fournel أن أول عمل قام به عقبة، عند حلوله بالقيروان هو تقييد أبي المهاجر بالحديد، "وعامل كسيلة

---

(1) Histoire de l'établissement des Arabes, p. 59
(2) Histoire du Maroc, T. 1, p. 82, note 1
(3) Ibid, p. 82

بازدراء كبير، على حدّ قول ابن خلدون، لما أظهره من ارتباط بهذا الوالي". ولم تتمكن حداثة العهد بالإسلام، التي كان ينبغي أن يحترمها عقبة المتحمّس، ولا النفوذ الكبير الذي كان كُسيلة يمارسهُ على البربر، ولا غيرُهما تَمكّن من إيقاف المحارب الغَضُوب الذي ردّ، باحْتقار، التحذيرات التي قدّمها له، في هذا الموضوع العرب المجرّبون، وأبو المهاجر نفسه، الذي لم تتوقف عنده حماسة الديانة (religion)، ولو للحظة، عن السيطرة على الغيظ الذي جعلته القسوة الظالمة، التي كان عُرضةً لها، يعانيه. وكان عقبة يبدو مسرورا بإهانة القائد البربري، كمَن يتصدى للنصائح الحكيمة التي قُدّمت له؛ وهكذا أجبره، ذات يوم، رغم رفضه، على سلخ شاة بنفسه... وكان أثناء إنجازه لهذا العمل الدنيء، في نظره، وغيرالجدير برجل في مستواه، يُضمِر انتقامه؛ وينوي غسيل (de laver) الإهانات، التي أغدقَها عقبةُ المتغافل، في الدّم العربي، وقد تكون هذه المَشاهِد المحزنة، وقعت أثناء توقفات الجيش العائد إلى القيروان"[1].

وعندما كان الجيش يواصل طريقه "فإن كسيلة، رغم الحراسة المفروضة عليه، كان يتراسل (correspondait) مع عائلته ومع الروم أنفسهم، الذين كانت قضيتهم مقرونة، مؤقتا بمصلحة شعبه"[2]. وبعد أن قسم عقبةُ أصحابه مجموعاتٍ، وعزم على القيام مع مجموعة صغيرة منهم، بجولة استكشافية إلى تهودة وباديس "انتهز كسيلة الفرصة وفرّ" وهكذا كانت دقّة (précision) أوامره الصادرة في المراسلة، وهكذا صار دويّ ندائه إلى البربر، لدرجة أن عقبة عندما أصبح أمام تهودة،

(1) les Berbères, T 2, p. 174
(2) Fournel: Op. cit., p. 175

مع حفنةٍ من رجاله، رأى أبواب المدينة تُغلَق، ولم يَمض وقت طويل حتى علم أنه كان في مواجهة جيشٍ من الأهالي والبيزنطيين، بقيادة ذلك الذي كان منذ أيام قليلة يغتاظ من كثرة الإهانات. ولم يكن عقبة قادرا (incapable) على رفض القتال غير المتكافئ بالمرة، فترجّل وصلّى ثم كسر غِمدَ سيْفه، وفعل أصحابه مثله وتقدموا جميعا، بلذّة التعصب، إلى موت هو بالنسبة إليهم تاجُ الاستشهاد: قُتل الجميع. وهكذا كانت نهاية عقبة بن نافع، المحارب الشهير الذي قاتل من أجل الإسلام انطلاقا من بلاد النوبة وصحاري برقة إلى المحيط (الأطلسي) والّذي ألقى منذ قليل، من أعلى أسوار طنجة، إحدى نظراته التي تُنذر (présage) بالاحتلال"[1].

ويقتبس Fournel ما أورده القيرواني من أن "عددا قليلا منهم (أصحاب عقبة) نجوا من الموت، بفضل سرعة جِيّادهم" قائلا إن هذا محتملٌ أكثر، إضافة إلى أن ابن خلدون وأبا المحاسن (ابن تغري بردي) يؤكدان ذلك، ويشير الأول إلى صاحبين للرسول ..... يبدو لي أنه من غير الممكن، رغم مَهَابَة حُجّة البكري، التصدق بأن أبا المهاجر نفسه قد يكون نَقَل رواية موت عقبة، ممّا يؤدي إلى استنتاج أن هذا الأمير القديم قَبِلَ الاقتراح الذي قُدّم له، قبل المعركة، بالعودة على القيروان أوْ أنه كان من بين بعض الأسرى الذين بَقُوا في قبضة كُسيلة ثم أُرْسِلوا إلى قَفْصه، لكن القراءة المُتمعّنة لصَفْحة البكري هذه ومقارنتَها برواية أخرى منسوبة أيضا إلى أبي المهاجر، وخطأها واضح* مثلما لاحظ ذلك قبلي

(1) Fournel: Op. cit., PP. 176-177

* قيل عنه أن اثنين من صحابة الرسول (صلعم)، هما: أنس بن مالك، وزيد بن ثابت، كانا يعيشان في خلافة عبد الملك بن مروان. Fournel H.: Les Berbères, T.2, P. 178, note 3

M. Wilhelm Roth تمنعني من قبول هذه الشهادة الفريدة التـــي لـــم يُشر إليها حتى المؤلفون العديدون الذين أخذوا من مســالك عــالم ولَبَــة (Huelvah) الجغرافي (البكري) ولهذا السبب سأقول، حسب المصــادر التي فضّلها المؤلفون العرب في القرنين الرابع عشر والخــامس عشــر الميلاديين، ماذا كان مصير أبي المهاجر، مع الاحتفاظ بالشــكوك التــي تَحُوم على الأخبار (récit) التي وصلت، فــي الأصــل، عــن طريــق الروايات، مثلما كان الأمر دائما في بدايات التاريخ الإسلامي هذه، لقــد جُرَّ أبو المهاجر، مقيّدا بالسلاسل، خلف عُقبة، في كــل مراحــل هــذه الحملة"[1].

ويُرجع Fournel تحطيمَ عقبة لسلاسل أبــي المهــاجر، وأَمْــرَه بالالتحاق بالقيروان، بعد سماعه أبيات الشعر التي تلاها هذا الأخير، إلى أحد السببين "إمّا لأن الحَسْرة الشاعرية (poétiques regrets)، لمحارب لم يتطلع إلاّ للقتال، حرّكت أكثر الحبال إحساسا في قلبه، وإمّا لأنه تأكّــد من الموت في المعركة التي سيلقي بنفسه فيها، فأراد محو أخطاء عُنفِــه تجاه المسلمين، قبل مفارقة الحياة"[2].

ويعلّق نفس الكاتب على موقف دينار، بعد تحريره مــن الأســر قائلا: "عند العودة إلى العذاب الطويل الذي عاناه أبو المهــاجر، وإلــى العذاب المعنوي الفظيع الذي فرضه عليه الانتقام العنيد لعدوّه المنتصر، لا يمكن مقاومة شعور المفاجأة الممزوجة بالإعجاب، أمام تصرّفه فــي

(1) Les Berbères, T. 2, p. 177 5-9 .
(2) Ibid, p. 79

حريته، عندما أعيدت إليه، إذ راودته فكرة واحدة، هي فكرة قتال الكفّار ... وبعد ساعات قليلة أصبح يُعد من بين القتلى..."[1].

مع الملاحظة هنا أن أبا المهاجر الذي أَخَذَ عنه البكري معلوماتِه، ليس أبا المهاجر دينار، الوالي الذي كانت له قصة مع عقبة بن نافع وإنّما هو حَفيدهُ[2]. ويلاحظ .Caudel M أن عقبة "لم ينشغل، في حملته هذه الأكبر من الأولى، برُوم مُزاق (Byzacium)، والولاية البيزنطية (proconsulaire) ...، وكان ذلك من باب الإهمال، وربما من باب المهارة، لأن استيلاء أبي المهاجر على جزيرة شريك جعل إغريق الولاية البيزنطية في حالة عجز، وإن وُجد آخرون قادرون على اعتراض الغزو العربي فسيلتقي بهم عقبة بعيدا، على الهضبة الموريطانية، في مواقع لم يهدّدها الغزو من قبل"[3]، ثم يتسال هذا الكتاب عمّا إذا كان لعقبة، في جيشه أعوان من الأهالي، مثلما كانوا لأبي المهاجر؟ و يُجيب قائلا: "إن المسألة مشكوك فيها كثيرا، لأن الروايات النادرة التي تستطيع توضيح هذه النقطة لنا، تشير إلى ظهور سوء تفاهم تَصاعَد، بعد ذلك، بين العرب والبربر"[4].

ويرى نفس المؤلف أن البربر اتفقوا (se concertaient)، عدّة مرّات، مع الروم في التصدي للغزاة (envahisseurs) بكلّ من بغاية ولمبيس (Lambès) وتاهرت، ويَعتبر أن "حماسة عقبة الحمقاء، جاءت بالاتحاد، أي اتحاد البربر، الذي استطاعت مهارة أبي المهاجر تَجنّبه"، مذكّرا بما سبق وأن قاله (في كتابه) من أن "قيام حملة على الهضبة

---

(1)les berberes, t.2, p.79.

(2) انظر:

E. Lévi Provençal: E.I.,n^{elle} éd, leiden -Paris 1936,T.3, art. Okba B. Nafi'a, p. 1040

(3) Les premières invasions arabes, p. 121

(4) Id

الموريطانية، سَهْلة جدا أم خطيرة جدّا، حسبما كان البربري، معها أو ضدها، ودينار وضَعَه إلى جانبه، فعاد سالما من حملته على تلمسان، ونفّره عقبة، فلم يعد أبدا من طبنة، ومِن السهل فهم عداء البربري للأمير: فقد يكون قراره راجعا إلى سوء المعاملة التي تعرّض لها قادتُه، كما أنه لم يتقبل إبعاده عن تقسيم الغنائم، لأن نهب إفريقية الذي يحدث بالاتفاق معه يناسبه جيّدا، أمّا نهب إفريقية الذي يحدث أمام أعينه، دون أن يستفيد منه فيُغضبه. وهو عديم المهارة كعادته دائما، وبطيء في تنسيق عمل مشترك، كما سيُهزم نهائيا لو لم يكن الروم هناك لتنظيمه، أنه تحالف عقلاني، لم يصمد أمام القوة التي وُجّه ضدّها لكنّه تمكّن من هزيمتها. لقد عزم كسيلة منذ مدّة طويلة على الانتقام من عقبة، فدخل في اتصالات مع الروم. وتمكنت قواتهما المشتركة (Combinées) من اللحاق بعقبة في تهودة..."[1].

وفي رأي (.E.F) Gautier فإن عُقبة، عند اقترابه "بجيشه القليل من تهودة، التي ستكون شؤما عليه، "لاحظ الروم قلّة مَن معه من المقاتلين وتصوّروا أمَل القضاء عليه، فأغلقوا إذًا، أبواب قلعتهم، ورموه بالسهام والحجارة والشتائم، بينما كان هو يدعوهم إلى الإسلام، فلما حلّ بوسط البلد (Pays) بعث الروم رسولا إلى كسيلة"[2]. ويشير Gautier إلى أنه اقتبس هذه التفاصيل من النّويري، ملاحظا أن المؤلفين جميعهم، تقريبا، متفقون، دون إلحاح وبنفس العبارات، على اشتراك (association) البيزنطيين مع ملوك نوميديين"[3] وقد اقتبس نفس المؤلف أيضا، الحديث عن كسيلة كما قال، من خلال ابن خلدون، ليذكر

(1) Caudel : op.cit., p. 130
(2) Le passé de l'Afrique du Nord, p. 273
(3) Id

أنه "كان يساعده سكرديد الرومي، سـكرديد الرومـاني، وأنهمـا كانـا نصرانيْين (Chrétiens) وأن كسيلة، في الظرف الحاسـم، كـان فـي مراسلة مع الإفرنج (les Francs)، ومعناه، بطبيعة الحـال. الحَضَـرُ المُلَتْنِنين (Citadins latinisés)، وتوجد هنا خطوط منسجمة حيث يبدو أن القبائل الملتفة حول كسيلة، كانت تحتفظ باتصال وثيق مع المسـيحية واللاّتينية"[1] وبعد مناقشة (Gautier) لقضية علاقـة أَوْربـة بمنطقـة الأوراس وعلاقة كسيلة بأُسرة جدّار (Les Djeddar) الحاكمـة التـي تركت أضرحة من عهد الاحتلال البيزنطي، بجنوب غرب تيارت، فـي أعلى نهر مينى، دون أن يصل إلى نتائج ملموسة، و ينتهي إلى القول"إِنه من المؤكد أن أَوْربة كانوا من البرانس المُقَرّبين، بصفة خاصـة، مـن اللّتْنَنَة ومن المسيحية، وأن الانتصار على سيدي عقبة كان بيزنطيا، إلى حدّ كبير، أكثر من أيّ انتصار بربريّ لاحق، على مـا يُحتَمـل، ومـن المؤكد أيضا، أن هذا الانتصار الكامل كان له صدًى كبيرا فـي العـالم الإسلامي، حيث هزّ عمق المؤرخ العربي لدرجة أنه، على عكس عادته، تمكّن من إقامة صورة حيّة لكسيلة"[2] ويُترجم Gautier إلى الفرنسـية، كدليل على ما يقول، الرواية التي تناقلتها المصادر العربية عـن مسـألة سلخ الشاة التي تَعتبرها إهانة كبرى ليُعلّق في نهايتهـا قـائلا "إن هـذه التفاصيل تبدو مزيّفة ولكننا سعداء لإيجاد رسم (trait) حيّ لدى مـؤرّخ عربّي"[3]. ويضيف المؤلف الأخير أن "كسيلة وَضَع، بكل تأكيد، تهديـده

---

(1) les passé de l'afrique du Nord, p. 267., p. 267
(2) Ibid. p. 269
(3) Ibid, p. 270

المزيّف أو الحقيقي، حيّز التطبيق ففاجأ عقبة عند سفح الأوراس، من جهة بسكرة. في واحة تهودة...."[1].

ويذكر .Terrasse H أن "كسيلة كان رئيسا لأَوْرَبة التي كانت قد سيطرت على كل البرانس، وثار البربر جماعيا بقيادتها، وتخلوا عن الإسلام ويَدَّعي ابن خلدون أنهم ربما يكونون قد ارتدوا اثنتي عشر مرة، في مدة سبعين سنة ....، وهكذا فشل العمل الذي شيّده قائد جريء وصلْب (Dur)، يبدو أن له مِزاجُ الداعية للإسلام، بردّة فعل كانت مفاجئة بقدر ما كانت عنيفة، من أولئك الذين أظهروا، في البداية، انضمامهم بدون صعوبة إلى العقيدة الجديدة، فصارت المقاومة البربرية، بعدئذ يقظة، دون أن تكون منظمة بالفعل، وستتواصل مدّة خمسة وعشرين عاما، وقد تكون الجيوش الإسلامية خاضت ضدها أصعب المعارك حتى ذلك الحين"[2].

ويستنتج (ش. أ.) جوليان من المعلومات الواردة في مصادر ما بعد القرن الحادي عشر الميلادي، وخاصة ابن خلدون الذي كتب في القرن الرابع عشر، "أن شخصية كُسيلة سَيْطرت آنذاك، على تاريخ إفريقيا الشمالية"[3] وفي هذا الصدد يُسجّل ما ذهب إليه Gautier من افتراض أنه كان ملِكًا من أسرة جدار (des Jadar) أو على الأقل كان يترأس أَوْربة من البرانس الحَضَر، المتأثرين كثيرا بالحضارة اللاّتينية والمسيحية، وقد حُمِلوا (Portés) على الانضمام إلى الإغريق ضد العرب المسلمين "مستنتجا أن الانتصار على سيدي عقبة يُحتَمل أنه كان انتصارا بيزنطيا، إلى حدّ كبير، أكثر من أي انتصار بربري لاحق"،

(1) op. cit., p.270.
(2) Histoire du Maroc, T .1, p. 82
(3) Histoire de l'Afrique du Nord, 2, p. 18

ويمضي جوليان في كلامه قائلا: "إنه بالنظر إلى نُدرة الوثائق، وإلى قلّة دقّتها، يصعب كثيرا تقدير سلطة كسيلة بالضبط، غير أن الروايات القديمة، التي نقلها ابن عبد الحكم، تُمكّن من القول: إنه لعب دورا هاما في إفشال عقبة، وإن بيزنطيي إفريقيا الشمالية ودَعّموه، في عمله، ويبدو أن هؤلاء الذين لم تكن لديهم قوات عسكرية كافية لمجابهة المشاريع الإسلامية، نجحوا في إثارة البربر المتأثرين بالروح القبلية (particularistes) ضد المحتلين (Envahisseurs)، وفي غياب القوات العسكرية، بقي البيزنطيون يمارسون نفوذا سياسيا في شرق المغرب، على الأقل. وفي جوابه عن سؤالٍ مَا إذَا كان كسيلة ورجاله مسلمين، قبل ذلك، كما يؤكد المؤرخون المتأخرون، أم أنهم بقوا على ديانتهم المسيحية؟ يرى جوليان أنه من باب التهوّر إبداء الرأي حول هذه النقطة. والمهم، في نظره أنّ عقبة عندما عاد من حملته على المغرب فاجأه تحالف كبير، من البربر والبيزنطيين، في منطقة بسكرة، وقد يكون فَقَد السيطرة على قواته المحمّلة بالغنائم، وعلى كلٍّ فَقَدْ قسّم جيشه إلى عدة فرق بِطُبْنَة (Thubunae)، وتابع طريقه إلى جنوب الأوراس، على رأس سريّة قليلة العدد، وكان كسيلة قد غادره، بلا استئذان، في مكان غير معروف، وانظم إلى القبائل البربرية والفِرَق(Contingents) الإغريقية، فحاصره على حدود الصحراء (قرب تهودة (Thabudeos)، عند مخرج وادي الأبيوض (El-Abiod) ...."[1]

ويحاول الجنرال Brémond توضيح ثلاثة أشياء في هذا الموضوع: أولها حول قبيلة أوربة التي يصفها بالليبية (Libyenne)

(1) Histoire de l'Afrique du Nord, T.2, p. 18

ويقسم إسمها إلى مقطعين أوْ ربه (Aou reba) ويقول إن معنى Aou (بالليبية أو بالبربرية، يعني ابن= بني، آيت، أولاد) ويحدد مجالها بالأوراس. ويتعلق الأمر الثاني بديانة كسيلة التي كانت، في رأيه يهودية أو مسيحية؛ أما الشيء الثالث أنه يرجّح أن يكون كسيلة نَصَبَ كَميناً لعقبة[1].

وحسب إ. ليفي بروفنسال فإن عقبة "يبدو أنه لم ينتبه، عندما أخذ مع جيشه، طريق العودة شرقا، إلى أن كل شيء يحتاج إلى إعادة: فكسيلة فرّ من أَسره، وأعاد تنظيم المقاومة، مستعملا، في آن واحد، حماسة مواطنيه القتالية، وتِقَنيّة الحاميات البيزنطية الأكثر تنظيما. وثقة منه بالانتصارات التي حققها، فإن عقبة لم يـر الخطـر، عند حلوله بالزاب، وفي طبنة ذهب إلى حدّ تقسيم جيشه إلى عدّة فرق ....ولثقته الكبيرة بالعناصر البربرية التي أخضعها، لم يبق معه سوى قطعة صغيرة من العرب، عندما توجه من طبنة، إلى جبل أوراس، وسرعان ما حاصرته مجموعات (Bandes) كسيلة..."[2].

ويلاحظ G. Marçais أن "المسلمين لم يجدوا أمامهم سوى البربر، منذ الظهور الأول لسيدي عقبة في البلاد، وأن البيزنطيين يبدو أنهم كانوا خارج الحلقة ولكن لم يكونوا غائبين تماما، لأن الإخباريين ينسبون إليهم دورا حاسما في تألّق كسيلة: فأثناء اصطحابه، كأسير، في جيش عقبة الذي جال المغرب آنذاك، تلقى رسائل من الروم، وخاصة من الذين يُفترض أنهم يكّونون الحاميات في قلاع الثغور الغربية من المقاطعة (Province)، وقد وُجد هؤلاء حتى في أطراف الصحراء، في

(1) Berbères et Arabes, p. 182
(2) Ibid., p. 1041

باديس وتهودة، وعندما علم روم تهودة. بتقدّم عقبة، علـــى رأس قـــوات قليلة استعدوا للمقاومة وبعثوا رسولا إلى كسيلة الذي سبق له وأن فـــرّ، ودعى البربر إلى الثورة. وبجهود الجنود البيزنطيين ورجـــال القبائـــل الموحّدة، تمّ القضاء على المجموعة المسلحة الصغيرة"[1].

وبعدما حقق عقبة نجاحات لامعة في المرحلة الأولى من حملتـــه، فإن المقاومة، حسب م. طالبي، "سرعان ما نُظّمت، والواقع أن عقبة، كما يضيف، لم يستولِ على أي موقع كبير، وأن البـــرانس، أكثـــر البربـــر رَوْمنة، تحالفوا مع البيزنطيين، ودخلت أَوْربة في اتصـــال ســـريّ مـــع قائدها كسيلة، وهذا الأخير فرّ، في مكان غير معروف، من أسر عقبـــة وصار على رأس المقاومة. وهل ارتكب عقبة، من جهته، كما تؤكد كل المصادر، خطأ تسريح غالبية جيشه، ثقة بما حققه من انتصارات ...؟ أم أنه كان يُحبّ، بالأحرى، تقديم نجدة مستعجلة إلى العاصمة المهددة مـــن البيزنطيين؟ أو أن الأمر يتعلق، ببساطة، بعصيانِ جنودٍ أنهكـــتهم حملـــة طويلة وشاقة؟ ومهما يكن فإن عقبة وُجد في تهودة (Thahudéos) فـــي مواجهة كسيلة على رأس فِرق(Contingents) بُرنُسية وبيزنطية...."[2]

ويوجد جثمان عقبة، في مسجد الواحة التي تحمل اسمه (ســـيدي عقبة)، على بعد 5 كلم جنوب تهودة، تحت قبة متواضعة حيـــث يـــأتي لزيارته أحفاد أولئك الذين شاركوا في قتله (كما يقول Julien)"[3] ويعتبر الجنرال Brémond، في أحد تعاليقه، واحة تهـــودة العاصـــمة الدينيـــة للزيبـــان (ج. زاب)، والمســـجد الـــذي بُنـــي بهـــا هـــو أول نَصْـــب (monument) إسلامي شُيّد بالمغرب، وينقل عن كتاب "تاريخ إفريقيـــا

(1) La Berbérie musulmane et l'orient pp. 32-33
(2) E.I, n[elle] éd. Leiden- Paris 1986, T.5, art. Kussayla b. Lemzam, p. 521
(3) Histoire de l'Afrique du Nord, T.2, p. 19-

الشـــمالية (Histoire de l'Afrique septentrionale) للجنـــرال "Faure-Biguet" أنه يعتقد أن قبر عقبة موجود فيه ولكـــن المـــؤرخين العرب في المشرق يقولون: إن هذا القائد قتل في برقة"[1].

وسجل .Fournel H أنه زار تهودة في 7 مارس 1844 ولاحظ أن "العرب مازالوا يظهرون خشوعا كبيرا، أوحتْه إليهم ذكرى كبيـــرة، أمام ضريح عقبة" لكنه أحسّ بحسرة لعدم رؤية إسميْ المحاربَيْن الاثنين (عقبة وأبي المهاجر)، اللّذين فرّق بينهما الطموح واللذين، يبدو أنهما لم يتصالحا بحضور الموت إلاّ لكي لا يفترقا أبدا، مجتمعيْن فـــي تســـجيل واحد: فالشعور بالسمّو الذي أوحى لأبي المهاجر الحلّ (النهـــائي) كـــان يجب أن يجعله شريكا في مجد عقبة بهذا المزار"[2].

- ولاية زهير بن قيس البلوي:

يحدد.Fournel H تاريخ معركة تهودة بنهاية عام 63هـــ (فـــي شهر أغسطس 683م)[3]، ويَستنتِج ذلك مما ذكره ابن عذاري من دخول كسيلة إلى القيروان في شهر محرم من سنة 64هـــ، وبناء على تحديـــد كلّ من ابن عبد الحكم وابن الأبّار وشهاب الدين، لتاريخ تلـــك الموقعـــة بسنة 63هـــ، مضيفا أن ابن خلدون يخالف ذلك بطريقة غير مباشـــرة، عندما ذكر أن "زهير ابن قيس البلوي سار أيامَ عبد الملك بن مـــروان، إلى البربر الذين اجتمعوا تحت لواء كسيلة، رئيس قبيلة أوربـــة، وتَكبّـــدَ المسلمون في هذه الحملة هزيمة أجبرتهم على مغادرة إفريقيـــة، بعـــدما فقدوا القيروان". وكانت بداية خلافة عبد الملك في رمضان من سنة 65،

---

(1) Berbères et Arabes, p. 182, note 3
(2) Les Berbères, T. 2, p.180
(3) Les Berbères, T. 2, p.180

مما ينبغي، في هذه الحالة، كما يتبين، تعديل التاريخ الذي سبق تحديده لمعركة تهودة، وأكثر من ذلك، فإن معركة زهير ضد كسيلة فنّذها ابن خلدون، نفسه، عندما صوّر لنا والي (gouverneur) القيروان وهو يغادر المدينة على عجل، بعد تلقّيه خبر نكبة تهودة"[1]

ويُرجّح المؤلف الأخير رواية النويري التي تفيد أن عقبة عند انطلاقه، في حملته إلى المغرب، "ترك حراسة (garde) القيروان لزهير ابن قيس البلوي"[2] على رواية ابن خلدون التي تفيد، في مكانين مختلفين، أن "عقبة ذهب مسبوقا بمقدمة، على رأسها زهير بن قيس البلوي": ويبرّر Fournel هذا الترجيح بما ستسفر عنه نهاية الرواية (récit)، ملاحظا أن ابن الأثير يقول ذلك بإيجاب وأن أبا المحاسن (ابن تغري بردي) يتحدّث عن زهير كتائب لعقبة بالقيروان[3]، وأن أسم زهير لم يَرِد، ولو مرّة واحدة، في سجّل أخبار الحملة الطويلة التي وصلت إلى أقصى المغرب. ويكون من اللازم (عند الأخذ بتلك الرواية) قبول فكرة أنه قَصَدَ القيروان مباشرة من طبنة، على رأس إحدى الفرق العسكرية لكن المصادر لا تشير إلى ذلك. وبالتالي ستكون هذه فرضية مجانية يفندها ابن خلدون نفسه بجعله عودة زهير إلى القيروان بعد موقعة تهودة[4].

فلما وصلت أخبار هذه النكبة الكبيرة إلى حاضرة إفريقية نادى زهير الناس لحمل سلاحهم والذهاب إلى الانتقام لمقتل قائدهم وأصحابه، لكن تثبيط العزيمة كان كبيرا وخاصة بعد الخطابات (Les discours)

(1) Les Berbères, T. 2, p.181, note 3
(2) Ibid, p. 166
(3) Ibid, p. 166 , note1
(4) Les Berbères, T. 2, p. 180, note 3

التي ألقتْها شخصية معروفة، هي حنش الصَّنعاني، الذي لا يمكن اتهامه بالجُبن، لأنه إفريقي قديم (vieil africain) سبق لـه وأن قـام بعـدة حملات.... ويذكر ابن عذاري أن الناس (le peuple) التحقوا به عندما أخذ طريقه إلى مصر، فوجد زهيرُ، الذي لم يبق معه إلاّ أهل بيته، نفسَه مضطرا إلى الالتحاق بهم، ولم يتوقف إلاّ في برقة[1].

ويصف M. Caudel زهير بن قيس الذي أنابـه عقبـة علـى القيروان المرمّمة (réédifiée) "بفارس شجاعٍ جدّا ومسلم كثير التقّوى، نوع من فارسِ معبدٍ مسلم، أكثر زُهْدا من الفارس المسيحي.... و سنرى أن انشغالاته الدينية لم تمنعه من أن يكون رئيسا (Chef) فطنـا وقائـدا جيدا (général)"[2].

ويحاول نفس المؤلف ضبط تاريخ موقعة تهودة، انطلاقا من شك المالكي في وقوعها سنة 63هـ، وتحديده بسنة 64 التي يؤكـدها ابـن الناجي، ويستخلص أن الحدث يكون قد وقع قبل سنة 64، لأن الفـارين العرب، علموا عند وصولهم إلى بلاد الشام، بوفاة الخليفة يزيد التي كانت في 14 ربيع الأول سنة 64هـ/ 10 نوفمبر 683م.[3]

وقد انسحب زهير، في الواقع، حسب نفس المرجع، "أمام التحالف البربري البيزنطي، ويدّعي المالكي، نقلا عن أبي العـرب، أن زهيـرا اقترح مغادرة المدينة لكن المسمّى ابن حيان الحضرمي أَثنَى عزمه على ذلك، وبناء على نصيحتِه (Conseil)حاول المقاومة. وحُدّد مكان وقوع المعركة بقصر ابن عُبيْد أو بممّس، ويزعم نفـس المصـدر أن زهيـرا انتصر فيها. وقد يكون بقي، آنذاك، في القيروان ثم غادرها إلى مصـر

(1) Les Berbères, T. 2, T. 2, p.180
(2) Les premières invasions arabes, PP. 120-121
(3) Caudel: Op. cit., p. 131

سنة (64هـ/683م). وبطبيعة الحال، كما يقول Caudel، فإن المؤلف يخلط بين تاريخَيْ: 64 و69هـ، بوضعه أحداث الثانية في الأولى. ويقول أبو المحاسن (ابن تغري بردي)، بدقة أكثر، إن زهيرا، بعدما خاض عدة معارك جدية (sérieux)، أخذ في الانسحاب إلى مصر، وإن بقية أفراد جيش هذا البلد الأخير التحقوا به فتوقف ببرقة[1]

ويعلق Caudel على زعم ابن عذاري، باضطرار زهير إلى الالتحاق بحنش بن عبد الله الصنعاني، بعدما كان ينوي المقاومة، قائلا: "يبدو أن وقوع مضمون ما جاء في الرواية محتمل جدّا: فالأحداث تتفق كثير مع ما نعرفه عن خصائص وَالِي القيروان، وعن خصائص جنوده، فزهير كان محاربا تقيّا جدّا، وكان الموت يجذبه إلى ساحة القتال، وقد يكون استشهاد عقبة هيّج حماسه الحربي. أمّا جنوده الذين تتلاءم روحهم العسكرية، عن طيب خاطر (volontiers) مع الانسحاب، ولو بطريقة متسرعة جدا، فلم يفكروا، بعد تهودة، إلاّ في العودة إلى مشرقهم، حيث يستطيعون التمتع، في أمان، بنصيبهم من الغنيمة ومِنْ ثمّ جاءت رغبتهم في العودة إلى مصر، سيما وأن الغنيمة كانت أكبر، هذه المرة"[2].

ويستخلص هذا الكاتب أنه "إذا كانت توسعات (Conquêtes) العرب سريعة، فإن انسحاباتهم أسرع، فهم يستولون على البلاد في بضعة أشهر ويضيّعونها في بضعة أيام" "وإن هشاشة إقامتهم تكشف العيب الأساسي للمشاريع التي يوجّهون إلى شمال إفريقيا، فهي لم تكن أبدا منظمة، مجرد أنّ لها هدف، وليس لها، ولا شك، مخطط. ولم تنجح

(1) op. cit., pp. 131-132
(2) Les premières invasions arabes, p. 132

عبقرية قائد (Chef) في إعطائها التماسك والدقة الضروريتين، فبزوال هذا القائد أو بهزيمته، يسقط العمل بكامله وتنبغي إعادته من البداية، وهذا، بالأحرى، عسير لدرجة أن السلطة المركزية، فَرِيسة صعوبات أكبر، لم تكن لها هواية ولا وسائل تقديم مساعدة جدية لأعوانها بإفريقية"[1].

ويذهب م. طالبي إلى القول: إن هزيمة تهودة "أحدثت هَلَعًا في القيروان، مما يدل (في نظره) على أهمية انتصار كسيلة وبالأخص على حجم قواته، وقد انتصرت أخيرا فكرة مغادرة البلاد التي دافع عنها حنش الصنعاني على فكرة المقاومة التي تبنّاها زهير...."[2].

ويُلاحَظ أن أغلب الكتاب الفرنسيين اكتفوا بإشارات عابرة للتعبير عمّا حدث في مدينة القيروان، في فترة ما بين موقعة تهودة وانسحاب المسلمين منها، ومن ذلك ما ذكره Mercier من أن العرب تسارعوا، أمام هذه التظاهرة (Manifestation) إلى مغادرتها[3]؛ وما ذكر جوليان من أن سياسة عقبة انتهت إلى كارثة، إذْ غادر العرب الأراضي التي احتلوها (leurs Conquêtes)، إلى ما وراء برقة، أمام جهود البربر والإغريق المنسّقة[4]، وما ذكره الجنرال Brémond من أن والي القيروان (زهير) عندما علم بخبر النكبة فرّ بجلده، دون محاولة المقاومة، حتى وصل برقة على بعد 1200كلم[5]

وبعدما ذكر Fournel أن كسيلة (المنتصر في تهودة) سار إلى القيروان، دون تضييع وقت، ولم تكن قد أُفرِغت تماما من الناس، فدخلها

(1) caudel : op. cit,, pp. 134-135
(2) E.I. n^elle éd, Leiden- Paris 1986, T. 5, art. Kussayla b. Lemzam, pp. 521-522
(3) Histoire de l'établissement des Arabes, p.59
(4) Histoire de l'Afrique du Nord, T. 2, p. 19
(5) Berbères et Arabes, pp.'182-183

في المحرم من سنة 64هـ وأمن المسلمين الذين بقوا فيها"[1] توقف معلقا "ألاّ شيء أفضل من هذا الحدث لإثبات حالة التدهور الذي كان البيزنطيون واقعين فيه بإفريقية، فلم يلعبوا هناك سوى دورا ثانويا (subalterne) وحتى قادتهم لم يُذْكروا؛ فكسيلة البربري هو الذي يحكم الروم والأهالي (indigènes) إنه لم يقد الجيش فقط، بل سيتّخذ مُلكا ويحكم إلى اليوم الذي ينبغي انتظاره، يوم يَتمكّن المَسلمون من الانتقام لهزيمتهم، فَبَعد ما سال هذا القَدرُ من الدم العربي، منذ ثلاثين عاما، ها هم البربر، إذًا، يسيطرون (maître) على إفريقية وعلى القيروان نفسها"[2]

ويرى Caudel أن "انسحاب العرب وضعف الروم سَمحَا لكسيلة من إقرار سلطته على مُزاق (Byzacène)" كما يعلّق على ما سجّله Fournel "من سيطرة البربر على إفريقية وعلى القيروان نفسها، بعد ثلاثين عاما من سيلان الدم العربي" موضحا، "أن هذا هو قصد المؤلف، وفرضيّته (Thèse) تنتصر هنا، على ما يبدو، بدون منازع ممكن، لقد تسرّع قليلا في الاغتباط، لأن البربر سيطروا على القيروان، وهذه حقيقة. فهل أن توسعا(Conquête) لامعا لمثّل معسكر (camp) الناهبين هذا، ذي الموقع الرديء من نظرة البربري الإستراتيجية، تَحصينُه ضعيف جدا لدرجة أن سكانه هاجروه دون قتال ولم يتركوا فيه من غنيمتهم إلاّ التي لم يستطيعوا حملها أثناء انسحابهم، يصعب الدفاع عنه لدرجة أن كسيلة غادره بِدَوْره في أوّل تهديد بالهجوم. هل وجود البربر في القيروان يعني أنهم سيطروا على إفريقية؟ بالطبع لا! لقد أَوقع

(1) Les Berbères, T. 2, PP. 182-183
(2) Ibid, P. 181

الإخباريُون العرب هنا، السيدَ Fournel في خطأ. وهؤلاء لم يلاحظوا إلاّ شيئا واحدا، هو أَنّ قَتْلَ، عقبة بتهودة يعني أن الإسلام ضيّع إفريقية. إن كسيلة هو الذي هزم عقبة، وكان لكسيلة شأن مع زهير قبل انسحابه، وتحت سيطرة كسيلة يوجد العرب الذين مَكثوا في القيروان. ومن كل هذه الأمور استنتج (الكتاب) العرب أن كسيلة هو المسيطر على إفريقية. وماذا كانوا يقصدون بإفريقية، بالضبط؟ إن غموض المصطلح يساهم أيضا في تشويه الفكرة التي نُكوّنها لأنفسنا، عن القائد البربري: إذ يعني العرب بإفريقية، تارة، شمال إفريقيا بكامله، من سيرت إلى المحيط الأطلسي وطورا، السهل الممتد من قابس إلى الهضبة الموريطانية، مزاق (Bizacium)، بمعنى منطقة أقل من البلاد التونسية الحالية.... وعندما تشير (nous montrent) المصادر الشرقية إلى سيطرة كسيلة على إفريقية فهي لا تقول شيئا دقيقا: فإن كنا نميل إلى مساندة المجد البربري، يمكننا توسيع إمبراطوريته على شمال إفريقيا كلّها، وإذا أردنا إدراك الواقع، إلى أقرب حدّ ممكن، ينبغي لنا تحديد سلطة كسيلة في السهل التونسي الحالي، على ضفاف واد زَرُود وواد مرقليل (Merguellil) والتحفظ على الباقي. وها هي إمبراطورية البربر مقلّصة جدّا. فالعرب أوقعوا السيد Fournel في خطأ متعلق بحجمها، وقد أخطأ هو نفسه، في أهميتها. لقد حاولتُ، في مكان آخر، أن أبيّن ماذا كانت حكومة البدو (des Maures) عندما كان محتلّو (envahisseur) إفريقية يتركون لهم حرية حكم أنفسهم. إنه عملُ شخصٍ لا يحمل إلاّ همّ الحفاظ على وحدة ما لا يريد التفكّك، وينْصبّ كلّ جهده على تسيير قبيلتين أو ثلاث أو عشر، معا، وهي لا تَفْهَم، إلاّ نادرا، فائدة اتحادها. إن هذا ليس حكما، ولا يمكن القول: إن الأراضي التي كان يحكمها، مِن قبلُ، جرجير والتي

نهبها العرب عدة مرّات، أصبحت الآن محكومة من كسيلة، فهي محتلـــة (occupé) فقط، وهذا يختلف كثيرا: فالقبيلة البربرية جـــاءت لتعـــوّض الغوغاء العرب .... وسيذهب رجالها للبحث، في حطام الغزو، عن بقايا يكون العربي قد ازدراها؛ وقادتُها يتناوشون ويبحثون عن وسيلة حاذقـــة لتلافي دفع الضرائب أو الاحتفاظ بالنصيب الأكبر منها. إن كســيلة لــم يحكم، بالمعنى الذي نعطيه لهذه الكلمة، ما احتلـــه (Ce qu'il occupe) من مُزاق (Byzacium)، لأن فعل حَكَمَ (Gouverner)، بالنسبة إلينا، معناه توقّع، فلو أن كسيلة حكم لاستشعر (présenti) عــودة العربـــي الهجومية، ولاحترس منه... لم يفعل أي شيء. ومهما يكن فهو لم يمسك كل البلاد: فالبيزنطيون استمروا يحكمون، في حدود قوّاتهم، جزءا مُهِمًّا منها "في الواقع، كما يقول السيد Diehl، إن احتلال الإمبراطوريّين (les Impériaux) استمر بقوة في كامل الولاية (proconsulaire)، وفـــي حاشية مُزاق الشمالية، وفي الجزء الأكبر من نوميديا: ففي نهاية القـــرن السابع الميلادي لم يكونوا يمسكون بكل قلاع الساحل فقط.... بل كـــانوا يملكون، أيضا، بداخل البلاد، عددا كبيرا من الحصـــون: فخـــطٌ دفـــاع المقاطعة الثاني لم يكن بَعْدُ، مسّه أيُّ هجوم؛ وفي نوميديا كانت الحاميات موجودة حتى في القلاع التي كانت تَحُدّ الأوراس؛ وبالإمكان الاقتناع بأن صلةً رخوةً جدّا (lien assez lâche)، ولا شك، من التبعية كانت تربط مملكة (royaume) كُسـيلة البربريـــة بمـــا تبقّـــى مـــن الإكْزارخيّـــة (exarchat)، وفي كل الأحوال فإن تحالفا محدودا كان يـــربط الأميـــر الأهلي (indigène) بالإمبراطورية البيزنطية" فلِحُسن الحظ أن المؤلِّف العالِم (savant)، صاحب إفريقية البيزنطية، ضَبَط الأمور عندما بيّن لنا، في شمال مقاطعة إفريقية، قوة إغريقية نسيّها العرب فـــي الإضـــطراب

الذي أعقب تهودة، وإني أخاف أن يكون ذَهَب بعيدا، بعض الشيء، في اعتباره حكم كُسيلة منظّما ومنتَظِما..."[1].

ويتحدث Mercier E. عن "عَيْش المغرب، مدّة خمس سنوات، في أمنٍ، تحت سلطة كسيلة الذي عقد تحالفا بينه وبين الإغريق"[2]؛ ويقول Gautier "إن انتصار كسيلة هزّ حماس كل البلاد، وجعل منه، "رئيس جميع إفريقية والمغرب"[3].

ويذكر Marçais G. أن "كسيلة المنتصر على البطل المسلم، دخل القيروان، وسيطر عليها من سنة 683 إلى 686م"[4] ثم يستأنف كلامه قائلا: "في تاريخ الاحتلال (Conquête) هذا الذي نحاول ضبط مراحله الرئيسية المجزّأة جدّا والمُريبة جدّا والمُضبَّبة جدّا بالأساطير، فإن السنوات الثلاث هذه التي كان، أثناءها، قائدٌ بربريّ قويّ، نمطٌ من يوغرطة القرن السابع، مسيطرا على المدينة العربية الأولى في الغرب (occident)، تسجّل فاصلا زمنيا عجيبا، يكون من المفيد وضع خط تحت خاصيته ....لقد دخل كسيلة القيروان، منتصرا، على رأس حشد (multitude) من البيزنطيين والبربر، وحكم هؤلاء مع العرب المستقرين بها وبالأراضي المجاورة، واعترف لهم بحق العيش فيها، مع الاحتفاظ بدينهم، وليس بَديهيًّا أن يكون، هو نفسه، قد تخلّى عن الإسلام الذي أدخله فيه أبو المهاجر، ولا تُعرف طبيعة العلاقات التي كانت تربطه بالبيزنطيين الذين ساعدوه على تحقيق الانتصار: أهو حسن للجوار، أم تحالف أم تبعية؟ إنّ الذي يبدو مؤكدا هو أن السنوات الثلاث

(1) Les premières invasions arabes, p. 140, sqq
(2) Histoire de l'établissement des Arabes, p. 60
(3) le passé de l'Afrique du nord, p. 70
(4) La Berbérie musulmane et l'orient au Moyen âge, p. 32

هذه، حيث امتلك قائد أهليّ (indigène) هـذه المملكـة (Royaume) العربية البربرية الغريبة، شاهدت أيضا الأيام الجميلة الأخيرة للمقاطعـة الإمبراطورية، في حين أن قسطنطين الرابع تصدّى بنجاح إلى الجيـوش الإسلامية في المشرق وأجبر الخليفة الأموي على دفع ضريبة سنوية له، من المال والعبيد والخيول، وبقيت حامياته تحتفظ بمواقع السـاحل، مـن سوسة إلى بونة، وبقلاع الداخل، ولا شك"[1]

ويذهب الجنرال Brémond إلى القول: أنه، عند استقرار كسيلة بالقيروان، "لم يبق فيها أي عربي. واستمر احتلال الحاميات البيزنطيـة لقرطاجة وبعض المدن الساحلية" ويَعتبر ش. أ. جوليان أن "كسيلة"، بعد دخوله القيروان، أصبح القائـد (Chef) الحقيقـي لإفريقيـة والمغـرب الشرقي، لمدة ثلاث سنوات وأن البربر الذين اعتنقوا الإسلام تسـارعوا إلى الرّدة، مثلما فعلوا في غالب الأحيان: اثنتا عشر مرة في سبعين سنة، حسب نص معروف لابن خلدون. وبدت إفريقية راغبة فـي اسـتقلالها برئاسة قائد بربـري، حـول الأوراس حيـث نـبض قلـب المقاومـة البربرية"[2].

للعلم هنا أن Julien المتأثر كثيرا بـ Gautier (E.F.) أخذ عنه فرضيته (théorie) المبنية على أن "الأحداث الكبرى، من تاريخ كسـيلة تجتمع حول الأوراس: حيث حقق انتصاره الكبير، وقَتل سـيدي عقبـة، جنوب غرب الأوراس، بالقرب من بسكرة، وفَقَد العرش والحياة، شـرق الأوراس، بين هذا الأخير والقيروان"[3] وأن Masqueray "لا يتردّد في تأكيد وجود صلة بين الأوراس الغربي وبين أَوْرَبة كُسيلة، وهي فكـرة

---

(1) Marçais G., Op. cit., p. 33
(2) Histoire de l'Afrique du Nord, T. 2, pp. 19- 20
(3) Le passé de l'Afrique du Nord, pp. 267-268

معقولة لكنها ليست بديهية"[1] ومع أن ابن خلدون "لا يحدّد موقع أوربة الأوائل (Primitifs) في الأوراس، ولا في مكان آخر ... لكن يُستنتج من روايته للأحداث أن كسيلة وقبيلته أوربة لم تكن لهما ارتباطات بالأوراس فحسب، بل أيضا بالتّلّ الوهراني، أي منطقة تلمسان وحتى رِوَاق تازة. إن ... أبا المهاجر كان قد أَسر كسيلة في "عيون تلمسان"، وبعد الهزيمة الكبرى (هزيمة كسيلة) لاحق العرب المنتصرون أوربة إلى ملوية، وسنرى بقاياها تستقر بوليلي (Volubilis) .....إن صورة الأرض، وِشاح (écharpes) النجود المرتفعة، أقامت، دائما، صلة طبيعية بين الأوراس وبين ملوية؛ وقد يكون من المناسب التذكير بقيام مجموعة من أَضرحة الأهالي، إلى اليوم (النصف الأول من القرن العشرين)، بجنوب غرب تيارت، في أعلى نهر مينى، تسمّى جَدّار (Djeddar)، ومن الثابت أنها قبور أُسرة حاكمة، معاصرة للاحتلال (occupation) البيزنطي،.... ومن الطبيعي الاعتقاد بأن أسرة بربرية حاكمة، قادرة على ترك آثار في أهمية جدّار خَلْفها، تكون قد بسطت سيطرتها، شرقا، حتى الأوراس بل حتى حدود إفريقية البيزنطية. ومن الواضح أيضا أن إقامة جدّار تَفترض مساهمة المهندسين المعماريّين البيزنطيين"[2]. وهنا يتساءل Gautier ما إذا كان من حقه افتراض أن كسيلة وقبيلته أوربة كان لهما شيء مشترك مع جدّار؟ مجيبا أن هذا ليس محالا، مع أن الفرضية لم تصدر أبدا. و هو لا يعرف لماذا، ويرى أن ذلك قد يعود، قبل كلّ شيء، إلى كونها مجرّد فرضية، وبالتالي فهي

---

(1) gautier, op. cit., p.268., p. 268
(2) Ibit., pp 268-269

عديمة الفائدة[1]. وهذا الكلام الذي يشك صاحبه نفسه في صحته، كما تبيّن، يسلّم به Julien وبناء عليه يجعل الأوراس مكانا لنبض قلب المقاومة البربرية ضد المسلمين.

وبالنسبة لمحمد طالبي " فإن القيروان.... أصبحت، من سنة 64 إلى سنة 69هـ/من 683 إلى 688م، عاصمةً لمملكة بربرية واسعة يحكمها كسيلة وقد أشار ابن عذاري (....) إلى أن كسيلة أمّن المسلمين ... وأقام أميرا على كافة سكان إفريقية والمغرب، بمن فيهم المسلمون، لا كراهية للأجنبي إذًا، ولا اضطهادا ولا تعصّبًا دينيا، علما أن هذه المعلومات أوردها شهود ليس لهم سببٌ يجعلهم يُدارون أعداءَهم. وتمّ التأكيد لنا على أن كسيلة ذاته لم يكلف نفسه عناء الرّدة، بعد انتصاره. وهذه الإجراءات تكشف، بكل وضوح، برنامجا سياسيا كاملا موجها، ولا شك، لانتزاع الحجة الدينية لغزو العرب، مرة أخرى، للمغرب"[2].

وفيما يخصّ ما آلت إليه وضعية زهير في برقة، يعتقد Caudel أن السيد Fournel بيّن، بطريقة جيدة جدا، العلاقة الوطيدة التي تجمع شؤون المغرب بشؤون المشرق، خلال القرن الأول الهجري: يقول لنا كيف كانت ثورات بلاد الشام والعراق أو الحجاز تسترعي انتباه الخلفاء، لدرجة تجعلهم يهملون تماما المغرب. وقد أدّت ظروف متشابهة إلى نفس النتائج سنة 64هـ/683م: ففي الوقت الذي قتل فيه عقبة، توفي الخليفة يزيد في ربيع الأول، من نفس العام وخلفه مروان بن الحكم، فوجد ولاياته مقلّصة إلى حدّ كبير: فعبد الله بن الزبير كان يدّعي الخلافة في مكة، ويسيطر على كامل الحجاز ويمدّ يده إلى مصر والعراق، في آن

(1) gautier, op. cit.,, p. 269
(2) Talbi M^{ed}, E.I., n^{elle} éd., Leiden- Paris 1986, T .5, art. , Kussayla b. Lemzam, p. 522

واحد، وبعد شهر من توليته تمكّن من هزيمة والي بلاد الشام الثائر، بمرج راهط، وفي السنة الموالية تمكن من طرد ممثلي ابن الزبير من مصر، وفي نفس السنة 65هـ توفي وقد وَجدَ خَلَفُه، عبد الملك، الأمور أحسن قليلا: فابن الزبير بقي مسيطرا على مدن الحجاز (villes saintes) والعراق لكن الخلافة الأموية استعادت مصر، ودخلت، بواسطتها، في اتصال مع مسلمي إفريقية. وكان هؤلاء يستنجدون بصوت عال، وحسب المؤرخين، فإن نداءهم وصل عبدَ الملك، الذي تجاوب (Cédant) مع إلحاح (pression) حاشيّته (entourage) وصَلَوات عرب برقة، فأسند إلى زهير بن قيس قيادة حملة جديدة، لكن تاريخ تلك الحملة ليست مؤكدة، بصفة قاطعة (absolument)، بل إن البعض يشكون في حدوثها مثل Weil، صاحب كتابGeschichte des chalifen الذي اتبع طريقة سطحية بعض الشيء، خاصة وأن المصادر التاريخية والجغرافية تزوّدنا، عن هزيمة كسيلة وموت زهير، بتفاصيل دقيقة، لا يمكن أن يوجد لها مكان في أية حملة أخرى، وهي على العكس تتطابق جيّدا فيما بينها لتشكّل تفصيل (détail) حملة لها تاريخها وهيئتها(physionomie) الخاصة، فمن المستحيل إذاً، جعلها محلّ شك، وعلى أكثر تقدير يمكن مناقشة الوقت الدقيق الذي حدثت فيه، ويجعله أغلب المؤرخين عام 69هـ/ 688 م، ويستشهد (cite) السيد Fournel بياقوت وابن الأثير وابن عذاري والنويري وأبي المحاسن ومولى أحمد الذين يذكرون هذا التاريخ ويقبل شهادتهم التي يخالفها ابن خلدون، وحده، الذي يشير إلى تاريخ 67هـ/ 686 م، ولم يجد صاحب كتاب البربر (l'auteur des Berbères) صعوبة في إلحاقه برأي زملائه، ملاحظا بدقة أنه (ابن خلدون) يُبيّن

كسيلة وهو يحكم إفريقية، مدّة خمس سنوات وبالتالي فإن حكمه الذي بدأ سنة 64 لم يسقط إلاّ سنة 69هـ/688م[1].

ويعتقد Fournel أن نتـائج الأحـداث الرئيسـية التـي أجمـل (esquisser) الحديث عنها بسرعة "كانت لصالح قضية ابن الزبير؛ أمّا بالنسبة لعبد الملك فقد استفاد من القضاء، تقريبا، على أخطـر أعدائـه، وهم الشيعة، دون أن يتطلب ذلك تدخّله الشخصي. وهذا ما يعنيـه، ولا شك، ابن عذاري بقوله، وهو يتحدث عن خليفة دمشق: "عندما توطّـدت سلطته، اجتمع كبار حاشيته للإلحاح (le presser) عليـه كـي ينجـد إفريقية..." فاقتنع الخليفة بالفكرة الحميدة لكن الحذر اقتضى تأجيلها... ثم تقرّر إرسال حملة. وكان الأمر يتعلق، قبل كل شيء، بإيجـاد الرجـل القادر على تحقيق مسعاها، وبصوت واحد عُيّن زهير بن قيس البلـوي كأجْدر مَنْ ينتقم لِدَم عقبة ولهزيمة تهودة..... فأُرسلت إليـه تعزيـزات عسكرية (renforts) وأموال وانطلق إلى القيروان"[2].

ويرى Caudel أن المالكي يبدو مخطئا، عندما بيّن لنا أن مروان هو الذي عقد الاجتماع (بالحاشية) وأن عبد الملك هو الذي اتخذ الحـل، ويظهر له، بالأحرى أن المالكي بقي وفيا لتسلسل الأحداث، دون أن يذكر ذلك التسلسل، بما فيه الكفاية، وقد يكون مـروان حوصـر بِالْتِماسـات خاصّةٍ بمشروع القيام بِحمْلة جديدة على إفريقية، ولم يسـتطع الموافقـة عليه، وإنما كان ابنه، وحده، هو الذي فكّر في تنظيم الحملة، ويقدّم لنـا صاحب البيان الرواية نفسها، عن هذه الظروف، ويحدّد وقوعهـا فـي خلافة عبد الملك[3]

(1) Fournel, les Berbères, T. 2, p. 144 :أنظر ؛ Les premières invasions arabes, P.135 sq
(2) Les Berbères, T. 2, pp. 194-195
(3) Les premières invasions arabes, p. 139

وكان اختيار زهير لقيادة هذه الحملة يفسّر نفسه: فزيادة على أن هذا القائد عُرف بالصفات التي أشار إليها المالكي: "فهو من عباد الله الصالحين ومن أشرف المجاهدين"، فقد كان قريبا جدّا من مسرح الأحداث، وكان بقايا جيش عقبة تحت تصرّفه، وباختصار فإن عبد الملك لم يكن في وسعه سوى إبقاءه في منصبه، بإعطائه أمر التحرك. ويبدو أن هذا الأمر أسرّ كثيرا زهيرا[1].

ويذهب م. طالبي إلى القول: "إن موجة الاحتلال (Conquête) لم تكن بَعدُ (بعد هزيمة تهودة) قد نَفذَت، وعندما هدأت الأزمة التي ظهرت في المشرق مع ثورة ابن الزبير، عاد زهير إلى ولاية إفريقية"[2].

وحاول Caudel رسم صورة لحال (aspect) إفريقية عند بداية غزو (invasion) زهير فتحدّث عن بقاء تنظيم بيزنطي محكم في الشمال حيث توجد دفاعات جدّية وسلطة مطاعة إلى حدّ بعيد؛ أمّا في الجنوب، في مقدّمة خط القلاع، وسط السهل، فتوجد القبائل البربرية مصطفة، تقريبا، تحت أوامر كسيلة تشكل، دون أن تعلم، طليعة المسيحية ضد الإسلام: فالبيزنطي الماكر ترك لها هذا الموقع الخطير الذي لم يعُد ينشغل باحتلاله، وهي لم تتحصن: إمّا من باب الجهل أو من باب الغطرسة وسيفاجئها هجوم زهير.[3]

ولم يُصدّق نفس المؤلف ما أورده المالكي من أن خبر زحف زهير لم يبلغ كسيلة إلاّ عندما اقترب القائد المسلم من القيروان، معتقدا "أن غموض (le vague) الحملة العربية سيجنّب، هذه المرة أيضا مؤلفها، الدعوى التي كنّا سنقيمها على كاتب أكثر دقة، و"الاقتراب من

(1) les premieres invosions arabes, p. 139.
(2) E.I, n[elle] éd. Leinden- Paris 1986, T.5, art. Kussayla b. Lemzam, p. 522
(3) les premières invasions arabes, p. 144

القيروان" عند الحديث عن برقة يعني تجاوز قابس، وهذا هــو المعنــى الذي نعطيه له"[1].

ويردّ .Terrasse H سبب إرسال خلفاء دمشق لحملة زهير إلــى كونهم لم يستطيعوا أن يتراجعوا، دون أن يعرّضوا سمعتهم إلــى خطــر كبير، وكانت الأسرة (dynastie) الأموية، آنذاك، في أَوج قوّتها، وكانت لديها موارد كبيرة من المال والرجال، غير أنه كان لابّد من أربع سنوات حتى تتمكن الحملة التي أعدّها عبد الملك، من غزو إفريقية، من جديــد، سنة 688م..."[2].

ويعتقد Julien أن "العرب لم يستطيعوا البقاء على هــذا الفشــل (فشل تهودة). وقد يكون الخليفة عبد الملك أجّل الانتقام بسبب الصــراع مع عبد الله ابن الزبير القوّي ... ثم استغّل فرصةَ هدوءٍ لإرسال جــيش بقيادة زهير ابن قيس..."[(3)].

ويلخّص Fournel ما ورد في المصــادر العربية عــن وقــوع الصدام بين زهير وكسيلة مبيّنا أن هذا الأخير "رأى أن عليــه مغــادرة القيروان وانتظار العدّو في مكان أنسب، لأنه كان يخشــى، إذا تحصّــن بها، أن يَقْدِمِ العرب الكثيرون الذين بقوا فيها ، على مساعدة محاصرية، وقد بقي القائد العربي من جهته، أمام المدينة ثلاثة أيام، دون أن يدخلها: إمّا احتراسا من مكيدة محتملة أو لترك جنوده يستريحون، وفــي اليــوم الرابع انطلق نحو النقّطة التي أقام فيها كسيلة معسكره... قــرب قريــة ممّس(Mames) (الواقعة على مرحلة من شرق سبيبة Sabibah)"[(4)].

---

(1) le premiéres invasions arabes, p. 144.
(2) Histoire du Maroc, T. 1, p. 83
(3) Histoire de l'Afrique du Nord, T. 2, p. 20
(4) Les Berbères, T. 2, p. 195

ويرى Caudel أن "ما كان كسيلة يبحث عنه بانتقاله نحو الغرب (إلى ممس)... هو ... الهضبة الموريطانيـــة والتضـــاريس المتحركـــة (Mouvementés) التي تحُدّها، وطريق سبيبة الذي يكون قد اتبعه هو المباشر الذي يؤدي إليها، وهو ينطلق من القيروان ليقطع حوالي عشـــر فراسخ، في سهل، ثم يدخل بين خاصرتي (contreforts) جبل أوسلات (Ousselet)، شمالا، جبل طروزة (trozza) جنوبا، والجبلان يتركان بينهما شعبا (Gorge) ضيّقا جدا لكي تستطيع مؤخرة جـيش منســحب الدفاع عن الممرّ بسهولة، ويبقى الطريق، فيما بعد وعرا، غير متســاو ومتعرّج، ثم يقطع منطقة العـــلاء (Le pays d'él-Ala) وتـــأتي فـــي الأخير، منطقة وادي الخطب الغابية، وعند صعود مجراه تقع سبيبة ... لم يكن في وسع كُسيلة اختيار موقع أفضل، فواد الحطب له مجرى دائم ومنسوب مائه كاف، والبلد يوفر الخشب والمؤن (vivres) بكثرة، وله أيضا مراعي ..."(1).

ويقول م. طالبي: "إن كسيلة، الذي لم يكن متأكـــدا مـــن ســـاقته (ses arrières) بالقيروان، اختار الذهاب إلى ممّس، على بُعد 50 كلـــم غرب العاصمة، والانتظار هناك ... في منطقة يمكن أن توفر له جبـــالاً فيها ملجأ، في حالة الهزيمة"(2).

وقد أدى مقتل كسيلة في المعركة، حسب Fournel، إلى "هزيمة تمّ فيها القضاء على حشدٍ من البربر والروم الذين لاحقهم العـــرب إلـــى وادي ملوية، كما يزعم ابن عذاري، وهذا قليل الاحتمال"(3).

---

(1) Les premières invasions arabes, pp.145- 146.
(2) E. I., n^elle éd., leiden - Paris 1986, T.V, art. Kussayla B. Lemzam, p. 522.
(3) Les Berbères , T.2, p72 sq

وفي رأي Mercier أن "معركة واحدة حاسمة، وقعت بممّس، قرب رافدٍ عُلويّ لنهر مجردة، أنهت حملة زهير الذي لاحق أوربة، باعثة (Promoteurs) التمرّد (révolte)، وطَرَدها من خيامها (Campements) أمامه إلى عمق المغرب حيث أقام بقاياها في الجبال المجاورة لوليلي"[1].

ويقتبس Caudel ما أورده كل من المالكي وابن الناجي، من أن العرب لا حقوا أعداءهم بعيداً (si loin) حتى سَقَوْا جيادهم من مياه ملوية، نهر طنجة، وغزوا (conquirent) شقبنارية وقلعة أخرى "مستخلصا أن مدينة (sicca vénéria)، الكاف الحالية، تقع على بعد سبعين كيلو مترا شمال سبيبة، ويمتد بينهما طريق يؤدي، مِن مُزاق، إلى وادي بقرادة (Bagradas)، وأن الاستيلاء على Sicca محتمل أكثر بكثير من الزحف حتى ملوية، ومع ذلك، ليس له اعتراض كبير على الرأي الأخير: إذ قُتل كسيلة وانحبس الروم في قلاعهم، فمن يستطيع منع السرايا العربية من القيام بما قام به عقبة من قبل ؟ لقد رأيناهم، قبل ذلك، انطلقوا بسرعة كبيرة عبر الموريطانيتين (Les Mauritanies)، وحملة 69 هذه كانت أقل صعوبة وأقل خطرا عليهم من حملتي: 57 و63هـ، لأنّ قوة البربر كانت قد شُلَّت مؤقتا[2]، وفي مكان آخر يقول، نفس المؤلف، إن "تحطيم القوة البربرية كان، هذه المرة، من عمل زهير بن قيس، لقد حصّلت حملته، التي لا يوليها المؤرخون المحدثون أهمية تُذكَر، على هذه النتيجة الكبرى، فَبِهزيمة كسيلة وقتله، أعدّ زهير سقوط القوة الإغريقية، لأنه حطّم مقدمة الجيش (Le corps avancé) التي

(1) Histoire de l'établissement des arabes, p.60.
(2) Les premières invasions arabes, pp.146- 147

كانت تدافع عن الولاية البيزنطية (proconsulaire) أفضل مــن خــطّ القلاع الأمامية (Le Limes)، وفتح طريقها لخَلَفه"[1].

ويذكر Fournel أن زهيرا، بعد انتصاره، دخل القيــروان التــي غاب عنها، مدة طويلة "وربما كانت تنتظــره مهمــة ثقيلــة : فــالبربر سيطروا على البلاد، خمس سنوات، وبالإمكان التأكد أن الإدارة العربية، في النقاط المختلفة، تم مَحْوُها بالكامل، تقريبا، وأن كل شيء كان يحتاج إلى إعادة تنظيم، ويبدو أيضا أن هزيمة كسيلة لم تكن متبوعــة بتهدئــة كاملة، فابن خلدون يقول: "إن حملات أخرى ذهبت متتالية من القيــروان ونجحت، أخيرا، في إخضاع البلاد بكاملها " بل إن الــبلاذري يؤكــد أن زهيرا غزا (conquit) تونس، ربما لمعاقبة الــروم عــن مســاعدتهم للبربر. لكن كم كانت مدة ولاية زهير؟ إنْ كــان الإخبــاريون العــرب يقدّمون (présentent) قحطا متزايد عن أعمالها، فإنهم صامتون، تماما عن مدتها، نفس القائد، الذي انتظر، في صبر ببرقة، مدة خمس سنوات، الأوامر والإمدادات، التي حالت اضطرابات المشرق، دون إرسالها إليه، والذي تمكن الآن من استرداد إفريقية للأُمويّين، صُوّر لنا فجأة، وكأنــه يتفحّص سلوكه السابق، وكأنه يرتعش من كل أهوال ضمير متورّع، أمام مسؤولية ولايــة (un gouvernement)"[2]. ويقــف Fournel عنــد الأسباب التي أوردها كل من ابن عــذاري والنــويري وابــن خلــدون والقيرواني في هذا الشأن، معلقا: أن نصوص هؤلاء تتفق على رسم حالة ذهن زهير وعلى إطلاعنا عن اتخاذه قرار مغادرة القيروان ولكــن، لا أحد من المؤرخين العرب قدّم اسم المساعد الذي أسنِدت إليه القيادة أثناء

---

(1) les premieres invasions arabes, p.155

(2) Les Berbères , T.2,p.196

تلك المغادرة ولا تاريخ حدوثها، نعرف فقط، عن طريق ابن خلدون أنه ترك الأمور آمنة في القيروان، وأن كثيرا من أصحابه مكثوا فيها[1].

ويلاحظ Caudel" أن المالكي يصوّر لنا البلد آمنا، مباشرة، بعد الغزو (Conquête)، وهو وسيلة لتفسير سفر زهير بن قيس المفـاجئ إلى المشرق، بالنسبة لمؤلف حياة الأولياء هذا الذي لا يريد دفـع ولـي (saint) إلى ارتكاب خطأ : فمغادرة زهير القيروانَ، والثورات تهـدده من كل ناحية، معناه أنه قائد غير مبال بواجبه، لكـن مغادرتـه ولايـة مزدهرة ومجزية يعني أنه شخصيّة فاضلة، آختارت حياة الناسك المتأمل الزاهد، عن بَذَخ (Faste)السلطة "[2].

ويعلق نفس المؤلف على ما ذكره Fournel مـن " أن البربـر سيطروا على البلاد، خمس سنوات، وبالإمكان التأكد أن الإدارة العربيـة في النقاط المختلفة، تمّ محوها بالكامل، تقريبا، و أن كل شيء يحتاج إلى إعادة تنظيم" قائلا: لا ينبغي المبالغة في أهمية العمل (tâche) الذي تَحتَّم على زهير وعلى مساعديه، وإني أجد هنا انشغالا دائما لكُتّابنا الغربيين، لأنهم تعودوا رؤية تنظيم دقيق رياضي مستمرّ، منذ القديم لديهم، يريدون أن تكون، دائما، في إفريقيـة إدارة وحكومـة: فالسـلطة (pouvoire) البيزنطية سبق وأن سقطت، لا بدّ وأنّ السـلطة (autorité) العربيـة عوّضتها مباشرة وإذا كان العربي طُرد (chassé) فإن البربـري هنـا سينظّم (ordonner)عوضا عنه، ويعود العربي سنة 69هـــ و سـيعيد التنظيم، أنها نفس الفكرة التي دفعت السيد (Diehl) إلى الحـديث عـن مملكة بربرية والتي أوحت إلى السيد (Fournel) شكوكا حـول السـير

(1) les Berbères, pp. 196-197
(2) Les premières invasions arabes, p.150

الحسن للإدارة العربية، . لقد بيّنْتُ، فيما سبق، ماذا يمكن أن تكون مملكة بربرية، وفيما يخص الإدارة العربية فهي بسيطة لدرجة تجعلهـا سـهلة النقل، إنها تقتصر، في مُجملها، على موظّف، أميـر حـاكم، وقاضـي. والوثائق تتكون من سجلّ (registre) واحد،هو ديوان الخراج، وحتـى وإن ذهب الأمير ما وراء قابس ومعه سجلّه، فإن الإدارة العربية وُجدت، ولم تترك من آثار، في ذاكرة الأهالي، سوى ذكرى محرقة لغرامة ثقيلة، مأخوذة بوسائل بسيطة وحازمة، وهذا التنظيم البدائي يتنقل بسرعة نادرة ويعود أسرع ممّا ذهب لكن لا يشغل الأرض من تلقاء نفسه، وسـيختلف الأمر عندما يعتنق جميع الأهالي(indigènes) الإسلام، ولم ينجح زهير، في هذا الصدد، أكثر من سابِقيهِ، لقد قلّدهم و لم يفعل أكثر منهم، فالحملة التي قادها مرّت خَفْية بسهولة، وكان هناك متّسع من الوقت للشـك فـي حدوثها، وهي لم تقدم علامة (trait) لم تَسبَق لنا معرفتهـا...: دخـول مفاجئ في بلاد مفتوحة على مصرعيها، انسحابُ جيش الـدفاع، نهْـبٌ (pillage) أقلّ إثمارًا(moins fructueux)، بطبيعة الحال، لأنه لم يكن الأوّل، توقُّف في مكان الراحة الذي تشير به الطبيعـة علـى العـرب، ملاحقة العدوّ، قتالٌ، هروبُ البربر، اسـتئناف النهـب، شـنّ غـارات (incursions) في كل مكان لا تستطيع فيه القوات المنظمة عرقلة الأخذ المُمَنهج للغنيمة.... ويكفي وجود خطٍّ من القلاع المملوءة بالجنود لإيقاف الاستكشافات العربية، لكن الحاميات (garnisons) لم تشعر أن أعدادها كافية لمحاولة الخروج، في حين كان المحتلون يركضون على طول خط الدفاع، دون محاولـة اختراقـه، وهكـذا نجـت الولايـة البيزنطيـة (Proconsulaire) من السلب، في حين عانت منه الموريطانيتان الأكثر

بعدا. وعندئذ فإنّ القائد العام المتعب من الحرب والميّال إلى الحياة التأملية، ترك ولايته وعاد إلى الشرق"[1].

وبالنسبة لـ Mercier E. فإن البلاد لا يمكن أن تخضع بنجاحات عابرة وجزئية (كالنجاح الذي حققه زهير) بصفة دائمة فالبربر كانوا يَخْضَعون، في كل جهة يمر بها العرب، وبمجرد ابتعاد أسيادهم (Maîtres) يتمردون ويرتدّون، ولم يكن ما مع زهير من الجيش كافيا، لأن الخليفة، عبد الملك، كان منشغلا كثيرا في بلاده (chez lui) حتى يتمكن من إمداده بالمقاتلين، فرجع القائد العربي إلى المشرق، متخليا عن المهمة المستحيلة التي أُسندت إليه"[2].

وذهب Gautier إلى القول: إن زهيرًا وجد أمامه، في المعركة التي قتل فيها كسيلة، جيشا مكوّنا من البربر و الروم... وهلك المحاربون الأكثر شجاعة ، من الروم والمشركين في هذه القضية (affaire)[3]؛ وفي مكان آخر يشك نفس المؤلف فيما " يؤكده المؤرخون العرب، من أن انتصار زهير كان حاسما، وأن البربر المنهزمين لُوحقوا بعيدا، مادام العرب، حسب شهادتهم، هم أنفسهم، غادروا مرة أخرى إفريقية ..."[4].

في حين يرى Marçais G. أن " زهيرا الذي لم يأت إلا للقتال "في سبيل الله" اكتفى بترك حامية في القيروان وعاد إلى الشرق..."[5].

ويرد الجنرال Brémond مغادرة زهير لإفريقية، بعدما تقدم غربا حتى وليلي (volubilis)، إلى اضطراره، أمام هجمات البربر

(1) Les premières invasions arabes, pp. 148- 149.
(2) Histoire de l'établissement des arabes, pp.60-61.
(3) le passé de l'Afrique du nord, p.273
(4) Ibid, p. 70
(5) La Berbérie Musulmane et l'orient au Moyen Age, p. 33.

عليه [1]. وهو نفس الرأي الذي يذهب إليه، تقريبا. Terrasse H قائلا: "إنه لَمِن المستحيل كتابة تاريخ ولاية زهير القصيرة، ما دامت المصادر متناقضة، وإنّ ثورات جديدة أجبرت المسلمين علـــى مغـــادرة إفريقيـــة وانسحب زهير نفسه إلى برقة"[2].

ويعتبر ش. أ. جوليان" هزيمة زهير لكسيلة نسبية، لأن زهيـــر انسحب، دون أن يترك حامية في القيروان"[3]؛ كما يعتبر م. طالـــب أنّ "المعركة ... كانت لغير صالح كسيلة إلاّ أنه يجب الاقتناع أنها لم تكــن حاسمة إلى الدرجة التي تَزعُمها مصادرُنا، لأن زهيرا، في الواقع، حتى ولو انتصر، فضّل، مغادرة البلاد، من جديد، حتى ينـــآى بنفســـه عـــن مغريات خيرات هذا العالم، كما قيل لنا " ... إن محاولة كسيلة تأســـيس إمبراطورية كبيرة تَحكُم، من المدينة التي أسسها عقبة بـــن نـــافع، لـــو نجحت لأخذ تاريخُ المغرب، ولا شك، منعرجا آخر، لكن (طالبي تَساءَلَ عمّا إذا) كان البربر، آنذاك، ناضجين لمثل هذا المشروع؟"[4].

ويُرجع fournel H. ما ذكره ابن عذاري و النـــويري، مـــن أن "خلقا عظيما " اتبع زهيرا إلى المشرق عمّا زعمه مؤرخون آخرون، من أنه كان على رأس مجموعة صغيرة (une petite troupe)، ويرى أنه من المسموح به الشك في نزاهتهم والاعتقاد أنهم رغبوا في تقليل أهميـــة النكبة التي أعلنوا عنها في الرجوع؛ ومن هؤلاء ابن عبد الحكم الذي لم يجعل معه سوى حراسه (escorte) من سبعين فارسا والقيرواني الـــذي

---

(1) Berbères et Arabes , p.183
(2) Histoire du Maroc ,T.1,p.83
(3) Histoire de l'Afrique du Nord, T.2, ,p .20.
(4) E. I., n^{elle} éd., leiden – Paris 1986, T.V, art. Kussayla B. Lemzam, p. 52.

نسّق (arranger) روايته بطريقة، لا تترك، أيضا إلاّ حِراسةً قليلة مــع زهير[1].

ويعتمد الكاتب المذكور على ابن عذاري أيضا، فــي قولــه: "إن الروم، عندما علموا أن زهيرا غادر إفريقية في اتجــاه برقــة أبحــروا بأسطولهم الذي أنزل جيشــا فــي هــذه النقطــة مــن تلــك المنطقــة (Cyrénaique)، وإن زهيرا عندما وصل بجيشه، وجد البلد قد خُــرّب (saccagé) والسكان قد قُتّلوا (massacrés) أو أُسروا وكُدّســوا فــي المراكب المسيحية، فأصدر الأمر مباشرة بالقتال للإسراع في تخلــيص المسلمين، لكن الروم المتفوقين في العدد دحروهم، فقُتل زهيــر ومعــه الأشراف الذين كانوا يرافقونه"[2].

ويسجل Fournel بــدون تعليــق، أن النــويري " يــزعم " أن الأسطول البيزنطي زحف عليها من صقلية وأن ابن خلدون لم يقدم أيــة تفاصيل، وأن ابن عبد الحكم وأبا المحاسن (ابن تغــري بــردي) حــدّدا تاريخ موت زهير بسنة 76 هـــ، مع أن هذا الأخير جعل دخول حســان ابن النعمان، خليفة زهير، سنة 57، في مقطع أول، وسنة 69 في مقطع ثانٍ[3].

ويقتبس Caudel ما أورده البلاذري عن مقتل زهير، لكنه فضّل ما جاء في كتاب معالم الإيمان، لمحمد بن الناجي، لأنه بــدَا لــه أكثــر وضوحا وقابلية للفهم ومضمُونُه "أن الروم انتهزوا فرصة ذهاب زهيــر للهجوم على برقة، فقاموا بتحويلٍ (diversion) للهجوم الذي قــام بــه القائد العربي، في نفــس الوقــت، علــى إفريقيــة، وكانــت طــريقتهم

(1) Les Berbères , T.2, p.196 et note 1et2
(2) Ibid,p.197
(3) Ibid, p. 197, note 2

(tactique) سعيدة: إذ استولوا على المدينة ووصل خبر استسلامها لزهير، وهو عائد إلى المشرق، فترك الغالبية من جيشه تواصل طريقها ومال (faisant un détour) هو، مع نخبة من فرسانه فوقع ببرقة، وسط قوات إغريقية أبادته هو ومجموعته"(1).

ويعلق Caudel قائلا: إن الأمير، في هذه الحالة، لم يُبرهن على يقظة كبيرة، ملاحظا أنه: "القائد المسلم الثاني الذي نراه يذهب بهذه الكيفية، خلال انسحابٍ، إلى تقديم رأسه مطأطأة في كمين، وقد تأثر العرب بنكبة (désastre) برقة بقدر ما تأثروا بنكبة تهودة... وبعدما لاحظ أن هناك خطأين احترابيّين (tactiques)، راح يتساءل ما إذا كانا منسوبين إلى القائدين الذين كان ضحيتيها ؟ ثم يجيب بأنه من الصعب التصديق أنّ رجلين قادا بمهارة حملات حربية، يمكنهما ارتكاب أخطاء كبيرة كهذه، وهما يقودان انسحابا: فالمؤرخون يبرزون لنا عقبة، قبل تهودة، وزهير، قبل برقة، تاركَيْن جيشيهما يذهبان أمامهما أو في حاشيتهما، ثم يسيران بنفسيهما نحو عدو جديد، فهذان القائدان، حسب أولئك المؤرخين، قد يكونان تركا الجيش (يذهب بدونهما)، ألاَ يكون الجيش، على العكس من ذلك، في الحالتين، ترك قائديْه؟ لنتذكر الحذر البارز الذي يُظهره الجيش العربي، عندما يكون محمَّلا بالغنيمة، فهو لا يخاطر بأي شيء، ويتفاوض مع العدو عن طيب خاطر، ويتفادَاه على الخصوص، برشاقة، ويسجل نفورا كبيرا من القتال، فجيش عقبة كان قد نهب الموريطانيتين، قبل طنجة، وهو يتعجل لوضع مادة نهبه في مأمن بالقيروان، أو أبعد من ذلك إن كان الأمر ممكنا، وجيش زهير يتسارع،

---

(1) Les premières invasions arabes, pp. 149- 150.

قبل برقة، نحو مصر، وبلاد الشام لنفس السبب، وفي الحالتين فإن الإعلان عن قتال جديد ليس فيه ما يعجب غالبية الجيش، التي أُطفئت حماستها الحربية، ولم يعد يفكر في القتال إلا القائدان وحدهما، ومعهما السيّافون المحنّكون، ولم يعد للأمير سلطة سوى على هؤلاء، وقد بيّنت تجربة كل الأزمنة وكل البلدان، بوضوح كبير، أن جيشًا نَهَبَ لم يَعُد جيشا وإنّما أصبح قافلةَ أمتعةٍ، تعود من الطريق الأقصر إلى الإقليم الذي انطلق منه العسكر، وفي مثل هذا السير تضعف سلطة القائد، ويُسمع كلامُه، فقط، إن دلّ على طريق بلد الازْدياد، ووافَق على التحول إلى خبير (stratège) إدارة المراحل، ولكن إن تحدّث عن ترتيب الوحدات للقتال يتهرب الناس من حوله، وإن أراد تغطية الانسحاب أو القيام بمشروع جديد، فهو لا يجد حوله سوى نخبة صغيرة، يقودها نظامها وشجاعتها مباشرة إلى الموت، وهكذا هلك زهير ببرقة"(1).

وفي رأي (E. F.) Gautier فإن زهيرًا، عندما قُتل أثناء انسحابه (retraite) "بمنطقة طرابلس، على الطريق الذي يحادي البحر، لم يقتله البربر ولكن قتله الروم الذين أنزلهم أسطول كبير، وجيّد التجهيز، يعني جهّزه البيزنطيون الذين أُخطروا، بطبيعة الحال، وكانوا يعملون باتفاق مع البربر، وعندما علموا أن زهير انطلق من إفريقية نحو برقه، كما يقول البيان، انتهزوا هذه الفرصة"(2).

---

(1) Les premières invasions arabes, pp. 149- 150.
(2) le passé de l'Afrique du nord, p.273.

ويكتفي. Mercier E بالقول: إن زهيرا "اصطدم، في برقة، بجيش إغريقي قام بعملية إنزال في إفريقية، وقُتل مع كل مرافقيه وهكذا استعاد البربر استقلالهم"[1].

ويقول .Marçais G: "إنّ وصول زهير إلى برقة كان في الوقت الذي أَنزل فيه أسطولٌ بيزنطي كبير جيشا نهب البلاد منتهزا، ولا شك، فرصة الانقاصات (prélèvements) التي مست جيش الاحتلال، لغزو (envahir) إفريقية، فخاص زُهير ضدّه معركة قُتل فيها مع قادة عرب كثيرين "[2] واكتفى Terrasse بقوله "إنّه هُزم وقُتل ببرقة[3] كما اكتفى Julien (Ch. A.) بالقول "إنه فوجيء وقتل (بها)"[4] وتساءل م. طالبي عَمّا إذا لم يكن الأمر متعلقا بعملية مُرتّبة تهدف إلى أخذ العرب في المصيدة الإفريقية ولكنها لم تنجح لأن تنسيقها كان رديئا؟"[5].

- ولاية حسان بن النعمان الغساني على بلاد المغرب:

في حديث.Fournel H عن الحملة العربية الخامسة على إفريقية، يقول إنه "بعد مرور ست سنوات على هلاك زهير الباسل (vaillant) كلَّف الخليفة، سنة 77 هـ، حسان بن النعمان الغساني بالثأر لهزيمة الأسلحة الإسلامية هذه"[6] ويُذكّر بما سبق له وأن لا حظه عن غموض تاريخ دخول حسّان إلى إفريقية معلّلا التواريخ الكثيرة التي حُدّدت لذلك الحدث، وخاصة التباعد (écart) بينها، بعدّة أسباب، منها: الشك في

(1) Histoire de l'établissement des arabes, p.61
(2) La Berbérie Musulmane et l'orient p. 33.
(3) Histoire du Maroc ,T.1,p.83
(4) Histoire de l'Afrique du Nord,T. 2, p .20.
(5) E. I., n[elle] éd., leiden – Paris 1986, T.V, art. Kussayla B. Lemzam, p. 522.
(6) Les Berbères , T.2, p209 sq

تاريخ نكبة برقة، وسكوت المؤلفين البيزنطيين عن تلك المعركة، مع أنها كانت في صالح الجيش الإغريقي؛ والخلط (confusion) بين حملة زهير وبين حملة حسّان، ونسيان مختلف مراحل الصراع الذي نتج عنه استيلاء العرب نهائيا على قرطاجة[1].

وعن تعدد تلك التواريخ وابتعادها عن بعضها يقول Fournel:" إن أبا المحاسن (ابن تغري بردي) يُدخل حسانا إلى إفريقية سنة 57، في حين أن أبا المهاجر (كما تبين سابقا) هو الذي كان يحكم إفريقية سنة 57؛ وهنا يوجد خطأ قد يكون تسبّب في خطأ القيرواني ... ويذكر أبو المحاسن نفسه أن عبد العزيز بن مروان كلّف حسان بن النعمان الغساني بغزو (envahir) إفريقية سنة 69؛ في حين أن زهيرا، كما سبق وأن قلنا، هو الذي كُلّف بالثأر لموت عقبة، وهنا يظهر الخلط بين حملة زهير وحملة حسان التي جاءت بعدها، فضلا عن ذلك فإن البكري حدّد تاريخ ذهاب حسّان إلى إفريقية بسنة 68، وحدّده الرقيق بسنة 69 وتَبِعه في ذلك ابن خلدون، ومولى أحمد لكن ابن الأثير ينقلها إلى 74 ثم إن ابن عبد الحكم، وبعده القيرواني، يترددان بين 76 و77 وأخيرا يجعلها ابن عذاري سنة 78، وقد أُخترتُ، كما يتبين، أحد التاريخين اللذين، أشار إليهما أقدم هؤلاء المؤرخين جميعا"[2].

ويضيف نفس المؤلف أن ابن خلدون " يزعم أن حسانا كان واليا لمصر لكننا رأينا أن عبد العزيز، أخا عبد الملك، قد عُيّن في تلك الولاية سنة 65، والمعروف حسب أبي الفداء وأبي المحاسن اللذين يكونان قد

---

(1) Les Berbères , T.2, p209 sq
(2) Fournel: Op: cit., p.210, note1 Ibid, p. 210, note 2

اقتبساها عن ابن عذاري، أن هذا الأمير احتفظ بها، مدة عشرين سـنة، إلى أن مات سنة 85، وبالتالي، لا يمكن التسليم (admettre) بان حسان بن النعمان كان واليا لمصر في أية سنة من السنوات التي تَفْصـل سـنة 65 عن سنة 85، بل أكثر من ذلك، فقد يكون عبد العزيـز هـو الـذي استقدم هذا القائد إلى ولاية إفريقية..."[1].

وقد " أُرسل حسان، أولا، إلى مصر، مع أربعين ألف رجل، فأقام بها بعض الوقت وهناك أبلغه عبد الملك أوامره في رسالة قائلا: " إنـي أضع تحت تصرفك أموال مصر..." وهذه الانطلاقة من مصر هي التي دفعت إلى الاعتقاد، خطأً، أن حسانا كان واليا لهذه المقاطعة".

وفي رأي Eournel H. أن المؤرّخِين الغَربيّين اعتقـدوا أنهـم مجبرون على الانحياز لهذا المؤرخ أو ذاك، فيما يخص تـاريخ تعيـين حسان على ولاية المغرب، وقد فعلوا ذلك دون محاولة الدفاع على الحل الذي كانوا يتبنونه: فالسيد Fournel اختار سنة 77، اعتمادا علـى رأيِ أقدم مؤلف رجع إليه، ويشير Amari إلى 74- 75هـ/ 693-694م، حسب (sur la foi) ابن الأثير، دون أن يذكر لنا لماذا بالضبط، ويبـدو أن ذلك تم تحت انطباع (sous l'impression) أحداث المشـرق التـي تُعطي، في الوقع، بعض الاحتمالات إلى رأيه؛ أمّا weil فقد اعتمد تاريخ 73هـ/692م كما أوردَهُ ابن عبد الحكم[2].

وقد بدا لـ Caudel أن محاولة التوفيق بين المؤرخين العـرب يكون أكثر حكمة من مقابلة بعضهم بالبعض الآخر، ويمكن التوصل إلى ذلك هكذا: ألم يخلط هؤلاء المؤرخون بين حَدثين متتاليين: تعيين حسان

---

(1) Fournel, op. cit., p. 210, note a
(2) Ibid., p. 211

والهجوم الذي قاده على الممتلكات البيزنطية؟ وقد يعود تاريخ 69 إلى أول تلك الأحداث، وتواريخ 73، 76أو 78 إلى ثانيها. وبكل تأكيد، فإنّ الشك يبقى قائما، ما دامت التواريخ الثلاث بقيت تُعرض علينا، عن هذا الحدث الأخير، لكننا نقترب أكثر من الحقيقة، ولنكتفي بهذه المقاربة، وهناك حقيقة مكتَسَبة هي، أنّ العرب الذين دخلوا إفريقية مع زهير، تركوا ذويهم بالقيروان، وبعد وفاة الأمير كان لا بد من تعيين رئيس عليهم: فاختار لهم الخليفة، فورا، (حسب رواية المالكي) حسان بن النعمان الذي ذهب مباشرة لاستلام منصبه مع الجيش الذي زوّده به الخليفة، وعدده ذُو مغزى: لم يأت مع حسان سوى 6000 رجل، وهو ما قاله لنا المالكي، قبل قليل، وهذا يكفي لتامين (وهي عبارة المؤلف نفسها) مسلمي القيروان، من العدو، لكنه قليل جدّا لكي يُستخدم في الهجوم، ويفسر ضعف هذه النجدة التي قدمها عبد الملك بالصعوبات التي كان الخليفة فريسة لها، في المشرق، بتاريخ 69هـ لأنّه كان يصارع، في آن واحد، عبد الله بن الزبير الذي استمرت سيطرته على مكة، والخوارج الذين ثاروا بالعراق. وقد قُتل عبد الله سنة 73هـ 692م، وهُزم الخوارج سنة 77هـ/ 696م، فكان بإمكان عبد الملك التفكير في تدعيم وَالِيه على إفريقية سنة 74، وأكثر من ذلك سنة 78هـ، و في الانتظار بقي هذا الأخير في موقف دفاعي، وقد يكون عاد بسرعة إلى المشرق لاستعجال تنظيم الحملة التي كان يطمح لقيادتها، وهو ما يجعل تفسير هذا الخلط في التواريخ الذي وقع فيه الإخباريون، مقبولا"(1).

(1) Cauldel : op.cit, pp. 152- 153.

ويذكر E. Mercier، بكل بساطة، أن " خليفة المشرق، عند سماعه خبر نكسة المغرب، أرسل إلى حسان بن النعمان، والي مصر، إمدادات قوية وأمره باستعادة السلطة العربية في الغرب (L'ouest)"[1]؛ ويذكر الجنرال Brémond مثله تقريبا، أن "حسان بن النعمان (أو حسان ابن عثمان، حسب آخرين)، والي مصر، قاد الحملة الخامسة سنة 689م... وأن تلك الجيوش كلها كانت شامية تنتمي إلى المجموعتين اللّتين كانتا تتنافسان على السيطرة: القيسيين والكلبيين"[2].

مع ملاحظة أن كلام هذين الكاتبين غير موثّق.

ويقول G. Marçais: إن الخليفة عبد الملك، عندما أخبره الناجون من كارثة مقتل زهير بما حدث " اختار قائدا قادرا على إعادة النظام إلى إفريقية، لكنه لم يقم بتنفيذ المبادرة إلا بعد ذلك بسبع سنوات، مثلما حدث غَداة الحلمة الأولى "وبدا له" أن هذا التوقف، عن الغزو، مُبَرَّر جدا بالاضطرابات الخطيرة التي كان المشرق مسرحاً لها: فالخليفة عبد الملك كان في نزاع على مِلكيّة (Possession) بلاد العرب مع أحد المطالبين بالخلافة، و كان العراق في ثورة، وكانت مصر، أيضا تهدد بالانفصال، ولما تم القضاء على الثورات، فقط، أرسل عبد الملك حسان النعمان على رأس أربعين ألف رجل".[3]

ويرى م.طالبي أن المتتبع لعمل حسان يصطدم بالشك (incertitude) في تسلسل الأحداث وبتناقضات كثيرة، وأن التواريخ المقدَّمة في وصوله إلى إفريقية هي: محرم 68هـ/ يوليو أغسطس 687م و69هـ/ 688-689م، و73هـ/ 692- 693م. و74هـ/

---

(1) Histoire de l'établissement des Arabes, p. 61.
(2) Berbères et Arabes, p. 183.
(3) La Berbérie Musulmane et l'orient p. 33.

693م-694م، و78هـ/697- 698م ... وأنّ التسلسل الذي أشار إليه أقدم الإخباريين، يعني: ابن عبد الحكم وابن قتيبة، والذي أكّده ابن عساكر هو الأكثر احتمالا، فهو يوافق التسلسل المنطقي للأحداث ويُمكّن من تجنّب التناقضات "[1]" ويضيف " أن عبد الملك المنشغل بالصراع ضد مدّعى الخلافة، عبد الله بن الزبير، لم يتمكن على الفور من تعيين خَلَف، لزُهَيْر الذي قُتل سنة 69هـ / 688- 689م، لكن ابن الزبير هُزم وقتل سنة 73هـ / 692-693م واستؤنفت الحرب ضد البيزنطيين، وفي هذا التاريخ، إذًا، أُرسل حسان، ولا شك، مع جيش قوي لاستعادة (Pour reconquérir) إفريقية"[2].

ويتساءل Fournel H. عن وضع العرب بالقيروان، خلال السنوات الستّ هذه ؟ ثم يجيب مفترضا " أنه كان وضع متفرّجين أكثر منه وضع لاعبين "مؤيدا رأيه بما ذكره ابن خلدون "من انتشار نار الفتنة، من جديد بعد هزيمة زهير، في كامل إفريقية، وتفرقت صفوف البربر ونظر كل واحد من شيوخهم إلى نفسه كأمير مستقل"، وقد بدا لهذا الكاتب أن انتصار برقة شجع بيزنطيي إفريقية على استعادة الهيمنة التي كانوا فقدوها نهائيا، على البربر، وأن هؤلاء شاهدوا عدة قادة متخاصمين، على رأس حركة المقاومة، هذا ليس إلا افتراض، ولا شك، غير أن ما سيقع من أحداث سيعطيه بعض الاحتمال[3].

ويسجل Caudel M. "أن المؤرخين العرب لا حظوا أن الناس دلّوا حسان على أعظم أمير بإفريقية في شخص حاكم قرطاجة، بمعنى الإكزارخ (l'exarque) الإغريقي الذي كان يحكم لفائدة الإمبراطور

---

(1) E. I., n[elle] éd., leyde – Paris 1986, T,III, art. Hassan B.Al-Numan al-ghassan ,p.279.
(2) Id.
(3) Les Berbères, p .211.

وهم، في هذا، متفقون تماما مع المؤلفين المسيحيين، وأقوال هؤلاء وأولئك غامضة لكنها كافية لتثبيتنا بهذه النقطة" ثم يقتبس هذا المؤلف من السيد Diehl قوله: "إن البيزنطيين يبدو أنهم انتهزوا فرصة قيام هذه الاضطرابات (تَشتّت البربر بعد موت كسيلة) بترميم سلطتهم، أكثر بقليل، في مُزاق: إذْ وَرَدَ في كتاب "Le liber pontificales" أن مقاطعة إفريقية، بكاملها، خضعت من جديد إلى الإمبراطورية الرومانية (romaine) حوالي 685م (66هـ) " ويعلق caudel قائلا: إن الكِتَابَ المذكور لا يقدم تاريخا مؤكدا، بحيث يبدو أن تاريخ 685 م سابق للأوان، بعض الشيء، لأن كُسيلة، حسب مؤلّفِينا، لم يكن تُوفي، غير أن الحدث يصبح ممكنا جدا، إذا حددناه بسنة 688 أو 689م بعد التاريخ المحتمل لوفاة القائد البربري الكبير: ففي ذلك الوقت على حد قول ابن خلدون،كانت قبائل الأهالي في اضطراب تام. وهذا مثال جديد ومدهش عما ذَكرت في الحديث عن الحكومة البربرية، فبِمُجَرّد اختفاء الرجل الذي أقامها، انهار كلّ شيء، وعادت القبائل إلى حياتها الخاصة، واستأنفت صراعاتها الداخلية، ومن المحتمل أن تكون السلطة البيزنطية تمكنت، مرة أخرى، من مُزاق، ولم يكن لها الوقت الكافي لكي تتوطد، وقد كشفها إلى العرب اختفاء منافسها الأهلي(indigène) وعندما عاد هؤلاء بقوة مع حسان، لم يعد هناك، في الواقع، سوى حكومة نظامية واحدة بإفريقية، هي حكومة الإكزارخ (l'éxarque) وسينْقضّ عليها حسان[1].

(1) Les premières invasions arabes, pp. 154- 155.

ويقول Mercier E. : إنّ البربر، بعد مقتل زهير، " استعادوا استقلالهم وسقطوا، أول الأمر، في الفوضى، ثم هدأت نزاعاتهم تلبيةً لنداء اِمرأة، دِيْهيَةِ اِبنةِ ثابت بن نِفَاق، ملكة جَـرَاوة الأوراس وأطاعوا الكاهنة..."[1]. ويستخلص gautier (E .F)من تعاون الروم مع البربر على مقاومة عقبة، في بغاية ولمبيسة وتيهرت وتهودة، وعلى مقاومة زهير بممّس وقتله في منطقة طرابلس، ومن ميلاد ابنٍ للكاهنة، من أب يوناني:" أن البيزنطيين احتفظوا حتى ذلك الوقت، بحاميات مبعثرة، هنا وهناك، في قلاع منيعة على الجيش العربي، وأن المواصلات بقيت حرة ما بين قرطاجة وبيزنطة، وبقيت المدن بيزنطية، واقعا وروحا، وأن بيزنطة موّنت وسلّحت ونصحت البربر، فوجد العرب أمامهم آنذاك، كلّ المغرب موحدا: اللاّتين والبربر، المستقرين والرحل، وبطبيعة الحال، فإن حسانا احتل قرطاجة لتحطيم هذا التحالف..."[2].

كما يستخلص Julien (Ch.A.)، بناء على التشبّث بما قاله ابن خلدون، وعلى التفسير (l'exégèse) المغري لـ إ.ف . غـويتي (Gautier E. F.) "أن اختفاء كسيلة أدّى إلى نتائج خطيرة: فالبيزنطيون المسيطرون على الموانيء الكبرى، من سوسة (Hadrumète) إلى بونة (Hippo- Régius)، وعلى عدد من القلاع الداخلية، ولم يلعبوا في حرب الدفاع، سوى دور المساعدين للبربر، انتهزوا فرصة ذهاب العرب، والنزاع بين رؤساء القبائل، لتقوية سلطتهم في مزاق في حين ضيّعت أوربة قيادة العمليات التي انتقلت إلى قبيلة من الأوراس الشرقي، هي قبيلة جراوة "[3].

---

(1) Histoire de l'établissement des Arabes, p. 61
(2) Le passé de l'Afrique du nord, T. 2, p. 274.
(3) Histoire de l'Àfrique du Nord , p .20.

وقد نبّه Fournel إلى "إشارة في أحد أسطر النويري، حول فشل عقبة في محاولة ضد قرطاجة" لكن انفراد ذلك الكاتب بهذه المعلومة، كما لاحظ، جعله يسكت عنها، عند حديثه عن مآثر عقبة[1].

ويُعلّق نفس المؤلف على ما ذَكرتْه المصادر العربية " من أن حسانا، عند وصوله إلى القيروان سأل سكان البلاد عن أقوى حاكم(Souverain) بإفريقية فدلّوه على حاكم قرطاجة": "فيذكر أن الجواب كان، بالطبع جواب البربر لكنه كان بالإمكان أن يُنتسب إلى العرب الذين بقوا في إفريقية، مما يُمكّن من استنتاجِ أنّ الروم كانوا قد استعادوا بعض النفوذ ...."[2].

ويستأنف Fournel كلامه، حسب نفس المصادر، دائما، موضحا أن القائد العربي "راح دون أي تأجيل، يعسكر تحت أسوار هذه الحاضرة البيزنطية من إفريقية...، فاقتحمها واضطر السكان الذين أُجبروا على اللجوء داخل سفنهم للذهاب إلى صقلية وإسبانيا، وبمجرد ما ابتعد حسان انقض الأهالي (indigène) على المدينة التي طرد منها الروم، غير أن القائد العربي، سُرعان ما ظهر مرة أخرى، مع جيشه، وقام بهجوم عنيف واسترجع قرطاجة عنوة، وبعدما قام بمذبحة (massacre) حقيقية، في حق هؤلاء السّلاّب (pillards)، وبعدما نشر الرعب في كل الضواحي، حطّم المدينة عن آخرها"[3] ويلاحظ نفس المؤلف أن الوضوح ينقص المعلومات الواردة في المصادر العربية عن استرجاع حسان لقرطاجة ولكنّه يستنتج أنه حارب الأهالي (indigène)[4].

---

(1) les Berbères,T.2, p p.211-212..
(2) Ibid,T.2, p .211 note 6
(3) les Berbères,T.2, pp . 211- 212
(4) Ibid, p . 212. note2

إلا أن الجيش البيزنطي، حسب نفس المؤلف دائما، "لـم يُحطَّـم بكامله وأن البربر فَهِموا، ولا شك، أن مهيمنا أكثر قسـوة، ظهـر، لأن حسان سرعان ما علم باجتماع الروم و البربر في أرض صطفورة "[1] فسار إليهم وهزمهم شرّ هزيمة ثم "وكأن الأهالي (indigènes) تخلـوا، مرة أخرى، عن حُلفائهم، فهرب الروم، مرتعشين، إلـى باجـة، حيـث تحصنوا، في حين لجأ البربر إلى منطقة بونة (عنابة) التي بـدت لهـم جبالها أكثر تحصينا من أسوار باجة "[2].

ويستنتج Fournel من قول ابن عذاري: "إن حسان دخل عندئـذ القيروان ليستريح ويستريح جيشه" أنّ هذا يعني "أنّ الحملة كانت طويلـة وقاسية، ويستبعد فكرة الزحف المباشـر علـى الأوراس، كمـا يـزعم المؤرخون العرب، لإخفاء الفشل الذّريع الذي كان ينتظر حسان، فشـلٍ يقدّم لنا عنه المؤلفون (auteurs) البيزنطيون رواية، بالأحرى محتملـة، حتى أن تغييرا في حكم الإمبراطورية الإغريقية، بالنسبة إليهم، يـرتبط بالأحداث التي يتحدثون عنها.

وحسب هؤلاء المؤلفين فإنه بمجرد وصول خبر الاستيلاء علـى قرطاجة إلى القسطنطينية، جهّز (الإمبراطور) Léonce الـذي اعتلـى عرش الإمبراطورية سنة 76هـ/ 695م- 696م، كلّ أسـطوله وكلّـف

---

(1) – Ibid, p . 212. ويسجل Fournel أن " صطفورة هي اصطفورة عند ابن الأثير وشطفورة عند ياقوت الحموي، وصطفورة عند ابن عذاري وابن خلدون، وسطفورة عند ابن حوقل الذي يقول أنها المنطقة البحرية الشاسعة التي تضم ثلاث مدن، أقربها من تونس تسمى أنبلونة ثم تأتي باجة وبعدها بنرزت " ملاحظا أن باجة التي يوجد خط طولها على بُعد 45 دقيقة تقريبا، غرب خط طول بنرزت، توجد هنا بسبب خطأ في النّسْخ ثم إن الإدريسي في نقله لهذا المقطع يسمي المدن الثلاث أشلونة وتينجة و بنرزت ويسميها صفي الدين أنبلونة ومتيجة وبنرزت " (les Berbères,T.2, pp .212-213 , note3.

(2) les Berbères,T.2, p .113.

البطريق يوحنا (Jean) بقيادته، وقبل نهاية خريف 78 هـ، كان الجيش الإغريقي على مرأى من سواحل إفريقية: إذ يصور لنا Théophane وكل ناقليه، البطريقَ Jean وهو يحطّم السلسة التي تغلق الميناء، ويقتل الحامية التي تركها حسان بقرطاجة، ولم يكتف بالاستيلاء على العاصمة المسيحية بإفريقية لكنه استعاد كل المدن المحصنة، ويُجمِع المؤرخون البيزنطيون على القول بأن المنتصر قضى فصل الشتاء في قرطاجة، شتاء 78هـ/ 697- 698م، طبعا، لكن عند وصول خبر هذه الهزيمة إلى عبد الملك سارع بتجهيز أسطول أكبر من الأسطول الإغريقي، وفي سنة 79هـ، استرجع حسان بن النعمان، بفضل ما وصله من دعم، كل المدن التي احتلها الروم، الواحدة تلو الأخرى، واستولى للمرة الثانية على قرطاجة، وأجبر البطريق Jean على الفرار، مع بقايا أسطوله وجيشه، ويحتمل أن يكون الأسطول الشرقي (Sarrasine) أبحر في ربيع سنة 689م (الأشهر الأولى من سنة 79هـ)، وبالتالي يمكن التقرير أن حسانا سيطر، نهائيا، على قرطاجة حوالي منتصف سنة 698م (منتصف ربيع الآخرة 79هـ) ... وضاعت إفريقية نهائيا من بيزنطة، لكن سيطرة العرب عليها كانت بعيدة التحقيق، رغم الثقة التي أَوْحَت لهم بها النجاحات الحديثة، على ما يبدو، فهم لم يَهزموا حتى ذلك الوقت، سوى محتلين (conquérants)، متوتّري الأعصاب، بسبب انحطاط الوطن الأم، وبقي عليهم أن ينتصروا على المقاومة الحقيقية، مقاومة السكان المتجذرين في الأرض، وكان باستطاعتهم، منذ ذلك الحين، تقدير مدى طاقة هذه المقاومة، خاصة وأنه سبق لهم أنْ اختبروا أنفسهم مع البربر حيث لقنهم كسيلة، قبل خمس عشر سنة، أن الأهالي لا ينقصهم القادة القادرين على قيادتهم إلى الانتصار: غير أن ثقتهم الكبيرة بأقدار

إمبراطورية الهلال، وحِرمَانهم من معرفة عادة الصراعات العنيفة التـــي خاضتها، من قبل تلك القبائل المحاربة، ضد سادة العالم، جعلهم يعتقدون، لوقت وجيز، أن طرد الإغريق نهائيا له بُعْدٌ، لكن المستقبل، والمســتقبل القريب سَينْتزع منهم كلّ وَهْم. لقد كان لكسيلة، الذي ذَكّرهُ باســمه قبــل قليل، خَلَفٌ وهذا الخلف كان اِمرأة، الكاهنة ملكة الأوراس..."[1].

ويقرّ Caudel بشيء، يقول إنه " مؤكّد جــدا(trop certain)، وهو أنه لا يعرف، بالضبط، في أي تاريخ هاجم حسّان بن النعمان الروم ... فالمؤرخون يقدمون الحدث تحت نفس المظهر، وقد يكــون حســان، حسب ما قالوا، هاجم مباشرة الروم، إنها خطة (tactique) جديدة، لقــد رأينا العرب حتى الآن، ينهبون مزاق (Byzacium) بسهولة، تقريبــا، ويصعدون حتى الموريطانيتين، ويذهبون بعيدا جدا نحو الغرب أحيانــا، لكن لم نرهم يصعدون نحو الشمال إلاّ نادرا: فاللِّيمس البيزنطــي كــان يقطع عليهم الطريق، فهل كان حاجزا جديا ؟ ليس باستطاعتنا الحكم على ذلك بسهولة، والأكثر احتمالا أن القبائل البربرية كانت، حتى ذلك الوقت، بمثابة فِراش واق للأملاك البيزنطية، فعليها أُنهكت حِدّة حــرب العــرب الذين وَجد تعطّشهم إلى النهب، ما يُشبع رغبتهم فــي منطقــة إفريقيــة الجنوبية، وقد أرشدتهم الضربات المأخوذة و الغنيمة المُجمّعة، إلى البقاء هناك، وهذه المرة، تغيرت الظروف: فالجيوش الإسلامية سيطرت على مُزاق (Byzacène) وانتهت من إِنهاكها، ولم يعد هناك على ما يبــدو، خوف من البربر، في حين كثرت التقارير عن ثروة الولاية البيزنطيــة (proconsulaire). فإن أراد العربي المزيد من النهب، فعليه الــذهاب

(1) Les Berbères,T.2, p .113sq

بعيدا واجتياز خط الليمس، والهجوم على الروم، وهاهو يحـاول انجـاز المشروع مع حسان الذي انتقل، من أول وهلة، تحت أسوار قرطاجـة، فكيف اجتاز خط المواقع الحدودية (le limes)؟ لا نعرف شيئا عن ذلك، ولم تخطر ببال المؤرخين (auteurs) أية صعوبة في هذا الجانـب ... وقد سبق لأبي المهاجر دينار، وحده، أن حـاول القيـام بحملـة نحـو الشمـال، حوالي سنة 55هـ، والذي مكنـه من القيام بزحف جـريء كهذا هو التحالف الذي عقده مع البربر، ونعرف أن نجاحه كـان نسـبيا جدا، إلا أنه، على الأقل، يُفسّر محاولة حسـان ويثبـت لنـا أن الخـط الحدودي لم يكن ممتنعا. وقد لاحظ المؤرخون العرب أن حسانا دُلّ على أكبر أُمراء إفريقية ـ في شخص سـيّد (maître) قرطاجنـة، بمعنـى الأكزرخ (l'exarque) الإغريقي الذي كان يحكمها لحساب الإمبراطور، وهم في هذا متفقون تماما مع المؤلفين المسيحيين، وأقوال هؤلاء وأولئك غامضة ..."[1].

وبعدما ذكّر Caudel برقم 6000 رجل الذين وصلوا حسان، مع (تعيينه على) ولاية إفريقية، حسب المالكي الذي لم يُضف شيئا إلى هذه المعلومات، وبالأربعين ألف التي كانت أعظم جيش وصل إفريقية،حسب ابن عذاري، وبعد استعراضه لنصي: المالكي وابن الناجي الذيْن تحـدثا عن حملة حسان على قرطاجة، لاحظ أن السيد Fournel اعتمد على ابن عذاري لتقديم رواية مختلفة تماما عـن تحطـيم قرطاجـة، مضـيفا أن صاحب كتاب البربر (l'auteur des Berbères) " يبحث عـن مقابلـة روايات العرب بتقارير الإغريق، وعلى العكس من ذلك فإنه ليس هناك

(1) Les premières invasions arabes, p.153 sq.

ما هو أسهل من التوفيق بينهما، كما سيتبين لاحقا. ولنلاحظ، ببساطة، أن استعادة حسان لقرطاجة هو أمر مكتسب ... وأن تلك الاستعادة كانت من سكان الضواحي، الذين يتحدث عنهم السيد Fournel، وإنْ وافقنا على رواية البيان، فهي بمثابة عملية بوليسية، على أكثر تقدير، وليست عمل حرب" [1].

وبعدما استعرض Caudel نصّ المالكي عن أحداث صطفورة، ولاحظ أن نص ابن الناجي لا يختلف عنه، راح يستنتج أن " العرض الذي يقدمه لنا المؤرخون العرب عن هذه الحملة ينسجم، بدون عناء، مع الذي يقدمه المؤرخون المسيحيون الذين ينقل لنا السيد Diehl روايتهم: "لقد اتبع القائد المسلم، آنذاك، طريق الساحل، متغاضيا عن أهالي الأوراس، ومستوليا على المواقع الموجودة في طريقه، الواحدة تلو الأخرى، وفي حوالي 695م. (76هـ) ظهر، ولاشك، تحت أسوار قرطاجة، فحاول الاكزرخ (l'exarque) عبثا، خوض معركة أمام المدينة فأُلقي به في الموقع، وبعد هجوم عنيف، سقطت عاصمة إفريقية البيزنطية بأيدي المسلمين، وتمكّن بعض السكان من الإبحار واللجوء إلى جزر الساحل المجاورة، بصقلية وحتى في الممتلكات التي بقيت الإمبراطورية تحتفظ بها في أقصى الغرب، وقُتل أو استُرقّ الباقون، وتجمعت بقايا الجيش الإغريقي، شمال وغرب قرطاجة، في منطقة بنزرت وفي حماية (à l'abri) جدران باجة (Vaga)القوية؛ أما حسان فبعدما تُرك فيما غزاه (sa conquête)، التفت إلى البربر" [2].

---

(1) Les premières invasions arabes, pp.158-159.
(2) Ibid, p.159

ويلاحظ caudel) أنّها نفس الأحداث وأنّ الأهّم ربما، أنه نفس التاريخ: كُنّا قَد تردّدنا، قبيل الآن، بين التواريخ الثلاثة 74و76 أو 78 هـ/ 693- 695 أو 697م لتحديد سنة عزو حسان للولاية البيزنطية (proconsulaire)، بدقة، ويبدو أن المسحيين أشاروا إلى سنة 76، دون تأكيد أي شيء، وهي السنة التي نتبناها، مع ضم شكوكنا إلى شكوكهم، دون تدقيق أكبر. ويمضبي نفس المؤلف في كلامه قائلا: " قد يكون العرب وجدوا صعوبة كبيرة، في الحملة على الولاية البيزنطية، لأن المؤرخين يجمعون على تسجيل دخول حسان إلى القيروان بعد هزيمة الروم والبربر بصطفورة، لإعادة تنظيم جيشه... ولم تكن نتائج الحملة باهرة، كما يمكن افتراضه في البداية، وقد يكون سقوط قرطاجة أَحدَث، بطبيعة الحال انطباعا كبيرا جدا، في كامل إفريقيا الشمالية لكنه لم يُتْبع بخضوع البلاد المطلق: إذ نرى سكان الأرياف يستجيبون لإندار حسان لكن باجة (Vaga) بقيت تقاوم، وقلّدتها، ولا شك، مواقع أخرى في المنطقة، دون أن تتمكن حامياتها الضعيفة من إقلاق الأمير كثيرا، فاكتفى بنصف نجاح وأعاد تنظيم جيشه المنهك في القيروان، وبمجرد أن دخل خَلْوَته، سمع الحديث عن قوة جديدة تهدد توسعه (conquête): إنها أميرة، من قبيلة جراوة، لم يصلنا اسمها، ويُطلق عليها العرب تسمية الكاهنة "[1].

وبالنسبة لـ .Mercier E فإن حسانا "عند حلوله بإفريقية استولى، أولا، على المواقع المحصنة، حيث توجد بعض القوات الإغريقية ثم سار إلى الأوراس حيث كانت الكاهنة"[2] .

(1) Caudel: op. cit., pp.159-160
(2) Histoire de l'établissement des arabes, p. 61.

ويقول .Marçais G: إن حسان، بعد وصوله إلى القيران " بـدأ بالسّير إلى البيزنطيين. وقد مكّنته قواته – ...– من إخضـاع المواقـع الشمالية للمقاطعة (Province)، دون عناء كبير، ودارت معركة بالقرب من قرطاجة التي دخلها العرب منتصرين، وهكذا بدا أن الجُهـد، الـذي شُرع فيه قبل ذلك بثمانٍ وأربعين سنة، قد تُوّج، إلاّ أن ذلك كـان بعيـد التحقيق، إذ بقي، قبل كل شيء، إخضاع البربر[1]".

ويذكر .Terrasse H أن حسّان بن النعمان الذي قاد جيشا هاما، من أربعين ألف رجل ودخل البلاد التونسية " غير الخطـة (التكتيـك)، حيث سار مباشرة إلى قرطاجة التي كانت، حسب المصادر القديمة، في حالة انحطاط كبير و التي تم الاستيلاء عليها بالقوة، وحسب المصـادر البيزنطية فإن الامبراطور L éontios، جهز أسطولا استرجع المدينـة سنة 697، لكن البربر ثاروا من جديد، وهذه المرة بقيادة امرأة، الكاهنة، من جراوة الأوراس"[2] مع ملاحظة أن Terrasse لم يُبـيّن مـا هـي المصادر العربية أو البيزنطية التي اعتمد عليها في كلامه.

وحسب محمد طالبي فإن حسان " بعد اسـتيلائه علـى قرطاجـة وتخريبها ولجوء سكانها إلى صقلية، لاحق الروم وحلفاءهم البربر فـي منطقة بنزرت، فهزمهم من جديد ورمى بالأوائل إلى باجة (Vaga)...، وبعد استراحة بالقيروان، زحف على الكاهنة "[3].

ويسجل (.Gh. A) Julien أن " الوالي حسـان بـن النعمـان الغسّاني دشّن، في الواقع طُرقًا (méthodes) جديدة، فبدأ بالقضاء على

---

(1) La Berbérie Musulmane et l'orient p.34.
(2) Histoire du Maroc ,T.1, p.83.
(3) E. I., n^{elle} éd., leyde – Paris 1990, T,III, art. Hassan B.Al-Numan al-ghassani ,p.279.

الخطر البيزنطي، بالاستيلاء على قرطاجة بالقوة سنة 695، ولم يكن الإحساس بالصدمة في القسطنطينية أقل من ذلك الذي تركه نجاح Genséric (الوندالي)، وقد يكون الإمبراطور Léontios جهّز أسطولا نجح، لحسن الحظ، من استرجاع المدينة، وفي غضون ذلك التفَتَ حسّان إلى بربر الأوراس، ويقال: إنّه علِمَ أن ملكة (reine) قوية تسمى الكاهنة كانت تحكمهم ..."(1).

ويعتبر H. Fournel الكاهنة خلفاً لكُسيْلَة، واسم الكاهنة لقب يعني أيضا العرّافة ... ويزعم ابن خلدون أن اسمها الحقيقي كان دَهْيَة: لكن معنى هذه الكلمة هو " الماكرة " ويبدو أنه ليس سوى لقب لملكة الأوراس، ويسميها القيرواني دمية ويكتبها غيره ذاميّه، لكن بطبيعة الحال، فإن اسم دهيّة هو الذي كُتب خطأ دُميه، لان أحد مخطوطات الإدريسي يقدم هذا المغْزَى الخاطئ بالنسبة لدُهية. وفي حالة تعذّر إعطاء اسمها الحقيقي، سأطلق عليها تسمية الكاهنة التي يطلقها الكتاب عندما يتحدثون عن هذه المرأة ... "(2).

والكاهنة هي ملكة الأوراس، حسب نفس المؤلف الذي يقتبس عن ابن عذاري قوله "وكان جميع روم إفريقية يخشوها وجميع البربر يطيعونها" ملاحظا أنه " كان بإمكان شهادة المؤرخين العرب الجماعية أن تُنّبه Lebeau كي يتفادى تقييمه الغريب للمشهد الذي كانت هذه المرأة بَطلَتَه، وهو يضيف إلى الشك الذي يطغى على تواريخ الأحداث التي وقعت في تلك الفترة ... تَهكّما بَدَا له، ولا شك، سِمَةً من النقد الفلسفي الرفيع، والذي أخطأ تماما في جعله يقوم على أُسس صلبة قائلا:" إنّ

---

(1) Histoire de l'Afrique du Nord ,T.2, pp .20-21.
(2) les Berbères,T.2, p .215, note 1

المؤرخين العرب الميـــاليين (Partisans) للعجيـــب (merveilleux)، ألبسوا تاريخ الثورة (التي نقلت حاضرة إفريقية من أيادي البيزنطيين إلى (أيادي العرب) بظروف خيالية لقد " كانت (الكاهنة) حســـب روايـــاتهم، ملكة للبربر تحدّث أولا، العرب ...وبناءا على الانتقادات الأكثر تبصّرا، فإن هذه البطلة هي البطريق يوحنا (Jean) ذاته، الذي جعله المؤرخـــون العرب متنكرا في شكل امرأة، لأنه كـــان خصـــيا (eunuque)" ويَـــرُدُّ القديس مارتين (Saint Martin) هذا التخمين، في هـــامش لـــه، إلـــى الأكاديمي Otter، وعندما عُدْتُ إلى الصفحة المشار إليهـــا مـــن عمـــل Otter قرأت العكس بالضبط[1].

إذ قال Otter: "... إن Nicéphore لا يتفق مع النويري لكـــن المؤرخ العربي يستحق هنا، مصداقية أكبر من المؤلف الإغريقـــي، لأن هذا الأخير يُسند مآثر الأميرة الكاهنة إلى البطريـــق Jean، احتقـــارا"[2] وهنا توجد" بصمة الغموض الذي أظن أنني تمكنت من إزالته، باقتبـــاس استعادة الإغريق لقرطاجة من المؤرخين البيزنطيين، وهو حـــدث هـــام سكتت عنه التواريخ العربية، والواقـــع أن Nicéphore لا يســـند إلـــى البطريق Jean سوى ماله فهو يقول: إن هذا القائد الماهر هَزم حســـان بن النعمان، وأضاف أن حسانا، بعد تلقيه إمدادات، ثأَرَ لنفســـه وطـــرد الإغريق من إفريقية، وهنا ... يسكت عن الأحداث اللاّحقة ... لكن تلك الأحداث اللاّحقة، بالنسبة لـــ Otter مثلما هي بالنسبة لكل الذين جعلـــوا وقوع الحملة ضد الكاهنة، بعد الاستيلاء الأول على قرطاجة مباشـــرة، أحداث متزامنة تقريبا، وهنا يمكن الغموض"[3].

---

(1) Les Berbères, T. 2, pp.215-216.
(2) Ibid, p.216, note, 3.
(3) Les Berbères, T. 2, p.216, note, 3.

وبعدما ذكّر Fournel بما قاله، من أن الكاهنة كانت تحكـم فـي الأوراس، وأن "عائلتها من جراوة، وهي قبيلة يهودية كانت، كما يؤكـد ابن خلدون، تُزوّد جميع البربر بملوك ورؤساء منحدرين من الابتـر"[1] راح يستعرض ما وقع بينها وبين حسان بن النعمان من أحـداث، كمـا وردت في المصادر العربية، منذ بداية زحف كل منهما نحو الآخر[2] مع قيامه، أحيانا، بتعاليق حول بعض الروايات كما فعـل بالنسـبة لروايـة الرقيق القيرواني التي تفيد أن الكاهنة كانت على رأس جيش عظيم مـن البربر والروم (Grecs)[3] حيث ذكر أن "الروم الباقين بإفريقية والذين لم يكونوا من المعمّرين، ولا مِن الحضر (citadins) لم يبـق بهـم، مـن وسيلة، إلا الانضمام إلى البربر والسّير تحت لواء الكاهنة، كما سبق لهم وأن ساروا تحت لواء كسيلة"[4].

وفي شأن مكان توقف حسّان، بعد هزيمته، يشير Fournel إلـى أن "بعض المؤلفين (auteur) يقولون إنه حدث في أرض برقة وآخرين يقولون في برقة نفسها، وابن خلدون يقولّ" في مقاطعة طرابلس" وهذا، بالطبع خطأ، لأن اليعقوبي أخبرنا أن تاورغه آخر نـواحي (localité) مقاطعة برقة، وهي تقـع، حسـب الإدريسـي، علـى بعـد 65 ميـل (33 فرسخ) غرب قصور حسان، ... فهذه الأخيرة كانت إذًا، موجـودة بالفعل على الأراضي التابعة لولاية برقة "[5].

وعن تسمية الأسير العربي الذي تبنته الكاهنة يرى المؤلف الأخير "أن البكري يسمى هذه الشخصية (Personnage) يزيد بن خالد، علـى

---

(1)les Berbères T2, p .217.
(2) Id.
(3) Ibid, p. 118
(4) Ibid, p.118, note2
(5) Ibid, T. 2, p.220, note1.

إثر خطأ في النسخ، لأن كلاً من ابن عذاري والنُّويْري وابن خلدون يطلقون عليه خالد ابن يزيد القيسي، ويسميه القيرواني خالد فقط، وكُتب في مولى أحمد خالد العباسي"[1].

ويذهب Caudel إلى القول إنّ الكاهنة "جمعت حولها قبائل أهالي موريطانيا والسكان اللاّتين الذين تركتهم هزيمة الإكزرخ بدون حكام (maîtres)، وبدون مدافعين"[2] ثم يستنتج، من قول ابن الأثير "إن البربر أحاطوا بها، بعد موت كسيلة"، أنها " قد تكون أقامت إمبراطوريتها على أنقاض إمبراطورية كسيلة، وبهذه الطريقة أسست إمبراطورية تشبه الإمبراطورية التي شيّدها كسيلة قبل قليل، في كل شيء، إذ نرى وِلاَدة أحداث متطابقة تحت تأثير نفس الظروف: تقترب القبائل البربرية من بعضها، تحت تهديد العربي، وتوثّق وَحْدتها، وتبحث لها عن قائد وقد وَجَدت، في المرّة الأولى، الحاكم الإغريقي جرجير... فجرّها إلى هزيمة، وسرعان ما تمالكت نفسها ثانية واختارت أميرا من جنسها، هو كسيلة الذي تقاسمت معه النجاح والفشل النهائي، واتخذت هذه المرة امرأة رئيسة. والحدث لا ينبغي أن يُدهش لأن المرأة لدى البربر كانت لها، في المجتمعين السياسي والمدني، مكانة رفيعة تمكنّها، عند اللزوم، من الصعود إلى الصف الأول، ولم نعثر كذلك على أدنى أثر للعجيب الذي يُلصقه بها المؤلفون، لقد شرح السيد Fournel بطريقة جيدة جدا، أن مَلَكَة الكاهنة كانت من خصائص النساء عند البدو (Les maures) وأن اللاّئي كانت لهنّ موهبتها يَنَلْنَ شرفا كبيرا وسلطة كبرى"[3].

---

(1) Les Berbères, T. 2, p.220, note 5.
(2) Les premières invasions arabes, p.160.
(3) Caudel: op.cit, pp . 160- 161.

وبعد اقتباس Caudel لنص المالكي الذي تحدث فيه عن استراتيجية حسّان في القيروان، إثر حملته على قرطاجة، وإشارته إلى اتفاقه فيما قاله، مع مصادر أخرى، يستخلص أن " تسلسل الأحداث ينتظم جيّدا: لقد جاء حسان إلى إفريقية لاسترجاع أعمال العرب المهددة منذ كارثة برقة، فوجد بالقيروان سكانا وحامية إسلامية، تركها فيها زهير، وعند تلقّيه إمدادات من الخليفة، في تاريخ لا نستطيع تحديده، يُحتمَل أن يكون سنة 76هـ/ 695م، زحف على الممتلكات الإغريقية ... وعند تحطيم القوة البيزنطية التي كانت تهدده عن قرب، التفت إلى البربر الذين كانوا ينظّمون أنفسهم، بعيدا عنه، على الهضبة الموريطانية "[1].

ويلاحظ Caudel، في شأن التفاصيل التي قدمتها المصادر عن حملة حسان ضد الكاهنة، أنها لا تختلف عن بعضها بدرجة محسوسة، لكنه وجد أن ابن الأثير يكتب باغاي (Baghai) بطريقة مختلفة ويسميها بغاية، غير أنه يختار تسمية باغاي التي أطلقها عليها المالكي، لأنها أكثر تطابقا مع التسمية اللاتينية (Bagai)، وكانت موقعا محصنا تابعا للمنظومة الدفاعية التي جدّدها البيزنطيون، وأن المالكي عندما يتحدث عن وادي مكناس يُحتمل أنه يعني بهذا الاسم، المغيَّر بسبب خطأ في النسخ، وادٍ يذكره الإخباريون الآخرون، بمناسبة هذه الحملة، هو وادي مسكيانة، والواقع أن حسانا يمر بوادي مسكيانة لكي ينتقل من القيروان نحو الهضبة[2].

وعلى العموم، كما يضيف Caudel، " ليس هناك ما هو أسهل من إعادة تشكيل حملة حسان بن النعمان: إذْ انطلق من القيروان ليصعد

(1) Les premières invasions arabes, pp.161-162
(2) Ibid, pp . 167- 168

وَادي نَهْر فكة (Fekka) ويسمى في مجــراه الأعلـــى وادي الحَطَــب (Hatob) الذي أوصله، عن طريق مجانه (Vegesala)، إلى تبسة التي تبعد عنها بثماني فراسخ، في وادي ملاّق (Mellègue) الأعلى حيــث مر، بدون عناء، إلى الهضبة المرتفعة التي يسقيها وادي نينـــي (Nini) وفيها انتهت الحملة(1).

وفي اعتقاد Caudel أن "هزيمة حسّان تُذكّر بهزيمة عقبة وهي، في الواقع، أخطر، لأن عقبة كان قد وقع في كمين، وقُتل مع عدد قليـــل من مرافقيه لكن أغلب الجيش لم يعان، إذ تولى زهير بن قيس القيـــادة، وتمكن من تنظيم الانسحاب إلى برقة، ولم يُثْبِت نجاح كسيلة، من جهته، أي تفوق تكتيكي، ولم يستطع البربر، بعد تَهُودَة الافتخار بأنهم ســحقوا أعداءهم وأجبروهم على الفرار. والأمر يختلف بعد معركـــة واد نينـــي، فلأوّل مرة يتمكن جيش من الأهالي من تلقّي صدمة جيش عربـــي، دون أن يضعف بل على العكس من ذلك، صَمَد أمامه وصَدّه بقوة، فتحولـــت هزيمة المسلمين إلى فوضى أخذت معها كل شـــيء، وهـــرب الأميـــر والجيش معا ... فالعربي المطارد، من كل جهة، والمحاط بالسكان الذين ثاروا ضده، بمجرد ما وصلهم أول خبر لهزيمته، لم يعد يفكر سوى في الهروب..(2).

ويُفنّد Caudel قول المالكي: "إنّ الكاهنة حكمت إفريقية بكاملهـــا "بحُجة أن هذا المؤلف" نسي، في بلبلة الهزيمة، أن الإغريق عادوا إلـــى قرطاجة، حيث أن خبر الاستيلاء عليها أثر كثيرا على بيزنطة، فأرســـل الإمبراطور Léontios، الذي تولى العرش سنة 695م/ 76هـــ، أسطولا

(1) Caudel: Op. cit., p.168.
(2) Ibid, pp. 168- 169.

معتبرا ضد العرب، بقيادة البطريق يوحنـــا (Jean)... فـــاقتحم مـــدخل الميناء، وطرد الحامية العربية، واستعاد المدينة وقد نجح البطريق فـــي تحقيق أكثر من ذلك: "انتزع من أيدي الكفـــار (infidèle)، كمـــا قـــال البطريارك (Patriarche) نقفور (Nicéphore)، كـــل قـــلاع الـــبلاد، ونصّب حاميات كثيرة للدفاع عنها " وبعد تخليص إفريقية هكـــذا، عـــاد ليقضي فصل الشتاء بقرطاجة، ويضيف Diehl أن الكاهنة كانـــت قـــد هزمت حسانا، في ذلك الوقت الذي استولى فيه البطريق على قرطاجة، وأنا اعتقد، على العكس من ذلك، أن معركة وادي نيني يمكن تحديـــدها، دون صعوبة، بتاريخ سابق: فقرطاجة كانت قد سقطت تحـــت ضـــربات الأمير (l'émir) حوالي 695م./76هـــ، وليس لدينا تاريخ مضبوط لكن هذا ينسجم تماما مع التواريخ الأكثر غموضا التي يحدد بها المؤرخـــون العرب حملة حسان، مُضيفين أنه لم يأخذ سوى وقت إعادة تنظيم جيشـــه بالقيروان لينطلق إلى الأوراس، سنة 77هـــ/ 696م، ونحن نعلم أنه، بعد هزيمته التحق في سرعة كبيرة، ببرقة، وقد يكون اجتاز حدود قابس قبل نهاية العام"[1].

ويوجه Caudel انتقاداته للنظرية التي يقدمها "الســـيد Fournel" عن حملة حسان الأولى قائلا" إن صاحب كتاب البربر، في الواقع، يرتب أحداث هذه الفترة من التاريخ الإفريقي على نسق خاص، يختلف تمامـــا، عما تبناه المؤرخون العرب، وكتاب الغرب المحدثون"[2]، والواقـــع، "أن هذا الكاتب لا يبحث فقط، في هذا الظرف الخاص، عـــن حـــلّ مشـــكل تسلسل الأحداث، وإنما يؤيد، في آن واحد، القضية البربرية التـــي ألـــف

(1) Les premiers invasions arabes, pp, 169- 170.
(2) Ibid, p.162.

كتابه من أجلها، فالنظرية العامة، مع الأسف، تطغى على حل مسألة المؤلف الأولى، فأصبح يبيع، وهو يتشبث بالدفاع عنها، الحقائق التاريخية التي تزودنا بها المصادر، بثمن رخيص، ولنرى، أولا، مسألة تسلسل الأحداث، هناك تاريخان فرضا نفسيها على السيد Fournel: تاريخ استعادة الإغريق لقرطاجة وتاريخ استيلاء العرب، نهائيا، على تلك الحاضرة، وقد حددهما المؤلفون المسيحيون، وهو يعتبرهما، بحق صحيحين: فالبطريق Jean استعاد قرطاجة سنة 697م (78هـ)، وفقدها سنة 698م (79هـ)، وبتبنّي سنة 77هـ/ 696م كتاريخ لدخول حسان إفريقية، يعطي السيد Fournel الأمير (l'émir) وقتا للاستيلاء على قرطاجة، مرة أولى فقط، فقد جعله يكرس كل جهده للإغريق، ويحتفظ (réserve) بالبربر إلى ما بعد، وهنا تبدأ النظرية ... قد يكون المؤرخون العرب، في رأيه، سيّروا مباشرة حسان إلى الأوراس " لإخفاء الفشل الذي كان ينتظره" (بعد قرطاجة) لكنهم قادوه إلى نكبة أخرى لم يخفوها ! سنرى قريبا أنهم يسجلون (constatent)، بصراحة كبيرة، هزيمة وادي نيني، ويعترفون أن الأمير تكبّد شرّ هزيمة ... حقيقة أن الإخباريين لا يُلحّون على استعادة الإغريق لقرطاجة، ولا يلاحظون ذلك إلا ضمنيا، فيما بعد، عندما بيّنوا لنا كيف استعادها حسّان، وهاهو بالضبط، ما يجعل رواية ذات منطق قوي: ففي الوقت الذي ضيّع فيه الجيش العربي كامل إفريقية، في يوم واحد، بعد نكسة شنيعة، أصبح استسلام قرطاجة للبيزنطي حدثا ثانويا ينبثق، بطبيعة الحال، عن الحدث السابق، ولا يستحق إشارة خاصة، وفي نظرية (Système) السيد Fournel فإن سَهْو الإخباريين، على العكس من ذلك، لا يقبل العذر، ومنطقه هو الأضعف عندما يُبرز لنا بَطريقًا إغريقيا يأخذ من حسان الأراضي التي

توسع فيها (ses conquêtes) حديثا، رغم أنفه، دون أن يحاول هذا الأخير منعه. والنظرية (thèse) تنمو: فبيزنطة هُزمت لكن "سيطرة العرب على إفريقية ما تزال بعيدة " وعلى العكس من ذلك، يبدو لي أنهم اقتربوا من تلك السيطرة، إنها مسألة سنوات وسيخبرنا بذلك السيد Fournel نفسه، بعد عشر صفحات: "في سنة 84 تمّ احتلال إفريقية" لكن لا، بقي عليهم "أن يهزموا المقاومة الحقيقية" التي لم يعرفوا "تقدير طاقتها" مسبقا. يستطيعون الاعتقاد أن طرد الاغريق نهائيا "له بُعْدٌ يكون على المستقبل ... ان ينتزع منهم كلّ وَهْم في شأنه". لا يوجد في المصادر العربية أدنى أثر لوَهْمٍ ما، يكون جنود حسّان قد تصورُوه في موضوع الاستيلاء على قرطاجة ... وهذا مفهومٌ في حدّ ذاته: فبالنسبة لنا نحن الغربيين، مثلما هو الأمر بالنسبة لبيزنطيي القرن السابع (الميلادي)، كِلاَنا مشبّع بالآداب (lettres) اللاّتينية، ومملوء بالذكريات العظيمة لقرطاجة القديمة، وسقوط هذه المدينة يستحضر عالما من الأفكار، لقد أثرت علينا كثيرا، وتركت انطباعا أليما في العالم المسيحي، آنذاك؛ وبالنسبة للعرب فإن قرطاجنة (Qartadjinah) هي مدينة كغيرها، ليست أجمل ولا أغنى من دمشق أو الإسكندرية أو الفسطاط، وقد أدهشهم زوال الروم قليلا: فالإخباريون لم يتوقفوا، أكثر عند هذا الحدث ... ويبدو أن العرب، بعيدا عن تشييد أوهام كبيرة، في طردٍ (expulsion) لم يقوموا به، رأوا فيه رحيلا سريا، حرمهم من مكسب جميل، وعلى عكس ما يدافع عنه السيد Fournel تماما، فإن المحتلين انشغلوا دائما بالبربر، ومقاطع المؤرخين الكثيرة التي استشهدْتُ بها تُثبت ذلك، فالرومي نادرا ما قَدِم، بعد موت جرجير، إلا كمساعد للأهلي (indigènes).... ومع الأسف، فإن صاحب كتاب البربر (l'auteur des Berbères) الذي جرّته حماسة البرهنة، لم

يُورد رؤية ما يَعرِضه المؤلفون العرب بكل بساطة ووضوح: الفكرة التي كانت لإخوانهم عن الروم و البربر، ومآل الأحداث (Suite des faits)"[1].

ويكتفي Mercier E. بالقول: إن حسانا بعدما قضى على المواقع المحصنة، سار إلى الأوراس "حيث كانت الكاهنة المحاطة بمجموعات غفيرة من البربر تستعد للمقاومة، فنشبت معركة كبيرة على ضفاف نهر مسكيانه كان النصر فيها عكس المنتظر، لصالح البربر ومَلكتِهم وقد يكون حسان هرب، مع شَتات جيشه، إلى ما بعد قابس أمام ملاحقة الأهالي المنتصرين"[2].

وقد جرّ الحديثُ عن الكاهنة Gautier (E.F.) إلى الحديث عن قبيلة جراوة، انطلاقا من اعتقاده أن "موت كسيلة نتج عنه انتقال الرئاسة (primauté) (في البربر) إلى قبيلة أُوراسية أخرى، هي قبيلة جروواة التي كانت تسيطر على الأوراس الشرقي" ملاحظا" أنّ المغرب احتفظ إذًا، بالنوميديين على رأسه " وحتى الخصوصية الأوراسية لجرواة مؤكدة أكثر من خصوصية أوربة " فابن خلدون يحدّد بصراحة موقع جراوة في الأوراس، ويختلف هؤلاء تماما عن أوربة: فهم ليسوا برانس، وإنما هم بتر، زناتيون ... ليسوا مسيحيين كأوربة، لكنهم يهود، وبطبيعة الحال فإنهم على العكس من أوربة، رحالة، جمالون كبار، أقحاح تقريبا، قادمون جدد، دخلاء على المغرب، ليس لهم مثل أوربة، شَراكة نسبية قديمة، في المصالح والأفكار، مع اللاّتينية والمسيحية، منفصلون بعمق عن إفريقية القديمة، بحكم ماضيهم وطريقة معيشتهم، وهؤلاء هم الذين

(1) Les premières invasions arabes, p.163 Sqq.
(2) Histoire de l'établissement des arabes, pp. 61- 62.

أصبحوا رؤساء، حاملين لواء المغرب بكامله إنه موضوع ذو بعد كبير (في رأي Gautier) لم يلق بعد اهتماما"[1].

ومن هنا يتطرق هذا الأخير للحديث عن الكاهنة ذاتها قائلا:" لقد عاد التاج هذه المرة، إلى امرأة، عرفت في التاريخ باسم الكاهنة، والمرأة التي تحكم الرجال، في المجتمع البربري، لها بالضرورة خاصية مقدسة، شيء من الكهانة (Quelques chose du Marabout)، وكلمة الكاهنة تعني، الساحرة، القديسة، ولها هذا المعنى في اللغات الثلاث: العربية والعبرية والبونية"[2].

ويميل Gautier إلى اعتقاد أن الأصل العبري هو الأصح، اعتمادا على قول ابن خلدون "ومن بين البربر اليهود، اشتهرت جروة ..." كما يقتبس من المؤرخ الأخير قوله "وكانت لها معارف خارقة للعادة يأتيها بها الشياطين المترددون عليها" ممّا جعلها، ولاشك (في رأيه) امرأة لافتة للنظر، حققت نجاحات كثيرة[3].

وفي رأي نفس المؤلف فإن حسانا، بعد تحطيمه التحالف الموجود بين الروم والبربر، باستيلائه على قرطاجة لم يحصل على النتائج المرجوة، مادامت الكاهنة هزمته، بعد ذلك بقليل، وأجبرته على مغادرة إفريقية[4] عند قيادته الهجوم العربي الجديد سنة 69هـ/ 688- 689م، وكان حسان بن النعمان الغساني واليا لمصر، وعندما زحف عليها، توقف على ضفة نهر مسكيانة، شمال الأوراس فقادت الكاهنة جيشها ضد المسلمين وشنت عليهم هجوما ضاريا، أجبرتهم فيه على الفرار، بعدما

(1) le passé de l'Afrique du Nord, pp. 270- 271.
(2) Ibid, p. 271.
(3) Id.
(4) Ibid, p. 274.

قتلت لهم كثيرا من الناس ولم تُضيّع أي وقــت فـــي ملاحقـــة العـــرب، وبإخراجهم من أرض قابس أجبرت قائدهم على اللّجوء إلـــى مقاطعـــة طرابلس، وهناك فقط تمكن حسان من السيطرة على الوضع، في حِمَـــى الخطوط المحصنة التي تسمى قصور حسان إلـــى اليـــوم[1]. والكاهنـــة بالنسبة للجنرال Brémond هي " امرأة من عائلة كبيرة، ديمنيـــة ابنـــة ثابت (dimnia bent tabet) الملقبة بالكاهنة (كاهنة، ساحرة، كـــوهين) أو الداهية (la Dahia) (الملكة)، ملكة قبيلـــة جـــزاوة (djezaoua) أو جراوة اليهودية، استولت على حكم البربر، وكانت عاصمتها بغاية قصر باغاي"[2].

وفي تقدير Marçais G. أن حســـانا، بعـــد إخضـــاعه المواقـــع الشمالية (البيزنطية)، بقي عليه إخضاع البربر الذين " تجمعوا، بعد موت كسيلة تحت قيادة امرأة أو بالأحرى، فإن قبيلة جراوة التي كانت تحـــت سيطرتها، أصبحت قطب اجتذاب لقوات المقاومة، وكان الأوراس يقف كالقلعة حيث تنتظم فيها تلك القوات ... وإذا كان هناك شك في أن الخيال الشعبي أغنى تاريخها بحلقة كاملة من الأساطير، فإن ذلك لا يعني أن كل ما قيل فيها يُستغنى عنه، إن إسناد القيادة إلى امرأة، في قبيلـــة بربريـــة ليس أمرا شاذا، وتبدو حقيقة انتمائها، مثل أقاربها، إلى الديانة اليهوديـــة، مؤكدة من ابن خلدون، مع أنه مشكوك فيها، مما يستدعي التدقيق. وفيما يخص موهبة التنبؤ (prophétie)، الذي اتُّفق على الاعتراف بـــه لهـــا، فهو يجري بسهولة تقريبا، وعلى كل يمكن تصديق المؤلفين المســـلمين، عندما سجّلوا النكسة التي تكبدها جيش حسان بن النعمان القـــوي، علـــى

---

(1) Gautier: Op. cit., pp.271-272.

(2) Berbères et arabes, p. 183.

ضفاف مسكيانة، فكان توقف إجباري للاحـتلال (Conquête)، مـرة أخرى"[1].

وحسب Terrasse فإن " التحـالف الجديـد " (La nouvelle coalition) الذي تكّون، بعد استعادة الأسطول البيزنطـي لقرطاجـة، وثورة البربر بقيادة الكاهنة، تَمكّن من إلحاق هزيمةٍ بحسّان في منطقـة بغاية-تبسة، وانسحبت الجيوش الأُموية، مـرة أخـرى، إلـى مقاطعـة برقة[2]، وقد توقف Terrasse معلقا " أن نقاشا كثيرا دار حول شخصيّةٍ، هي الأخرى نصف أسطورية (à demi- légendaire)، وهي شخصية الكاهنة، واسمها الكاهنة (devinerèsse): يدفع إلى افترا ض أن سلطتها أو شهرتها كان لها بعض الأصول الدينية، وتعتبرها بعـض النصـوص يهودية، بمعنى بربرية متهودة، وهذا ليس مستحيلا، لكنـه يزيـد مـن صعوبة تفسير التفاف تحالف بربري – مسيحي حولها "[3].

ويقتبس Julien (Gh. A.) " نظرية Gautier " عـن جـرواة ويرى "أنها خصبة، لأنها ستوضح، إذا ما تم تأكيدها، الاتجاهات الجديدة التي طبعت بها ملكة الأوراس، الكاهنة، الصراع"[4]، ويضيف في مكان آخر إنه في حين استولى الأسطول البيزنطي، الذي جهّزه الإمبراطـور Léontios، على قرطاجة " التَفَت حسان إلى بربر الأوراس، ويقال أنه علم أن ملكة قوية كانت تحكمهم تسمى الكاهنة، بمعنى المتنبئة، وكانت تلك المرأة التي لا يُعرف اسمها (دامية، ديهية ؟) تَدين باليهوديـة، كمـا يؤكد ابن خلدون، وكذلك أبناء قبيلتها. وهناك من أراد اتخاذَ لَقبها كدليل

---

(1) La Berbérie musulmane et l'orient au moyen age; p .34.
(2) Histoire du Maroc, T.1, p. 83,
(3) Ibid, p. 83, note1.
(4) Histoire de l'Afrique du Nord ,T.2 ,p.20.

على ذلك، مع أنه عربي صرف، وقليل هم الأبطال الأفارقة أُلهموا هـذا القدر من الأساطير كالتي يُسمّيها .Marçais G، علـى نحـو مُثيـر، "الديبورة البربرية" (La débora berbère) ، ومن جهة أخرى لِنُلاحظ نهائيا أن النساء، في بلاد البربر، لعِبْن مرات عديـدة دورا فـي المقـام الأول، على الأقل، حتى العهد الموحدي... ومع ذلك لم تبلغ منهن واحدة درجة الكاهنة في السمو، والواقع أننا لا نعـرف عنهـا سـوى أسـمها وسمعتها ومقاومتها العنيدة للمحتل (envahisseur)، وهي متشبعة، على ما يبدو، بالوطنية البربرية والعقيدة العبرية. وهناك أمر يظهر أنه مؤكد، هو أن الكاهنة أعادت تشكيل الكتلة البربرية وسحقت (écrase) الجـيش العربي على ضفاف مسكيانة (بين عين البيضاء وبين تبسة) وألقت بـه في منطقة طرابلس (Tripolitaine)[1]".

وتمثل الكاهنة في نظر طالبي "روح المقاومة البربرية للمحتلـين (envahisseurs) العرب، بعد انهيار سلطة الروم الرسمية الموسـومة بسقوط قرطاجة سنة 75هـ/ 602-603م. إن حقيقة شخصيتها التي قد تكون، فوق ذلك، معقدة جدا،تصعب بالأحرى، الإحاطة بها، فلا نستطيع التعرّف على سماتها (traits) الحقيقية إلا بالأصـداء المُشـوّهة، عبـر منشور (Prisme) الأسطورة ...: ليس هناك اتفاق على اسمها الحقيقي، وقد يكون أطلق عليها اسم دِيهية (Dihya)... وقد تكون دَهّية ودَاهيّـة ودَميّة ودَاميّة أو دحية، هي اختلافات في كتابة اسم واحد. يوجـد نفـس التردد في موضوع نسبها: فقد تكون ابنة تاتيت أو ابنة ماتية (Mathis, Mathieu) بن تيفان (Théophane)، فهل معنى ذلك أن الكاهنة مـن

(1) Julien: op.cit., p.21.

هؤلاء البربر ذوي الدم الممزوج (mêlé) منحدرة من الزواج المختلط (Mixte)؟ هذا إن ثَبتَ، سيُساهم في تفسير السلطة التي كانت لها، ليس فقط على مواطنيها ولكن أيضا على البيزنطيين، هذه الفرضية، بالأحرى، محتملة لدرجة أن بعض الدلائل تؤكدها، فقد تكون الكاهنة نفسها تزوّجت من إغريقي، إذ كان لها في الواقع، كما تم التأكيد لنا، ولدان: أحدهما من نسب بربري والآخر من أب يوناني، ويُحتمل أنها كانت، عَكْسَ ما يُعتقد، على الديانة المسيحية أكثر ممّا يحتمل أنها كانت يهودية، وقد تكون قبيلتها جراوة، المتفرعة عن زناته ... التي تعيش على الترحال والرعي، اعتنقت في البداية، ولا شك، اليهودية لكنها تحولت فيما بعد إلى المسيحية، مثل قبائل أخرى كثيرة ومنها نفوسة، على سبيل المثال، وقد كانت، عند دخولها مسرح التاريخ، أرملة ومسنّة، بدون شك، وتمنحها الرواية 127 عاما، منها 35 قضتها "كمَلِكة" الأوراس...، وكانت، ولاشك " شطحيّة (une extatique): ففي وقت الإلهام (inspiration)، كانت تدخل في هيجان كبير، وتنشر شعرها وتضرب صدرها، وكانت تُمارس أيضا تقنيات تقليدية أكثر في الكهانة، كقراءة المستقبل في الحصى، وليس هناك شك في أن أكبر جزء من سلطتها، يعود الفضل فيه إلى مواهبها الكهنونية"(1) .

وقد قبلت "الكاهنة التحدي الذي سبق وأن رفعه كسيلة وعَبًّأ، على الخصوص البرانس الحضر، وانتصرت في المرحلة الأولى: فبعدما استولى حسان ... على قرطاجة وحطم القوات البيزنطية المنظّمة، توجه نحو الأوراس، حِصنِ المقاومة البربرية، وبعدما جمع قواته على ضفاف

(1) Talbi Med : E. I, n[elle] éd. leiden- Paris 1978, .4, art. Al- Kahina, pp. 440-441.

مسكيانة وشنّ الهجوم، وبعدما حطمت الكاهنة باغاية، التي يحتمل أنها استخدمتها كعاصمة، وأرادت منع سقوطها المتوقع في أيدي المُعتدين عليها (Agresseurs)، فعلت مثله، ووقع الصدام الحاسم على ضفاف نهر نيني الواقع، ولاشك، قرب محطة القطار (gare) التي تحمل نفس الاسم، وهي اليوم على بعد 16 كلم جنوب عين البيضاء، على السكة الحديدية القادمة من خنشلة، وكانت المعركة مشؤومة جدّا على حسان لدرجة أن الوادي الذي شهد عليها لم يعد يسميه العرب بَعدَ مدة قصيرة، إلاّ نهر البلاء، وأيضا لأسباب غير واضحة، وادي العذارى ... وكانت نهاية هذه الحملة الأولى ... في أرض قابس أثناء معركة أخيرة، دفعت الغُزاة (envahisseurs) خارج إفريقية، وتلقى حسان الأمر بالتوقف عن الانسحاب، على بُعد أربع مراحل إلى الشرق من طرابلس حيث أقام معسكره"(1).

كما تسبب سقوط قرطاجة في صدمة عنيفة ببيزنطة، فأرسل الإمبراطور léontius، الذي أسقط جستنيان الثاني (Justinien II) سنة 695م. "البطريقَ Jean، على رأس أسطول قويّ، لاستعادتها فكان ذلك، ولا شك، بعد انسحاب حسّان من إفريقية"(2).

وكان الأمر الذي تلقاه حسان بالانتظار، حيث وافاه جواب الخليفة، يوحي في نظر Fournel، " بان حكومة دمشق كانت لها انشغالات حثيثة في مكان آخر، وبالفعل فإن بلاد الشام (Syrie) عرفت ثورة (Soulèvement) سنة 79 هـ أو بداية سنة 80 هـ، قادها عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بمساعدة سعيد بن جُبَير، فأعلن نفسه

(1) Talbi: op.cit, p. 441.
(2) Talbi Med: E. I, n^elle éd, leyde – paris 1990, T.III, art. Hassan B. Al- Numan al-ghassani, P. 279.

خليفة ... واستولى هذان القائدان على البصرة، وطـردا الحجـاج مـن الكوفة وقاما بحرب تُفسِّر مدتُها وحدها، تفسيرا كافيا، القَلق الـذي قـد تكون أوحت به منذ بدايتها إلى عبد الملك، لأنها لـم تنتـهJي إلا سـنة 83هـ بواقعة دير الجماجم التي خاضها المهلب ضد عبد الرحمن و قتله فيها...، وتتفق المصادر (auteurs) العربية على أن حسانا، بعدما انتظر في صبرٍ، بِقُصُورِه على ساحل سيرت (Syrte) خمس سـنوات، تلقـى الإمدادات والأموال، مع الأمر بدخول إفريقية ثانية، وذلك في نهاية سنة 83 أو بداية سنة 84هـ"[1].

ويعتقد Caudel ان تبني تاريخ 77هـ/ 696م، لانسحاب حسان، (بعد هزيمته على يد الكاهنة) يترك له " الحرية بالنسبة للمؤرخين العرب الذين يحددون إقامته في قصور حسان بسنوات عديدة، ويدعي أغلبهم أنه أقام خمس سنوات، ويقول المالكي ... ثلاث سنوات فقط، وهاهو يتفـق معنا، تقريبا، لأن استعادة قرطاجة كانت سنة 698م./ 79هـ، وهـذا تاريخ مؤكد، قدّمه المسيحيون فحسّان بقي، إذا أكثر قليلا مـن سـنتين، خارج إفريقية"[2].

وبالنسبة لـ Mercier فإن حسانا استقر في برقة، ومـن هنـاك كاتب المشرق يطلب الإمدادات، لكن عبد الملك المنشغل بحروب أخرى لم يكن في استطاعته تحويل جندي واحد إلى حسان الذي لـم يتلـق إذًا، دعما إلاّ بعد خمس سنوات من تاريخ هزيمة مسـكيانة، عنـدما هـدأت حروب المشرق، بعد سقوط ابن الزبير المشهود (mémorable)، حوالي 693م، فسار مجددا على رأس جيش قوي إلى المغرب"[3].

---

(1) Les Berbères ,T.2, p. 221-Sq.
(2) Les premières invasions arabes, p.170.
(3) Histoire de l'établissement des arabes, p. 62

وقد أدى انسحاب حسان إلى برقة، أمام الكاهنة، حسب Marçais G. "إلى توقف إجباري للاحتلال، مرة أخرى، استمر ثلاث سنوات من الهدنة (repit)، جاء خلالها أسطول إغريقي لاسترجاع (réoccuper) قرطاجة"[1].

أما الكاهنة المنتصرة فيقول عنها Fournel " إن الحركات الكريمة التي أظهرتها النّبيّة (prophétèsse) في طريقة معاملة أسراها، امتزجت لديها مع إيحاءات كشفت عن همجيتها: اقتناعًا منها أن العرب يطمعون في إفريقية للتمتع بنباتاتها الغزيرة ونهب ثرواتها فقط ظنّت أنها اتّقت عَوْدتهم إلى الأبد... عندئذ تم، بأمر منها تخريب فضيع، فحطمت المدن وأتلفت الحقول والبساتين، وقطعت الأشجار وحولت المياه، واختفى كل ما يمكن أن يسّهل على العرب غَزْوًا (invasion) جديدا، هكذا كان أحد الأعمال الرئيسية للكاهنة المسيطرة على بلاد البربر... وبإصدارها تلك الأوامر.. فإنّ مَلَكَة النّبوّة التي اختصت بها الكاهنة، ألهمتها هذه المرة، وَحْيا سيئا جدا، لأنها قد تكون، بكل تأكيد، هيّجت السكان المسلوبين بهذه الطريقة، ولم تتجنب الآفة التي كانت تخشاها"[2].

وفي رأي Caudel: فإن الكاهنة سيطرت خلال السنتين (وليس خمس سنوات) اللتين بقي فيهما حسان خارج إفريقية "على الجزء الجنوبي من المقاطعة التي لم يستردها البيزنطيون، وكان التقسيم بين الأميرة البربرية والبطريق، سهل الإنجاز، بدون شك، حيث أقامت جنوبا في مُزاق الجنوبية، منطقة السهول المفتوحة، في حين كان Jean يعيد بناء الليمس القديم، قدر المستطاع، على الخط الذي يربط Sicca

(1) La Berbérie musulmane et l'orient; p .34.
(2)Les Berbères ,T.2, pp. 221-222

véneria بـ Hadrumetum، وهذا ما يُستنتج من نــص البطريــارك Patriarche نقفور (Nicéphore) السابق، على الأقل"[1].

ويرى .E Mercier في الانتصار المحقق على حســان نجاحــا أعاد البربر لأنفسهم، مدة معينة أخرى، سيطرت فيهــا الكاهنــة علــى إفريقية والمغرب الأوسط ... وعند اقتراب الخطر أَمَــرتْ ... بحــرق حقول المغرب الغنية حتى تخلق فراغا أمام العرب، لكنها نفّرت. بهــذا الإجراء القاسي، قلوب عدد كبير من البربر، لم تَــرْقَ وطنيــتهم إلــى مستوى التضحية بالثروة من أجل الاستقلال، وهكــذا تأججــت، أثنــاء السنوات الأخيرة من السّلم النِّزاعات الداخلية، في كل النواحي، فــأنهَى العملُ الذي بدأه الخلاف التضحيةَ التي فرضتها الكاهنة، فلم تُلــبِّ أيــةُ وَحدةٍ عسكرية النداءَ، واستعدت الملكة المهجورة للمــوت، مــن أجــل القضية التي كانت تدافع عنها"[2].

ويعتبر(.Gautier (E.F رواية ابن عذاري، في نقــل أســطورة تخريب الكاهنة لإفريقية، التي تَنافسَ المؤرخون العرب في نقلها، هــي الأكثر انتشارا، ملاحظا حدوث تعاليق كثيرة على هذا المقطع الذي يحمل شهادة مفيدة على تدهور المغرب تحت السيطرة الإسلامية، ومنــذ مــدة طويلة تمت ملاحظة أن الكاهنة، وحدها، لم تكن تستطيع، فــي ســنوات قليلة تكديس خراب بهذا الحجم، غير أن المقطع زيادة عن ذلــك، يُلقــي ضوءا ساطعا على أسباب التنافر العميق بين النُّوميديّين وبــين حلفــائهم الحضر (Urbains)، ويقتبس Gautier عن ابن خلدون (دون توثيــق) قولا يصفه بالحكيم مفاده "أن البربر نظــروا إلــى تخريــب ممتلكــاتهم

(1) Les premières invasions arabes, p.171..
(2) (Histoire de l'établissement des arabes, Pp. 62-63.

بانزعاج كبير" معلقا أن المقصودين هنا هم، بطبيعة الحال: المزارعون وسكان المدن، الحضر: لقد رأى هؤلاء أن كلّ ما يعطي قيمة للحياة، في نظرهم، مُهدّد، كما جعلتهم بضعُ سنوات من حكم البتر يلمسون، بأصابعهم عدم تفهم السادة الجدد الكلّي والبِنْيويّ لمصالحهم، إنه النزاع الأبدي، بين البدو والحضر، الذي نَجده في كل مكان، وهو القاعدة الأبدية لازدواجية الروح في المغرب[1].

ويتعجب نفس الكاتب من حدوث حركة مترابطة لدى البتر، ففي الوقت الذي كان الحضر يديرون فيه ظهورهم للبدو، هيجت تلك الولية (Maraboute)، الكاهنة خيال العرب، فابتعد مؤرخوهم عن كل عاداتهم، وراحوا يلخّصون عنها صورة حية، أحيانا، مع أنها أسطورية، بطبيعة الحال[2].

وفي رأي Marçais: إنّ الكاهنة "استغلت هدنة الثلاث سنوات لتخريب الأرياف (campagnes) وتحطيم المدن بانتظام، قصد تثبيط عزيمة المحتل (l'envahisseur) وقد يكون نتجَ عن هذه المعالجة البطولية، التي يحتمل أن يكون الفلكلور بَالغَ في سعتها، غَضبُ البربر وحتى البيزنطيين الذين كانوا يؤيّدونها "[3].

ويُرجع Julien (Ch. A.) "النصر السهل "الذي حققه حسان على الكاهنة، في حملته الثانية عليها إلى "تشتيت" البربر، ذلك أن تلك المرأة "قد تكون حكمت المغرب خمس سنوات، وفق المبادئ البدوية (nomades)، ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت النتائج: لقد أكّد كل المؤرخين العرب أن الغُزاة (envahisseurs) وجدوا مساعدين مُهمّين

(1) Le passé de l'Afrique de nord, p 276.
(2) Ibid, pp. 276-277.
(3) La Berbérie musulmane et l'orient; p .34

(précieux)، من الروم والبربر الحضر، وإذا صَحّ أن الملكة أرادت تفادي عودة العرب بتخريب البلاد وتحطيم الأشجار والجدران فأنه يكون من السهل فهم أنها أثارت ضدها المدنيّين (citadins) والمزارعين، سواء كانوا إغريقا أم أهالي، وكان حسان على علم بما كان يجري، ولا شك أنه استفاد من تلك الوضعية، بالإضافة إلى أن (الخليفة) عبد الملك الذي انتصر، منذ وقت قريب على الثورة الأخيرة التي أعلنها أحد المطالبين بالخلافة سنة 702، بعث إليه جيشا هاما استخدمه في عملية الهجوم"(1).

ويسجل م. طالبي أن الكاهنة " وسّعت سيطرتها (domination) ولكن من المؤكد أن سلطتها (pouvoir) لم تشمل المغرب كله، كما تؤكد ذلك بعض المصادر ... ولا كافة إفريقية... وكانت قد تبنّت، بفضل عادة (rit) الرضاعة البربرية الصورية، قائدا (chef) مؤثّرا... أُسنَد اليه دور الجوسسة لصالح حسان، هل أرادت (بذلك) إحداث علاقات جيدة مع العرب، وحملهم على التخلي عن نواياهم التي كانت تعرفها بواسطة طرق أكثر تأكيدا من الكهانة ؟ ومن المحتمل أن يكون فشل هذه السياسة أدى بها إلى اتخاذ قرار جذري ترتبت عليه نتائج جسيمة، بعد استنفاذ جميع الوسائل، التخريب... وقد أثارت تلك التخريبات مناقشات طويلة بحيث أن بعض المؤرخين المحدثين ينفون حدوثها، في حين يبالغ الإخباريون العرب في وقوعها بإفراط. وفي الواقع، يبدو أنه من غير الممكن نكرانها، ولا إعطاؤها أبعاد كارثة حقيقية بإنصاف، وقد لا تكون تجاوزت إطار بعض مناطق إفريقية لكنها قد تكون، مع ذلك، هامة

---

(1) Histoire de l'Afrique du Nord ,T.2 ;p.20

وكافية لإغضاب شرائح واسعة من المجتمع الحضري التي استسلمت، عندما لم تبحث عن اللجوء إلى جزر البحر المتوسط وحتى في إسبانيا، إلى الْتِمَاس تدخل حسّان"(1).

وفي اعتقاد Fournel H. أنه "إذا أثبتت صحة التفاصيل الواردة في شأن تزويد وَلَد الكاهنة، بالتبني، لحسان بمعلومات (عنها)، فإن ذلك يشكل خيانة شنيعة لكنه لم يزعزع كرم ملكة الأوراس: فَبِتوقّعها (prévoyant) أنها ستُقتل، في الصراع الجديد الذي ستخوضه، ليس بصفتها كاهنة ولكن لأنها كانت تعرف قوة حسان، وكذلك الهيجان الذي تسببت فيه حولها، بتخريب البلاد، فبذلك التوقّع إذا، أرسلت ولديها (Ses fils) إلى القائد العربي، بصحبة خالد بن يزيد، مع تَوْصيّته عليهما وهو ذلك الولد بالتبني الذي أعادت إليه حريته، في مقابل الخيانة التي يكون سبق وأن ارتكبها، وقد تَوسّل إليها ولداها، عبثا، أن تفر وتترك البلاد للمسلمين ما دامت تعلم أن هلاكها حتمّي، وتظاهر خالد نفسه بضم إلحاحاته إلى إلحاحات وَلَديْها، غير أنّ هذه المرأة البطلة أجابت: " إِن الهروب سيكون عارا على شعبي (peuple)، وإن التي حكمت البربر والعرب والنصارى يجب أن تعرف كيف تموت مَلِكَةً "وسرعان ما التقى الجيشان ... وهُزم البربر... ولُوحِقت ملكتهم إلى أن قتلت بالأوراس أمام بئر كانت تسمى في عهد ابن خلدون، بئر الكاهنة، وأُرسل رأس هذه المرأة الباسلة إلى عبد الملك ثم... دخل حسان القيروان في رمضان سنة 82هـ، حسب ابن عذاري، أو 84، حسب القيراوني، وهذه الأخيرة هي المفضلة، طبعا، وهي تتفق، على الأقل، أكثر مع التواريخ

---

(1) Talbi M.: E. I, n[elle] éd., leiden- Paris 1978, T.4, art., Al- Kahina, p.441.

التي عيّنتها، على التوالي، للأحداث السابقة"[1]، ويعتقد Fournel أيضا أن ابن خلدون، الذي حدد تاريخ وقوع هذا الحدث، هنا وفي أماكن أخرى، بسنة 74، كَتب 84، لأن هذا الخطأ يبدو، بالنسبة إليه، جرّ خطأ 69 عوض 79 التي هي، بالنسبة إلينا، سنة هزيمة الكاهنة لحسان"[2].

وفي نظر Caudel فإن الكاهنة كانت تتوقع أن يعيد حسان زحفه عليها " فاتبعت خطة (Tactique) جديدة، يبين لنا عنها موقفها السابق من باغاي بعض التصور ... وكان سلوك (التخريب هذا) محزنا، نفّر من الملكة الأهلية (indigène) المعمرين المزارعين الذين لم يجدوا، لحماية أشجار زيتونهم إلا حسانا"[3]، وبعدما اقتبس نفس المؤلف نَصّيْن يتحدثان عمن انضم إلى هذا الأخير من صفوف أعدائه: أحدهما من كتاب معالم الإيمان والآخر من رياض النفوس، يَخْلِص إلى القول: إن تلك المرأة، عندما "أحست أنها مقتولة أرسلت إلى الأمير ولديها وأسيرها، يزيد بن خالد الذي كان حاميا لهما"[4].

ويَذكُر العربُ أنه كان من بين أسرى وادي نيني الثّمانين، فتعلّقت به (prit en affection) "وتبنّته في حفل بدائي (barbare) كان يمارسه البربر وقت الجاهلية، وأصبح يزيد هذا حميما لولدي الأميرة، واستفاد من موقعه لتزويد قائده حسان، عن قوات أُمّه بالتبني، وصار عند هزيمة البربر النهائية، وسيطا مفيدا بين أَخويْه هذين وبين الأمير"[5].

ويحدد هذا الكاتب مكان وقوع المعركة التي هُزمت فيها الكاهنة وقُتلت " قرب بئر أَطلق عليه المسلمون، منذ ذلك الوقت، تسمية بئر

(1)Les Berbères, T. 2, p. 224, note a
(2) Les Berbères, T.2, p. 224, note a
(3)Les premières invasions arabes, pp.171-172..
(4) Ibid, pp. 172-173
(5) Ibid, p.171.

الكاهنة، وهناك أيضا مَنْ يزعم أنها قُتلت في مكـــان يســمى طرفـــة"[1] ويرى أن تسمية " طبرقة التي أطلقها عليها كل من ابن الناجي والبكري هي خطأ إملائي، لأن طرف مَسْكالَة أو مسكُولة هي ناحيـــة مـــن بـــلاد الحراكتة، الواقعة على ست فراسخ إلى الشمال من بغاية " حسب مقدمـــة ابن خلدون الجغرافية. لاحظوا اسم البحيرة المجاورة، قرعة الطـــرف... وربما كانت، قرب بحيرة الطرف، بلدة تسمى بهذا الاسم تحديدا"[2].

ويحاول Caudel أخيرا، تحديد سير الأحداث التي كان لحســـان فيها دوره، حيث أنه عُيّن واليا على إفريقية، بعد وفاة زهير بـــن قـــيس، ربما منذ سنة 69هـــ/678م، وهاجم سنة 75هـــــ/694م، روم الولايـــة البيزنطية (proconsulaire)، فاستولى، مرة أولـــى، علـــى قرطاجـــة، وبانتصاره على الإغريق التفت نحو قوة بربرية جديدة، هي قوة الكاهنة، وتكبد هزيمة نكراء، وبعد طرده خارج المقاطعة نَظّم صـــفوفه بقصـــور حسان ثم عاد بعد حوالي سنتين، أي سنة 79هـــ/698م ليستأنف هجومه ويَدْحَر جيش الكاهنة، قرب قابس، ولاحق الأميرة إلى الأوراس، فهزمها وقتلها واسترجع القيروان "[3].

ويسجل Mercier E. أن حسانا، في حملته الثانية " دَحَر، وهـــو يتقدم مع جيشه، كل شيء وَجَده أمامه، وبعد استعادته القيروان استولى، بصعوبة على قرطاجة التي حاول سابقوه إخضاعها عبثا، وسلّمها للنهب ثم استولى على بقية حصون الساحل، على لتوالي، وبعدئذ ســـار القائـــد العربي إلى الكاهنة، وكانت ملكة الأوراس تنتظره في جبالها، مع أتباعها

---

(1) Caudel, op, cit, p.173.
(2) Ibid,, p.173, note3
(3) Td.

من جرواة وبعض البربر الآخرين، واندلعت معركة ضارية، غير بعيد عن بغاية لكن أعداد العرب انتصرت على شجاعة الأهالي ..."[1].

ويقول Gautier (E.F.)، في تعرّضه لما يسميه "أسباب الأنهيار" إنه يظن أن حدثا محوريًا يتبين جيّدا، من خلال المؤرخين العرب، وهو أن جرواة كانوا بترا"[2]، وبعد اقتباسه بعض نصوص ابن الأثير وابن خلدون، في موضوع الأخطاء التي ارتكبتها الكاهنةُ ولجوء بعض أنصارها إلى حسان والهزيمة النكراء التي أُلحقت بها، يلاحظ "أننا لم نخبر حتى بمجرد اسم تلك المعركة وبالمقابل كيف قدمت لنا الاستعدادات إليها"[3] بإرسالها ولَديْها مع خالد إلى حسان وخروجها يوم المعركة، ناشرة شعرها، وهي تتنبيء قومها بمقتلها المؤكد، وأنه " إذا كان هذا الفلكلور، يعني شيئا، فهو أن احتمال ضراوة تلك المعركة ضعيف"[4].

لقد وجد حسان، عند عودته، الكتلة الخطيرة التي حطمته مُفكّكة..."[5] ويعرض Gautier قصة تبني الكاهنة للشاب خالد الجميل، وإرسال أَخويْه من الرضاعة معه إلى حسان الذي أمنّهما وعقد لكبيرهما على قيادة جرواة وولاية جبل الأوراس، مستنتجا أن " مثل هذه النادرة، في الواقع، بربرية جدا، سواء تعلّق الأمر بالبتر أم بالبرانس: إذ يوجد مثيلها، بالضبط، في القرن العشرين، بالمغرب الأقصى، في مواجهة المحتل (Conquérant) الفرنسي حيث أن رئيس قبيلة جبلية، في بلاد زيان، مُوحَة أَو حَمّو، حقّق في بداية الأمر نجاحا كبيرا ضد المحتل الفرنسي، وبعد سنوات قليلة أَيْقَن أن اللُّعبة انتهت، وأن المقاومة أصبحت

(1) Histoire de l'établissement des arabes, p. 63
(2) (Le passé de l'Afrique du Nord, p. 274.
(3) Ibid, p. 275
(4) Id
(5) Id.

مستحيلة، ماذا سيفعل؟ قام ببادرة خاصة، وبالضبط بادرة الكاهنة، التي تُدهشنا، كما أدهشت أيضا، العرب، قبل ذلك بخمس مائة سنة، هل سيتخلّى عن الكفاح (à lutter)، هو مُوحَة أَو حَمُّو شخصيا؟ لا، لقد ظن، مثل الكاهنة، أنه من العار عليه أن يفعل ذلك ولكنه أعطى أمر الخضوع إلى المنتصر لأبنائه، ففعلوا، دون قصد خفي، وحضروا إلى جانب الفرنسيين المعركة الأخيرة التي قُتل فيها والدُهم، ومعنى ذلك أنهم ساهموا في موته، ثم تحولوا إلى أكثر المساعدين قيمة وإخلاصا، بالنسبة للجنرال poeymirau، خلف حسّان البعيد. وقد تم، في مكان آخر تحليل السيرورة النفسية عن هذا السلوك الغريب، ويكفي التذكر، أن البربري، في القرن العشرين، كما في القرن السابع، ليست له أية فكرة عن الوطن، وهو لا يتصوّر حتى المَغرب كوحدة متكاملة، قد تكون له واجبات نحوه، ولا يهتمّ أكثر بالوطن الصغير، نوميديا أو بلاد زيان، ليست له فكرة عن ذلك، والشيء الوحيد الذي يتحّمس له البربري، ويكون مستعدا لتقديم حياته من أجله، هو عَشيرتُه (son clan)، عائلته، ومن ثم يتضح كل شيء، وأمام الكارثة الوشيكة المَحتُومة، فإن الشيء الوحيد الذي يهم حقيقة، هو العشيرة، هل يمكن تخليصها؟ بكل وضوح نعم، وسواء كان المنتصر عربيا أم فرنسيا، فهو لا يطلب أكثر من استعمال خدمات أسرةَ يكون قد اختبر نفوذها، زيادة عن اللّزوم، ثم إن المؤرخ العربي وضع في فم الكاهنة جملة لها مدلولها (caractéristique): " قالت لهما إذهبا فَبِكما سيحتفظ البربر ببعض النفوذ (pouvoir) "علما أن البربر المقصودين هم بالضرورة جرواة، بقيادة عائلتها الأميرية: فالطريق، إذا، مرسوم، وينبغي الخضوع، وإذا كان من غير الممكن أن تقوم الملكةَ العجوز، المكلّفة بالنصر بهذه التضحية، فإن وَلَديْها يفعلان ذلك بأمر

منها: إنه واجبهما المقدس وسيقومان به فعلا، مثلما فعل أبناء مُوحَـــة أُو حَمُّو، بنوع من البطولة الشرسة... فهذه النادرة الأســـطورية والغريبـــة تشتم فيها لِلْوهلة الأولى، على ما يبدو، رائحة ألف ليلية وليلة، ويصـــبح من المستحيل الشك في خطوطها العريضة... ثم إن غرابـــة الحـــدث لا توجد سوى بالنسبة إلينا، نحن الغربيين المدَرّبين، منذ ثلاثة آلاف ســـنة، منذ المدينة القديمة، على فكرة الوطن، إن سلوك الكاهنـــة ومُوحَـــة- أُو حَمُّو، هو بكل وضوح، رَدُّ فِعل عادي لعقل سياسي لم يتجاوز مســـتوى (l'étage) العشيرة، وقد بقي مَغْرِب كل الأزمنة، بكامله فـــي مســـتوى لعشيرة " (1)

وبالنسبة لـــ Marçais G. فإن حسانا، بعد إطلاعه على الخلاف بين الكاهنة ورعاياها، نتيجة سياستها المدمّرة " عاد بقوات جديدة. وفـــي سنة 698 م تم الاستيلاء على قرطاجة، مرة أخرى، نهائيا هذه المـــرة، وفي سنة 700 أو 701 م تم سحق المغرب في معركة كبيرة، لقيت فيهـــا الكاهنة حتفها المجيد الذي أخبرتها به مَلَكتها التنْبَوِيّـــة (prophétique) الخاصة "(2).

أما Terrasse H. فيذكر " أن حسانا أعاد الهجـــوم ســـنة 702م، ولما شعرت الكاهنة بعجزها عن مقاومة صدمة الجيـــوش الإســـلامية، أحدثت فراغا أمام العدو، لكن حسّانا استعاد قرطاجة، وأبُعدت بيزنطيـــة التي كانت قد ضيّعت، آنذاك، إمبراطورية البحر، من إفريقيا الشـــمالية، وسيحارب البربرَ وحدهم، وبعد هزيمة الكاهنة لُوحقـــت حتـــى الأوراس حيث قتلت"(3).

---

(1) Le passé de l'Afrique de nord, p.277sq
(2) La Berbérie musulmane et l'orient, pp .34
(3) Histoire du Maroc, T,1,p.83

ويحدّد Julien (Ch. A.) غزو حسّان الجديد لِمُزَاق واستعادته قرطاجة بِسنة 698م، مُضيفا أنه "لم يَعثُر في المدينة إلاّ على بعض الروم الذين كانوا بُؤساء لدرجة لم تمنعهم من تغيير السّادة، دون أية مبالاة، بينما انتقل السكان الآخرون إلى جزر البحر المتوسط. لكن حسّان وضع أسس مدينة جديدة، مباشرة، بعد سقوط العاصمة، في عمق خليج قابس، وكانت في بداية الأمر تلعب دُورَ دارِ صناعة بحرية، بعيدة عن عرض البحر. في حين بَعْثرت سفنُ الخليفة الأسطول البيزنطي الأخير الذي استطاع أن يَجُول سواحل إفريقية، وانتقلت سيادة البحر إلى العرب، وبعد ذلك بقليل لم يعد الإغريق يحتفظون إلاّ بموقع سبتة (Septem)، مع بعض بقايا موريطانيا الثانية (Seconde) والطنجية (Tingitane) ومايوركا (Majorque) ومينوركا (Minorque) ومدن نادرة في إسبانيا، وجعلوا كل ذلك، على ما يبدو، في إكسارخية استمرت عشر سنوات أخرى. وبقي التغلّب على البربر! إنّ تشتتهم، هذه المرة، جعل النصر عليهم أمرًا سهلا. وقد تكون الكاهنة حكمت المغرب، مدة خمس سنوات، وفق المبادئ البدوية، فلم يتأخر ظهور النتائج"[1]. وتعليقا منه على الأمر الذي أصدرته الكاهنة لولديها، بالانتقال إلى العدو، يعتقد Julien أن " Gautier (E. F.) بيّن، بمقاربة مثيرة، كَمْ أن هذا السلوك طبيعيّ لدى رئيس بربري يضع سيطرة عائلته على القبيلة فوق كل اعتبار. وقد خاضت الملكة العجوز معركة يائسة، ربما قرب طبرقة... وقُتلت قرب بئر... وأُرسل رأسها ... إلى الخليفة... وبموتها انتهى عهد الدفاع البطولي.."[2].

(1) Histoire de l'Afrique du Nord, T.2, P.21
(2) Ibid, P.22

وقد مكث حسان في منطقة طرابلس (Tripolitaine)، بعد هزيمة مسكيانة، حسب م. طالبي، "ثلاث سنين ثم استأنف الهجوم بجيش جديـــد، سنة 78هــ/697-689م، ويُحتمل أن تكون بعض المجموعات البربرية الساخطة على سياسة الكاهنة قد دعّمته، وهُزمت هذه الأخيرة وقُتلت في المعركة. وبعد ذلك تمّ الاستيلاء على قرطاجة التي غادرها المـــدافعون عنها في الوقت المناسب..."(1).

ويلخّص Fournel H. ما أوردته المصادر العربية من أن إتمـــام فتح (Conquête) إفريقية كان مع مقتل الكاهنة وتأمين سكان الأوراس في مقابل 12000 مقاتل، كوّن منهم حسَّان فرقتين عسكريتين متكافئتين، وجعل على رأس كل واحدة منهما اِبنا من ابني الكاهنة وكلّفا بـــالنهوض إلى المغرب، والقضاء على الروم والبربر الذين بقـــوا علـــى شِـــرْكهم. وبينما كانت هذه المهمة الشاقة تُنفّذ، دخل الوالي القيروان وانشغل بتنظيم إدارة البلاد، وبالأخص وضع الخراج (الضرائب على العقار)، وســـجّل، في الديوان، النصارى من الأهالي ومعهم الغرباء على إفريقيـــة، وكـــان منشغلا بهذه الاهتمامات، مستفيدا في ذلك، من الهدوء الذي عـــاد إلـــى المنطقة، لكن عبد العزيز بن مروان عزله فجأة وبعث لـــه، فـــي نفـــس الوقت، أمرا بالقدوم عليه، وولى مكانه موسى بن نصير"(2).

ويتابع Fournel قصة سفر حسّان إلى مصر وما جرى له مـــع عبد العزيز بن مروان هناك ثم انتقاله إلى الخليفة بدمشـــق ومـــا كـــان بينهما، متوقفا عند اسم الخليفة الذي استقبله، وملاحظا "أن ابن عـــذاري، والنوّيري الذي نقل عنه، بطبيعة الحال، يؤكدان أنه كان الوليد بنُ عبـــد

---

(1) Talbi Med, E.I, n^elle éd, Leyde- Paris 1990, T3, art. Hassan B. Al. Numan al-ghassani, p.279

(2) Les Berbères, T. 2, pp. 224 -225

الملك وخليفتُه، لكن هذين المصدرين نسيّا أن عبد العزيز كان وليّ العهد (successeur) الذي عيّنه مروان، في حالة وفاة عبد الملك، ومع ذلك، يقول Fournel، سأترك ابن عذاري يصحّح نفسه: "كان عبد الملك، كما قال، يفكّر في عزل أخيه عبد العزيز عن ولاية مصـــر ســـنة 85هـــــ، بسبب غضبه عن عزل حسّان بن النعمان وعن نهـــب الغنيمـــــة التـــي حملها هذا القائد من إفريقية.... وقد تمكّن قَبِيصَة بن جُويْب من إقناعـــه بالتأجيل.... إلى أن مات عبد العزيز في 12 جمادى الأولى سنة 86هـ فعُوض فورا بشقيق آخر للخليفة، عبد الله بن مروان. وبعد خمسة اشهر أخرى، يوم 15 شوال 86/ الجمعة 9 أكتوبر 705م التحق الخليفة بأخيه في القبر وخلفه ابنه الوليد بن عبد الملك. وهكذا حتى وإن تمّ تبنّي آخـــر تاريخ حَدَّد به المؤرخون وفاة عبد العزيز، فإنه يســـتحيل، كمـــا تبـــيّن، موافقة ابن عذاري في قوله، إن حسّان وجد الوليد خليفة، عندما انتقل من مصر إلى دمشق"[1].

ويرى Fournel فيما كتبه النّويَرْي من أن الوليد كاتب عمه عبد العزيز خطأ واضحا، لأن ذلك يعني أن هذا الأخير المتوفي في جمـــادى الأولى 86هــــ، لم يزل بعد أميرا لمصر، عند تولية ابن أخيـــه منصـــب الخلافة[2].

ويذهب Caudel إلى القول: إن حسانًا بعدما هزم الكاهنة وقتلهـــا "استعاد القيروان، وبعد ذلك بقليل طَرَد نهائيا الإغريقَ من قرطاجة وفي نفس الوقت أخضع البربر، وأصبح المسيطر المطلق على كامل إفريقية، والاتفاق التام بين الإخباريين العرب، حول السّير العام للأحداث، يمنعنـــا

(1) Fournel : op.cit., p. 226, sq
(2) Ibid, p. 227, note 2

من تبنّي نظرية Fournel التي تقول: إنّ حسّانًا فَقَدَ قرطاجة وهو لا يزال بَعدُ بالقيروان، وأنه استعادها قبل إلحاق الهزيمة النهائية بالكاهنة، كما أن التسلسل الذي يقترحه مؤلف كتاب البربر لسير الأحداث، هو أيضا غير مقبول، وأنا أفضل التعيين التقريبي الذي وَضَعتُه على دقّته الخادعة، لما يمثّل من مزايا ثلاث هي: أنها لا تُناقِضُ الإخباريين إلاّ في نقطة واحدة، تاريخ 84هـ الذي يحدّدون به استرجاع قرطاجة والذي لا يمكن قبوله في كل الأحوال! وأنها تتفق مع الافتراضات التي وضعها المؤلفون الغربيون الذين عرفوا كيف يستخدمون المصادر العربية وأَحْسَنوا الاقتباس منها بطريقة أفضل ومنهم: Amari وWeil، وأنها تتفق مع الرواية المسيحية التي يقدّمها السيد Diehl"[1].

ويلاحظ Caudel قائلا: "إننا نعرف الآن تقريبا، كيف وقع احتلال إفريقية نهائيا، لنبحث قليلا لماذا تم الأمر هكذا، والمسألة الأكثر تعقيدا في هذه الإشكالية ليست مسألة التواريخ، في وقت معيّن أو في آخر في سنة 78 أو في 84هـ أصبحت إفريقية دار إسلام: وهذا الحدثُ الأخير هو المهم. كيف استطاعت أن تكون كذلك بتلك السهولة، وبدون رجوع محتمل؟ إن الكاهنة كوّنت إمبراطورية قوية، بعد معركة واد نيني؛ وتوسعت ولا شك في مُزاق كلّها، وكان لها جيش ضخم مادامت أَقدمت على الذهاب حتى قابس لاستقبال العدّو، في سهل، بعيدا عن ملاجئها المعتادة، وهو ما لم يجرؤ غيرها على القيام به قبل ذلك، لاَ جَرْجير، عام 27هـ، ولا كُسيلة عام 55. كما عَرَفت، بطبيعة الحال، كيف تُوقِظ في الروح البربرية، نوعا من الشعور الوطني، انطباع وجود خطر مشترك

(1) Les premières invasions arabes, pp. 175-176

ستكفي قوّاتُ القبائل المتوحّدة وحدها (bien juste) من إبعـاده، زيـادة على أنها وجدت صعوبة أقل في استمالة، المعمرين اللاّتين والإغريـق المذعورين من كثرة الكوارث المتعاقبة، إليها. وبالضبط فإن الإخباريين يقولون لنا إن الروم أيدّوها. ونحن ندرك يقظة الوطنية البربرية، رغـم ندرة ما يقدّمونه لنا من وقائع. إن الهَبّة الجماعية التي اتجهت إلى وادي نيني، والجرأة، غير المألوفة لدى الجيـوش المحليـة، التـي جعلـتهم يخوضون معركة مواجهة مخططة (bataille rangée) ضـد الجـيش العربي المنتصر على الإغريق، والزحف إلى قابس، وخوض معركة في ذلك المكان، كلّ هذه الأمور هي بالنسبة إلينا براهين، غير أن عبقريـة الكاهنة لم تمكّنها من بناء أكثـر مـن إمبراطوريـة بربريـة بمعنـى الإمبراطورية الأكثر تفكّكا والأكثر اختلافا والأكثـر هشاشـة للبنيـات السياسية: ذلك أنّ تقلّب وشراهة رعاياها ضيّعا كلّ شيء، إذ كـان مـن المستحيل عليها ألاّ تلاحق العدّو المنهزم حتى قابس، بعد الانتصار الذي حققته بوادي نيني، ولما وصلت هناك سلّمت مُزاق إلى قبائل الهضـبة، فنهبوها كما نعلم. ومع أن مؤلفينا يرون في تخريـب المقاطعـة خطـة متعمّدة من الملكة، أمام الفريسة الفاخرة التي تَعْـرِض علـيهم نفسـها، بضعف الجرأة الوطنية التي أيقظتها الكاهنة في نفوسهم، ومع ذلك، فـإن تلك الجرأة، بالنسبة للأغلبية، ناجمة عن الغيـرة الحـادة مـن الزميـل (العربي) الذي كان يأخذ أحسن القطع من النهب، وعندما عـاد العربـي سارت القبائل إليه للدفاع عن فتوحاتها، لكن لم تفكّر، بعد وفاة الملكـة، سوى في إنقاذ ما يُمكن من الكارثة. وعندئذ أظهر حسان مهارة فائقة: إذ كان له الوقت الكافي للتفكير، أثناء انسحابه في القصور، وأقنعته هزيمته بوادي نيني أن القوة البربرية، مهما كانت، غير متساوية ومفكّكة، كبيرة

وبإمكأنها إنْ واجهها مباشرة، أن تخلق له صعوبات جديدة. وفي نفس ذلك الوقت، كان يزيد بن خالد (خالد بن يزيد) يقول له: إن البربر "ليس لهم أيّ تماسك وأيّ اتفاق"، فاستفاد من الملاحظة، وعند عودته إلى إفريقية طبّق، إن لم نقل صاغ المبدأ السياسي المشهور: فرّق تَسُدْ: فحرّض البربر ضد بعضهم البعض. وما كان الأهالي يريدونه، ليس أميرا من أُمّتهم، ولا دولة على طريقتهم، ولا إبادة العرب، إنما كانوا يريدون الأرض فأعطاهُمَهَا حسّان. وكانت صدمة وادي نيني المزعجة قد دَحْرجت القبائل إلى السهل، ولم يستطع الأمير ردّها إلى الأوراس فتركها حيث هي، مستخدمًا أكثرها ليونة في حراسة غيرها، ومنح ممتلكات للتي اعتنقت الإسلام ووعدت بقتال الكفار، كما تكلفت هذه الأخيرة بإخضاع العنيدة منها بالقوة. وقد قال لنا المالكي... "إن حسّانا اقتسم معهم الغنيمة والأراضي" هذه الجملة تقول لنا، عن احتلال (Conquête) إفريقية، أكثر من كلّ النقاشات حول التواريخ والأسماء، ولم تكن سياسة حسان جديدة: فالتاريخ يخبرنا أنْ ليس هناك من أخضع إفريقية أبدا، دون اللجوء إلى استعمال الأهلي ضد الأهلي. وقد تمخضت عن ذلك نتائج جديدة كليّة، لأنها بخلاف غُزاة الماضي، فإن العرب تمكنوا من الانتصار على الجيش المحلي (autochtone) وعرفوا، في نفس الوقت، كيف يخضعونه لعاداتهم، لدرجة أنه، في وقت قصير نسبيا، أصبح من الصعب التمييز بين الغازي والمغزو، ما عدا في المناطق البعيدة جدا"[1].

(1) Les premières invasions arabe,`p. 176, sq

ويعتبر Mercier أن "حرب الكاهنة آخرُ عملٍ من مقاومة البربر الفعلية للغزو (Conquête) العربي، فلم يعد لهم، بعد ذلك قادة، ودَمَّرت الفوضىَ الكبرى بلادَهم، ومحقت الحروب الداخليـــة قـــوّاتهم، وغـــادر السكان الإغريق واللاّتين، أرض إفريقية تماما، على ما يبدو؛ لكن بعض مجموعاتهم لجأت إلى الجريد وإلى واحات الزاب حيث سُمح لهم بالبقاء، مقابل دفع الخراج أو ضريبة الخاضعين (infidèles tributaires)"(1).

كما يعتبر Gantier (E. F.) سلوك الكاهنـــة، أساســـا، بربريَـــا ولكنّه، مع ذلك، بُتْريّ على الخصوص، عندما "تبنت ولدا عربيا، لعـــب دورا راجحا في آخر عمل الكارثة: فهو الذي قاد ابني الملكـــة العجـــوز الحقيقيّين إلى الأمير العربي. وسنجد خلال تاريخ المغرب بكامله، تجاذب البدو والعرب، إلى بعضهم البعض، لأن تطابق نمط الحياة والعواطـــف الأساسية أقوى من اختلاف اللّغات. ويظهر أن أسطورة الكاهنة تشـــهد، كما ينبغي، على أن هذا التعاطف الأصم عَرَّف بتأثيره. ومن المُفَارقة أن هذا حدث في الوقت الذي أُعجب فيه الحَضَرُ بفوائد الخلافـــة: حكومـــة نظامية، إدارة، نظام نسبّي، وهكذا حدث، بطبيعة الحال، الطـــلاق بـــين الأمراء النوميديّين وبين رعاياهم في المدن. ولم يستطع الحضر والبدو، أبدا، التعايش معا في المغرب، دون أن يتقيّأ بعضُهم البعضَ الآخر، فكان انتصار الغزو العربي، وهنا يوجد المنعطف الحاسم، وحسان هو الـــذي اجتازه..."(2).

ويتعجّب هذا المؤلف "من عدم رؤية قرطاجة ولا المدن المجاورة لها، في هذا القرن الأول من الغزو (invasion) الإسلامي، المضطرب

---

(1) Histoire de l'établissement des Arabes, pp. 63-64
(2) Le passé de l'Afrique du nord, pp. 279-280

جدّا: فالحامية البيزنطية، بقيادة جرجير هُزمت في سُبيطلة، بجنوب البلاد التونسية. لكن العرب لم يزحفوا على قرطاجة إذ كانت لهم قضايا أهـــم، فهم غالبون حذرون، يمثلون حكومة نظامية، ذات اتجاهـــات ضــــريبية، يَجْبون غرامة حربية كبيرة. ولم يهتموا، بقرطاجة، في كـــلّ الأحـــداث المتلاحقة، سوى مرّة واحدة، سنة 688م (تقريبا)، وحتى ذلـــك الوقـــت، نصف قرن بَعْدَ سُبيطلة، بقيت قرطاجة بِأيدي البيزنطيين: كــــان هنــــاك جيش وأسطول بيزنطي. فوضع والي القيروان العربي، حسّـــانُ، حـــدّا نهائيا بسرعة لذلك التهديد، واستولى على قرطاجة مرتين متتاليتين، على ما يبدو، وبفاصل زمني بينهما، يُقَدّر ببضعة أشهر أو أسابيع. وقد يكون الأسطول استعاد المدينة في ذلك الفاصـــل. ومكّـــن تـــدخل الأســـطول البيزنطي السّكان، على الخصوص، من الهجرة... "ولم يبق فيها، حسب ابن عبد الحكم، إلاّ قليل من الروم، كلهم من الطبقة الفقيرة. وكان الباقي أبحروا مع الوالي (gouverneur)" –"ويقول البيان: إن سكان الناحيـــة، استجابوا لنداء رسول حسان، بعد ذلك، وتسارعوا إليه...فجعلهم يحطّمون قرطاجة ويمحون كل أثرٍ لها" ونفس الشيء يقوله ابن الأثير، تقريبا "بعث حسان فرقة تجول الضواحي فتسارع إليه السكان مَذْعُورين للقائه فجعلهم يحطّمون قرطاجة، قدر الإمكان". إِنـــه زوال قرطاجـــة، لكـــن تـــونس عوضتها، في الحال، واحتفر حسان نفسه، عبر بحيرة تونس، القناة التي أوصلت المدينة بالبحر. وكان يستحيل على الخلافـــة أن تتـــرك مينـــاء قرطاجة قائما، في عزلة كبيرة، بآخر شبه الجزيرة حيث يصعب عليهـــا الدفاع عنه، خاصة وأنها لا تملك السيطرة على البحـــر. وهـــذا حـــدث معتبر، ولكنه عمل حربّي صغير نُفّذ بسرعة، نهائيا، ويتعلق الأمر بغلق

آخر باب المدخل الذي بقيت بيزنطة قادرة على إرسال النجدات منه، ضدّ العدّو الرئيسي الموجود في أماكن أخرى..."[1].

ويختصر .Marçais G كلامه في التعبير عمّا جرى، بعد مـــوت الكاهنة وسقوط قرطاجة، بقوله: إن هذين الحدثين: "يعبّران عـــن نهايـــة الفترة البطولية: فلن يَعْرف المسلمون صعوبات بـــارزة فـــي البضـــعة والعشرين سنة التي ستلي، بعد ذلك"[2].

أما .Terrasse H فقد اكتفى بملاحظة "أن حسان بن النعمان لـــم يُكمل عمله، وعاد إلى المشرق"[3]؛ وفـــي اعتقـــاد Julien أن "الخليفـــة أصبح يشك في حسان، بعد عودته إلى القيروان وشروعه فـــي تنظـــيم الضرائب، فاستُدعِيَ"[4].

ويذهب Talbi Med القول: إلى أنّ "عزل حسّان كان علـــى يـــد عبد العزيز بن مروان... الذي عوّضه بمولاه (son protégé) موســـى بن نصير في صفر 79/ أبريل- مايو 698، فعاد إلى المشـــرق، ولمـــا وصل مصر، جُرّد (il fut dépouillé) من كل الغنائم التي أتى بها من إفريقية. وتوفي وهو يقاتل الروم سنة 80/699-700. وقد وَطّدت حملتا حسان، نهائيا، الاحتلال (Conquête) العربي. ولـــه فضـــل (on lui doit) بناء دار صناعة تونس، بناءًا على أمر الخليفة المنشغل بتكـــوين أسطول قويّ، وإعادة بناء جامع القيروان... كما حاول تجهيـــز (doter) إفريقية بإدارة فعّالة، مقلّدا في ذلك الجهد الذي كان يبذل فـــي مجالهـــا،

---

(1) Le passé de l'Afrique du Nord, pp. 253-254
(2) La Berbérie musulmane et l'orient au M. Age, p. 35
(3) Histoire du Maroc, T. 1, p. 84
(4) Histoire de l'Afrique du Nord, T. 2, p. 27

آنذاك، بالمشرق، ولكي يَضمن تحالفَ البربر وإخلاصهم. راح يُشـــركهم في الفيء، وخاصة عند تقسيم الأراضي"(1).

وفي مكان آخر يذكر Talbi "أن حملة حسان الثانية، يحتمل أنها وقعت سنة 78هـ/697-698م... وقد ساعدته هذه المــرة، ولا شـــك، وحدات من البربر الغاضبين من سياسة الكاهنة. ومنذ ذلك الحــين لــن تربط السكانَ الأصليين (autochtones) المصلحةُ الواحدة، وبعدئذ بدأت رياح الأنهزامية تهبّ على الأوراس، وهي بدون شــك الريـــاح التـــي اخترقت شعر الكاهنة المنشور وأوحت لهـــا تلـــك التنبـــؤات، المنـــذرة بالخطر، وهي ليست سوى إخطارات يائســـة، وصـــلتنا كـــوحي إلهـــي (comme autant d'oracle) (من تلك المرأة) التي كانت ضحية البلبلة والقلق. وقد حدث الصدام الأول في منطقة قابس، وكان في غير صـــالح الكاهنة، ومن ذلك الوقت ينبغـــي، منطقيـــا، تحديـــد الحلقـــة المحزنـــة (l'épisode dramatique)، المستبعدة والتي يُرجّح وقوعها، وهي تقدّم لنا "الملكة"، المتأكدة بعدئذ من مقتلها، تنصـــح ولـــديها بالانتقـــال إلـــى المعسكر الآخر (changer de camp) في الوقت المناسب. وراحت هي نفسها، تلجأ إلى سلاسل الأوراس. وقد حدثت المعركة الأخيرة في مكان يُطلِق عليه المالكي... تسمية طرفة، ومنها طبرقة.... التي ليســـت، ولا شك، سوى خطأ في النسخ. فهناك، يعني عند مخرج جبل نشار، تقريبا، على بعد 50 كلم، شمال طبنة، خاضت الكاهنة آخر معركة لها.... و قد تركت عزيمتُها وحيويتُها بَصَمَةً حتى أن بعـــض المـــؤرخين المحـــدثين يرون فيها نوعا (une sorte) من Jeanne d'Arc البربرية"(2).

(1) E.I., N[elle] éd., Leyde -Paris 1990, T. 3, art. Hassan B. Al-Numan al Ghassani, p. 279
(2) E.I., N[elle] éd., Leiden- Paris 1978, T.4; art AL- Kahina, p. 441

- **ولاية موسى بن نصير:**

نقل .Fournel H تعريف هذه الشخصية عن المصادر العربيـــة التي تطرقت إلى بعض جوانبها، فتوصل إلى أن اسمه الكامل هو "أبـــو عبد الرحمن موسى بن نصير اللّخمي... وُلد عام 19هـ/640م؛ وأن أباه نصير، مولى عبد العزيز بن مروان*، كان على رأس حرس معاوية بن أبي سفيان، وكان يحتل مكانة مرموقة في نفس هذا الخليفـــة، غيـــر أن موسى ارتمى في صف عبد الله بن الزبير، وشارك إلى جانب الزبيريين في معركة مرج راهط سنة 64هـــ، وعندما نفاه مروان طلب وتحصّـــل على حماية عبد العزيز، والي مصر، وحامي والده، وبفضل هذه الحماية ولا شك، كلّفه عبد الملك، بعد موت بشر بجباية خراج البَصْرَة لكنه اتُّهم بالاختلاس وتلقى الحجاج أمرا بتوقيفه، وعلم به موســـى فـــي الوقـــت المناسب. ففرّ إلى حاميه بمصر، وكان يشاركه الحمية، للقضية القيسية، وخدمةً منه لِمُوالٍ وَفِيّ، سارع عبد العزيز لمرافقته إلى دمشـــق حيـــث فرض عليه الخليفة، رغم إلحاحات أخيه، غرامة قدرها مائة ألف دينار، لم يتردّد والي دمشق في أخذ نصفها على عاتقه ثم عادا معا إلى مصـــر حيث بقي موسى بها إلى سنة 85هـــ[1].

وهنا يبيح Fournel لنفسه "افتراض أن الغنـــائم المســـلوبة مـــن حسان ذهبت لدفع الغرامة المفروضة على جابي خراج البصرة الخـــائن (infidèle)، وزيادة في الكآبة، أُرسل هذا المفضل بدون استحقاق (sans

---

* كان نصير من بين الأربعين شابا الذين استرقهم خالد بن الوليد عند استيلائه على عين التّمر، أثناء فتحه للعراق، في عهد الخليفة أبي بكر سنة 12هـ/633-634م (Les Berbères, T. 2, p. 229, note 3) .

(1) Les Berbères, T 2, p. 229- 230.

(honneur) إلى مكانِهِ بإفريقية وهو ما يبرّر بوضوح سـخط غـازي (Conquérant) قرطاجة"[1].

ويستنتج المؤلف الأخير، من وفاة عبد العزيز في 12 جمادى الأولى سنة 86 هـ، وتعويضه بأخيه عبد الله بن مروان ووفاة عبد الملك بعده بخمسة أشهر، في 15 شوال 86 (الجمعة 09 أكتوبر 705م) وتولية ابنه، الوليد، الخلافة: أنه "حتى ولو تمّ تبنّي آخر تاريخ قدّمه المؤرخون عن وفاة عبد العزيز، يكون من المستحيل، كما تبيّن، موافقة ابن عذاري على أن حسانًا وَجَدَ الوليدَ خليفة، عندما انتقل من مصر إلى دمشق.... وأن موسى بن نصير يكون قد تلقى من عبد العزيز ولاية إفريقية في نهاية سنة 85 أو بداية 86هـ"[2].

ولم يحاول Mercier التعرض لماضي موسى بن نصير قبل تعيينه واليا؛ بل يكتفي بالقول: "إن هذا القائد وصل إفريقية بلقب وال مستقل، بمعنى أنه تابعٌ مباشرة إلى الخليفة، وكانت إفريقية، حتى ذلك الوقت، تابعة لولاية مصر"[3].

ونفس الشيء فعله Terrasse H. الذي ذكر أن "موسى عُيّن واليا على إفريقية دون أن يكون خاضعا- مثل سابقيه- إلى والي مصر"[4] كما ذكر (ش. أ.) جوليان "أن موسى بن نصير الذي تلقى، عندئذ ولاية إفريقية، أصبح بعد ذلك، مستقلا عن مصر" مع ملاحظته أنه "يصعب تحديد تاريخ هذا التعيين، بفارق عشر سنوات، وإلى هذا الحدّ، تختلف التواريخ المقدّمة، وعادة ما يُحدّد تاريخ 705"[5].

---

(1) Les Berbères, T. 2, p. 230
(2) Ibid, pp. 227-228
(3) Histoire de l'établissement, p. 64
(4) Histoire du Maroc, T. 1, p. 84
(5) :Histoire de l'Afrique du Nord, T. 2, p. 27

وبالنسبة لـ Provençal (E. Lévi) فإن "أبا عبد الرحمن موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللّخمي.... وُلد سنة 19هـ/ 640م، وأن أباه كان من حاشية معاوية. وقد كلف الخليفة موسى، في البداية، بجباية خراج البصرة، لكنّه فرّ، بعدما اتُّهِم بالاختلاس ولجأ إلى شقيق الخليفة، والي مصر،.... فعيّنه على ولاية إفريقية التي كان يتولاّها، حتى ذلك الوقت، حسان.... ويبدو أن ذلك تمّ سنة 79هـ/ 698م. أو السنة الموالية لها"(1).

وكان أول عمل قام به موسى، عند وصوله إلى القيروان، حسب Fournel H.، هو تكسير أبي صالح الذي كان يشغل منصب الوالي بالنيابة، بعد رحيل حسان إلى المشرق "وبالنسبة للبربر المستعدين للثورة، دائما، فإن خبر استدعاء حسان، الذي كانت مآثره توحي بالرّعب، في البلاد المحتلة، كان إشارة لتمرّد، اضطر ابن نصير إلى قمعه بمجرّد وصوله. وكان الخطر يبدو وشيكا أكثر في جبل زعوان وضواحيه، على مسافة يوم شمال القيروان، فأسرع الوالي الجديد بإرسال خمسمائة فارس جَلَبُوا، حسب رواية ابن عذارى، عشرة آلاف أسير، لكن هذه المبالغة ما هي إلا تمهيد لمبالغات أكبر منها بكثير: فأبو المحاسن (بن تغري بردي) يجعل سنة 84هـ تاريخا لحملة يكون موسى بن نصير أَسر فيها خمسين ألف شخص"2 وهنا يتوقف Fournel معلقا: "إنْ كان تاريخ هذه المعلومة صحيحا، فهو يناقض التاريخ الذي تبنّيتُه ..... بالنسبة لوصول موسى إلى إفريقية، بمعنى نهاية 85 أو بداية 86"3 ويضيف: أنّه "مهما كانت الأرقام التي قدّمها الروائيون مثيرة للسّخرية،

(1) E. I, N[elle] éd. Leiden- New York –Paris, 1993, T. 7, art. Musa b. Nusayr, p. 643
(2) Les Berbères, T. 2, pp. 230-231
(3) Ibid, p. 231, nôte 2

فإن هذه النجاحات الأولى أخمدت، ولا شك، غضب عبد الملك، وجعلته يقِّر التعيين الذي قام به أخوه عبد العزيز، ولكي يتدارك تكرار التجاوزات التي أثارته، بحق، أشعر أخاه عبد الله، عند تعيينه مكان عبد العزيز، أن إفريقية ستكون في المستقبل مستقلة عن مصر، وتابعة للخليفة مباشرة، وعند تَوليّة الوليد، منصب الخلافة، ثَبّت كل الولاة في مناصبهم. وفي عهد هذه الولاية بدأ احتلال (Conquête) المغرب"[1].

ويذكر .Mercier E أن "موسى وجد المغرب مغطى بالخرائب، وفريسة للحرب الأهلية، فثابر على تهدئة قبائل النواحي الشرقية، بمساعدة ولَديْه، ثم خرج إلى المغرب الأقصى...."[2].

وقد يكون موسى، على حدّ قول .Terrasse H، "نظّم إدارة البلاد وفرض الخراج على البربر النصارى الذين كانوا، على الخصوص، برانس، بعد ما بنى مسجدا جامعا بالقيروان"[3] ويشير هذا الكاتب إلا أن "انتصار حسان بن النعمان لم يُعط المسلمين أكثرَ من إفريقية، وبقي عليهم احتلال (Conquérir) وتأمين (Passifier) أكبر جزء من بلاد البربر. وأن عمل هذا التأمين غير معروف جيّدا لدينا"[4]: إذ أن "حملتي ولدي موسى: عبد الله ومروان اللّذين يكونان جلبا مائة ألف أسير، تبقيان غير دقيقتين ومشكوك فيهما كثيرا"[5]. ومهما يكن فإن موسى "أصبح، في وسعه بعد وقت قصير، غزو المغرب الأقصى..."[6].

(1) Les Berbères, T. 2, p.231
(2) Histoire de l'établissement des Arabes, p. 64
(3) Histoire du Maroc, T. 1, p .84
(4) Id
(5) Ibid, p. 84, note 1
(6) Ibid, p. 84

وبالنسبة.Ch A. Julien فإن موسى "أخضع، في البداية، المغرب الأقصى حتى المحيط الأطلسي"[1]؛ وفي تقدير E. Lévi. Provençal فأنه "شنّ، بمساعدة ولديه: عبد الله ومروان، حملات ناجحة ضدّ زعوان وسجومة (؟) وهزم هوّارة وزناتة وكتامة. وعند فرار البربر نحو الغرب، قرّر موسى الذهاب لإخضاعهم؛ ولما أبقاه خَلَفُ عبدِ الملك، الوليد، في منصبه واصل زحفه حتى طنجة...."[2].

ويعتقد H. Fournel "أن احتلال المغرب (الأقصى) بدأ في عهد هذه الخلافة (sous ce règne)" خلافة الوليد،[3] مما جعله يستبعد (rejeter) المراسلة التي قد تكون تمت بين عبد العزيز وعبد الملك، حسب ابن عذارى، في موضوع العدد الكبير من الأسرى الذين تقبض عليهم موسى. فهذه المراسلة جرت بين الوليد وموسى كما سيأتي"[4].

وقد "وردت أخبار، كثيرة الاختلاف، في شأن ذلك الاحتلال الذي سبق وأن شرع فيه ولدا الكاهنة: فحسب البكري فإن موسى بن نصير "كان قد حلّ بطنجة، عندما انفصل عن جيشه قائدان، هما: عياض بن عقبة وسليمان بن (أبي) المهاجر ليزحفا على سقوما، وهي مدينة تقع في ضواحي الموقع الذي تأسست به، فيما بعد، مدينة فاس"[5]. ويلاحظ Fournel هنا "أن ابن عذاري، حسب ابن قتيبة، يكتبها سجومة وابن خلدون يكتبها سقيوما وأن السيد de Slane يقول: إن هذه المدينة يُحتمل أنها لم توجد أبدا"[6].

---

(1) Histoire de l'Afrique du Nord, T. 2, p. 27
(2) E.I. n[elle],éd. Leiden-New York- Paris 1993, T.7, art. Musà B. Nusayr, p. 643.
(3) Les Berbères, T. 1, p. 231
(4) Ibid, p 231, note 6
(5) Ibid, pp .231-232
(6) Op.cit., p .232, note 1

وسواء "خضعت هذه المدينة، كما يتبيّن ذلك من رواية البكري أو، على العكس من ذلك، شعُر عياض وسليمان أن ضعفهما الكبير لا يمكنهما من مهاجمتها، فأقنعا (بالتهديد كما زعم الكاتب) القائدَ الأعلى بالعودة معهما إلى حصار سقوما. وتمّ الاستيلاء عليها عُنوة، وتعرّض السكان لتقتيل شنيع وكبير جدا لدرجة أن نقص سكان أوربة استمر ملحوظاً أربعة قرون بعد ذلك؛ وكان عدد الأسرى مرتفعا إلى حدٍّ بلغ منه خمس الخليفة مائة ألف رأس؛ وعند تلقي الوليد للكتاب الذي أخبره فيه الوالي بهذه النجاحات الخارقة، أجاب "...! إنها إحدى كذباتك!..."[1] و يعلّق Fournel على أسلوب هذه الرسالة قائلا "إنْ صحّ أنها عبّرت هكذا، فهي تصف اللياقة العربية في العلاقات الرسمية آنذاك وتبيّن الرأي الذي كان شائعا عن ابن نصير"[2].

ويَعْرِض مؤرخون "آخرون هذه الرواية بطريقة مختلفة تماما: فقد يكون الوالي أرسل ولديه: عبد الله ومروان، من إفريقية نفسها، إلى نقاط مختلفة، ويكون كلّ واحد منهما جلب 100.000 أسيرا؛ ويزعم اللّيْث بن سعد، الذي نقل عنه ابن خلّكان، أنَّ الخمس بلغ 60.000 رأس وهو ما يعني أن عدد الأسرى كان 300.000 رأس، ثم إن موسى من جهته عاد، حسب النويري، بعدد يضاهي عدد أسرى كل واحد من ولديه، ويقدّم ابن خلدون نفس الرقم 300.000، ويقول إِنه نقله عن الرقيق؛ كما نقل، مثل البكري، مقطع الرسالة الفاحشة (grossière) التي كتبها الوليد إلى والي إفريقية، في موضوع عدد أسرى سقيوما (Sakïouma)، غير أنني ذكرت، قبل قليل، ابنَ خلدون من بين المؤرخين الذين سلّموا بأن هؤلاء

---

(1) Les Berbères, T. 2, p. 232
(2) Id

تمّ أسرهم قبل قيام الحملة على المغرب (الأقصى)، وهذا ما يؤكده، على ما يبدو، ابن عذاري الذي كتب يقول: "إن أغلب مدن إفريقية كانت خالية، على إثر المقاومة التي كان يبديها البربر"[1].

وفي خِضمّ "هذه المبالغات والشكوك، لم يحدّد أي مصدر تاريخ دخول موسى إلى المغرب (الأقصى) للزحف على طنجة، لكن البُعد عن الحقيقة لا يكون كبيرا، إذا تمّ التسليم بسنة 87هـ، إن السيطرة (domination) العربية المعلنة، أكثر مما هي مُوطّدة، عند مرور جيش المغامر عقبة، كإعصار، قبل خمس وعشرين عاما، على هذه المناطق النائية، قد تكون شهدت محوَ بَصْمتِها الخفيفة بواسطة الفترتين اللتين يمكن تسميتهما مملكتي: كسيلة والكاهنة، وبالضرورة التي وُجد فيها حسان وموسى نفسه، منذ عامين، بتركيز كلّ الجهود العربية على إفريقية. غير أن صدى مآثر ابن نصير، انتشرت بعيدا، فكان اسمه يوحي بالرعب، والإخباريون يصوّرون لنا البربر مثبطي الهمّة، محاربين دائما ببسالة ولكن مهزومون باستمرار، وموسى الواصل بسرعة إلى السوس الأدنى و"بعد قليل، كما يقول ابن خلدون، هاجم طنجة واستولى على درعة ثم حاصر تافيلالت وبعث ابنه إلى السوس. وخضع البربر في كل مكان، وفي سنة 88 تسلّم من مصمودة رهائن أسكنهم مدينة طنجة وترك فيها، حسب ابن خلكان، حامية من تسعة عشر ألف بربري مُدجّجين بالسلاح ومموّنين تموينا جيّدا؛ وكان هؤلاء اعتنقوا الإسلام بصدق، ثم أَسند ولاية طنجة وأحوازها إلى مولاه طارق بن زيّاد البربري، تاركا معه عددا قليلا من العرب لتعليم البربر القرآن وتعليمهم الإسلام، وبعدما اتخذ هذه

(1) les Berbères, pp. 232-233

الإجراءات ورأى أنه لم يَعُد في كامل البلاد، من بربر أو روم، من ينبغي قتاله، عاد إلى إفريقية"[1].

ويتوقف Fournel عند هذه الجملة الأخيرة التي اقتبسها من ابن خلكّان ملاحظا: "أن جزءا كبيرا منها غير صحيح، وعلى العكس من رواية ابن خلكان، فقد بقي هناك روم تنبغي محاربتهم لكنهم كانوا محصّنين في مدن عديدة، أهمها سبتة التي كان يحكمها ذلك القُمص (Comte) يوليان نفسه الذي رأيناه، سنة 63هـ يحفظها، بمهارة من حرب عقبة. وأن ابن خلدون أخطأ أكثر عندما قال: "ولما علم يوليان بتقدم موسى بن نصير نحوه نال رفقه بإغداق الهدايا ودفع الجزية" وفي المقابل ذُكر في أخبار مجموعة (القرن 11م.) أن موسى حارب يوليان ولكن عندما تحقق أن رعايا هذا الحاكم الصغير كانوا أقوى وأشجع من الشعوب التي حاربها حتى ذلك الوقت، رجع إلى طنجة وأمر بتخريب الأرياف المجاورة لسبتة، دون أن تحقق الغارات، التي أرسلها، النتائج المرجوّة، لأن المراكب القادمة من إسبانيا، كانت تحمل المؤن والإمدادات، بدون انقطاع، إلى سكان سبتة .... وفي تلك الأثناء توفي Witiza ملك إسبانيا..."[2].

ويذكر .Mercier E أن ابن نصير عندما انتقل إلى المغرب الأقصى "أخضع قبيلة غُمارة بالريف، ومصمودة في الأطلس، متقدما، بعد ذلك إلى السوس، حيث لم يدخل أي عربي بَعْد عقبة (بن نافع)، وبَسَطَ نفوذه على سكان تلك الناحية، وعلى سكان دَرْعة وسِجِلْماسة، وبعد تحقيق تلك النجاحات عاد نحو الشمال، وانتزع سبتة من السيطرة

---

(1) Les Berbères, T.2, p. 255 Sqq
(2) Ibid, T. 2, pp. 236-237

القوطية. وتُركت عناصر، أغلبُها من البربر، حديثي العهد بالإسلام، في مختلف النواحي، مُهمتُهم نشرُ وشرحُ العقيدة الإسلامية لإخوانهم. وبقي أحدهم، اسمه طارق بن زياد بسبتة كعامل (Gouverneur)، مع سبع وعشرين عربيا. وعندئذ عاد موسى إلى عاصمته، مرورا بالزاب والأوراس، فدخل القيروان سنة 707م، بعد إنهاء احتلال (Conquête) المغرب"[1].

وحسب Terrasse H. فإن موسى عندما غزا المغرب الأقصى "اقتفى، تقريبا وبدون شك، طريق عقبة، واستولى مثله على طنجة. ثم أنه، دون أن يحاصر سبتة، حيث كان القُمص (Comte) يوليان يقاوم الجيش الإسلامي، هذه المرّة، نزل إلى السهول الأطلسية واستولى على مدينة سقومة Segouma، قرب فاس، وكانت لأوربة. وقد يكون ذهب، بعد ذلك، لتامين (passifier) درعة وتافلالت، في حين يكون أحد ولديْه أخضع السوس. وقد تكون مصمودة أعطته رهائن. ويبدو أن سهول وواحات المغرب الأقصى- وربما بعض مناطقه الجبلية- انضمت إلى الإسلام وإلى سلطة الخلفاء، بدون صعوبات. و لم تحدث أية مقاومة جماعية: فالمغرب الأقصى خضع لموسى أسهل مما خضع لعقبة، فموسى كان، ولاشك، يمارس سياسة ضمّ وكان الرؤساء الذين يختارهم للبلاد، حسب المؤرخ المشرقي النويري، من البربر ولاشك: إذ نعلم أنه عيّن على طنجة، إحدى نقاط المغرب الأقصى الحيوية، أحد مواليه البربر، طارق، مع اِثني عشر ألف جنديّ بربريّ، وسبع وعشرين عربيا مكلفين بتعليم هؤلاء المسلمين الجدد القرآن والفقه. ويبدو أن أوّل تنظيم

---

(1) Histoire de l'ètàblissement des Arabes, pp. 64-65

للإسلام في المغرب الأقصى، قام به البربر أنفسهم. وعند عودة موسى من المغرب الأقصى أخضع، في طريقه، بعض القلاع التي استمرت تقاوم، وبعدئذ صارت بلاد البربر كلها جزءا من دار الإسلام"[1].

وفي اعتقاد Julien (Ch. A.) أن ابن نصير، بعدما أخضع "المغرب الأقصى، حتى المحيط الأطلسي، تقدّم إلى سجلماسة بتافلالت، وأخفق أمام سبتة (Septem) لكنه استولى نهائيا على طنجة. وكان يسكن المنطقة (Le pays)، آنذاك، قبائل بربرية من كتلة صنهاجة: غمارة على الساحل المتوسطي، بَرْغواطة على الساحل الأطلنطي، بين مضيق جبل طارق ومصب وادي أم الربيع؛ ومكناسة في الوسط، ومصمودة على السفح الغربي من الأطلس الكبير، وعلى ضفّة أم الربيع بالسوس، وهسكورة، ما بين وادي السوس ودرعة؛ ولمطة ولمتونة، على الضفة الغربية لنهر دَرْعة؛ وكانت هذه القبائل أحيانا مسيحية أو يهودية، وعادة ما كانت مولعة بالعبادات الطبيعية فَفَرض (موسى) عليها، كما فرض على السكان المرتدّين، الإسلامَ عن طريق سياسة تحويل (Conversion) شديدة"[(2)].

وبالنسبة لـ.E. Lévi- Provençal فإن هذا القائد واصل مسيرته "إلى طنجة والسوس، ثم دخل إفريقية تاركا بالمغرب مولاه طارقا كمساعد. وقد غزا هذا الأخير إسبانيا سنة 92هـ/ 710-711م"[(3)].

(1) Histoire du Maroc, T. 1, p. 84
(2) Histoire de l'Afrique du Nord, T. 2, p .27
(3) E.I.éd, Leiden- New-York Paris 1993, T. 7, art. Musà b. Nusayr, p. 643

- مقاومة البربر للفتح الإسلامي:

يحمّل .Mercier E البيزنطيين مسؤولية عدم انتهاز فرصة الهدنة التي عرفتها إفريقية، مدة حوالي عشرين سنة، بعد موقعة سبيطلة، لتنظيم المقاومة، بصفة فعلية، بحكم تجربتهم، وكان عليهم، في نظره، استدعاء الأهالي (indigène) إليهم وإقناعهم أن مصلحتهم تكمن في ردّ الغزاة، وتدريبهم على النظام، لكنهم راحوا، على العكس من ذلك، يُكملون فصلهم عنهم بطغيانهم وابتزازهم[1].

كما يسجل نفس المؤلف أن إنهاء عملية احتلال (Conquête) المغرب كان مع عودة موسى بن نصير، من حملته على المغرب الأقصى، إلى القيروان سنة 707م، ملاحظا أنه نجم عن ذلك "استعباد العرب للشعب البربري، في مدّة نصف قرن، ولكن إفريقيا الشمالية، حتى وإن غيّرت الأسياد والديانة، لم يدخلها أي عنصر جديد من السكان، بل على العكس من ذلك، فإن ما كان تبقىّ من الجنسين اللاّتيني والإغريقي قد اختفى وبقي المغرب بربريا محضا، وستبدأ أيام عظمة هذا الشعب تحت دفع أفكار جديدة. فمن الخطأ الجسيم، إذا، إطلاق تسمية احتلال (Conquête) العرب لإفريقية على غزوهم الأول لها، في القرن السابع (الميلادي): لقد كان مجرّد توسّع (Conquête) نائيّ متبوع باحتلال (Occupation) نقطة رئيسية، هي القيروان، وبعض المواقع الإستراتيجية البحتة، والهجرة العربية، تلك التي أدخلت ذلك الجنس إلى إفريقية الشمالية، لم تحدث إلاّ بعد أربعة قرون من ذلك الوقت"[2].

---

(1) Histoire de l'établissement des Arabes, p. 56
(2) Ibid, p. 65

ويلاحظ Caudel "أن المؤلفين (الغربيّين) المحدثين أرادوا إيجاد تاريخا كبيرا، في هذه الفترة من الاحتلال (Conquête) العربـــي. وأنّ حَدثًا نتائجه بهذه الضخامة، بقيت أقدار القارة ترزخ تحت كامل ثقله، منذ ما يقرب من اثني عشر قرنا، كان يجب، حسب رأيهم، أن يكون مسبوقا ومصحوبا ومتبوعا بظروف عجيبة ومميَّزة، تحضّره وتفسّره وتقرّه، لأن هذه المسألة، عندما تعلو في صميم تفكيرنا، تستيقظ معها الحيرة الأليمـــة للانحطاط اللاّتينو- إغريقي، وكذلك فضول معرفة كيفية حدوثــه بهـــذه السرعة وبهذه الشمولية. ونحن نتذكر غـــزوات (invasions) أخـــرى تكون قد ضاعفت هجماتها، ليس من أجل التحطيم ولكن من أجل الدخول إلى عالم مماثل تقريبا، ونفترض، في إفريقية، غارات (assauts) مـــن هذا النوع لدى المكتسِح بنيّة مبيّتة، ومتابعة ضاريّة، ولدَى المكتَسح دفاع طويل وجيّد، وسقوط بطيئ وشهم، وخضوع أنُوف، ثم ثأر متأخر، ولكنْ مؤكَّدٌ بالروح الوطنية والقوانين والعادات والتقاليد المحلية، ضـــد النفـــوذ الأجنبي"(1).

وما يدهش هؤلاء المؤلفين "قبل كل شيء، هو نجـــاح الجيـــوش العربية التي لا تكاد تظهر حتى تكون قد انتصرت، تدخل الـــبلاد، دون عناء فتَنهَبه براحة كاملة، ولا تجد قوّة العـــدوّ إلاّ بعيـــدا فـــي الـــدّاخل: بسبيطلة وجلولاء وممّس وقرطاجة أو ببغاية، بل إنها لا تجـــد مقاومـــة تُذكر أحيانا: فالساكن يبقى في موقف دفاعيّ" خلف الأسوار التي تحميه، دائما تقريبا، إلاّ إذا هيأ القِدَمُ ثُقبا لم يكن المحتل (envahisseur) يعرف فَتْحَه، وليس هناك ما يعادل جرأة الهجوم ســـوى اضـــطراب الـــدفاع.

---

(1) Les premières invasions arabes, p. 181

وسيُمضي البربر خمسا وعشرين سنة، قبل أن ينتبهـوا أنــه بإمكــأنهم مجابهة العدّو. ثم إن رئيسهم، كسيلة، لم يحاول إلاّ نصب كمــين واحــد لعقبة، وعند وصول زهير لجأ إلى انسحاب حذر (prudente)، لم ينقذه من الكارثة. والكاهنة وحدها أقدمت علــى خــوض معــارك مخططــة (rangées)، فانتصرت بوادي نيني عندما كانت فــي موقــف دفــاع؛ وهُزمت بقابس، وهي تُعِدّ ما يبدو أنه هجوم. وقد كان لتنظــيم الأهــالي العسكري، كل مميزات الأجهزة البدائية التي يجعلها تجميعهــا الخشــن (grossier) وضعفُ تلاحمها وتحركهــا، أكثــر قــدرة علــى تحمّــل الصدمات، وهي سهلة التصليح. والجيش البربري المبعثر، اليوم، كسُربة طيور في مختلف أنحاء البلاد، سيُعاد تنظيمه غدا. وعلى العكــس مــن ذلك، فإن الجيش البيزنطي جهاز دقيق، منظّم بمهارة، يسير بإحكــام، إنْ كان في وضعية جيّدة، لكن الصدمة الأولى التي يتلقاهــا تعطّلــه مــدّة طويلة. وبإمكاننا الاعتقاد أن تناسق ذلك الجهاز الحربي، لم يكــن علــى أحسن ما يرام سنة 27هـــ، لأن صدمة العرب في سبيطلة جعلتــه فــي حالة يُرثى لها، لدرجة أن مسألة إصلاحه لم تعد مطروحة، ولم نعد نرى الروم، بعد موت جرجير، إلاّ خلف أسوار المدن، مقتصرين على القيــام بدور فاتر في مساعدة البربر. والعربي دفع الجميع بقــوة، أهــالي ورم، بسهولة عجيبة وسبَبُ نجاحه يكمن في الاحتــراب (Tactique) الــذي يطبقه: إذ له الصدمة العنيفة التي يمكنها تفكيك صفوف الإغريق القوية، وله سرعة التقدّم التي تبلبل وتشلّ البربري الذي يَقِلّ عنه خفّة، وقد نقله نجاحه، بعيدا، إلى ما بعد خط اللّيمس، حتى المحيط. فشعر بفخر كبيــر وظن أنه سيطر على البلاد. وهو، في الحقيقة، لا يمســك شــيئا ولــيس انتصاره إلاّ خدعة (leurre). وإذا كانت نجاحات العربي، في الواقــع،

سريعة، فإن عيوبه رهيبة، وهذا هو الأمر الثاني الذي يثير انتباهنا. لقد كانت للغارات (incursions) الأولى نهاية حسنة، وكان لعبد الله بن سعد ومعاوية بن حُديج، من الذكاء، ما جعلهما ينسحبان قبل أن يكون للدفاع وقت تنظيم نفسه، لم يدفعا مشروعيهُما إلى أبعد حدّ، فعادا سالمين إلى المشرق ويبدو لنا انتصارهما رديئا: عِوَضَ التوسع (conquérir) راحا ينهبان. ومرّا بسرعة، بعيدا عن التفكير في الاستقرار. وظلّ كل شيء على حاله بعدهما. وبإيقاظهما سكان المقاطعات، عرّضا الغزوات القادمة للفشل، عِوضَ ضمان نجاحها. وعقبة هو أوّل من شكل، على ما يبدو، مشروع إقامة دائمة في إفريقية. أسس القيروان الذي سيصير قاعدة عمليات المسلمين، وملجأ لهم عند الضرورة. وتحت رايته تقدّم الجيش العربي، بعيدا عن القيروان. وعندما عاد (هذا الجيش) إليها تحت انفعال كارثة تهودة، بدا له ضعفٌ كبير في موقعها وترك البلاد نهائيا. ولم يُوقف زهير (بن قيس) زحفَه إلا في برقة. وكان ضياع إفريقية مرة أخرى. ومهما وصل بُعد موج الغزو (invasion) فهو يعود دائما إلى الخلف، إلى نقطة انطلاقه. وقام زهير بمحاولة أخرى، فاكتسح المقاطعة من جديد، وصمد العربي، هذه المرة أكثر على الأرض، فبقي بالقيروان بعد ذهاب الأمير. ليس لدينا معلومات توضّح لنا هذا الجزء من التاريخ، ومن المؤكد أن حامية المدينة العربية لم تظهر بوضوح في إفريقية. وظهر حسّان، فقادته انتصاراته على الإغريق إلى كارثة وادي نيني..... وضيّع العربيّ إفريقية من جديد. لكن هذا الفشل الأخير دمويّ. وأصبح الفشل يزداد خطورة، مع كل حملة جديدة... ولم يتعلّم الأمراء أيّ شيء من الحملات السابقة. و مع ذلك فإن حسانا عرف كيف يستفيد من هزيمته، وعموما، فهو المحتل الحقيقي لإفريقية، ما دام هو الوحيد الذي

استطاع المكوث بعد غزوها (envahir). وقد كان انتصاره، في بداية حملته الثانية، كبيرا جدّا، مثلما كان انتصار أسلافه. لكنه لم يُتبع بانسحابٍ ولا بِعيوبٍ (revers)، وهذا ما يعطيه قيمة كاملة. وفي المقابل فإن صَدمة البربري لم تطرُد العربي هذه المرة، من توسعاته (Conquêtes)، لأن حسّانا عرف كيف يُوصل الاضطرابات التي كانت تسود المقاطعة إلى أوجها، وبحث عن وسيلة حكم في البلبلة الاستثنائية التي هيجت إفريقية"[1].

ويعتقد Caudel دائما أن هذه البلبلة تشكل "الخاصية الثالثة، الأكثر تأثيرا في تاريخ الغزوات (invasions) هذا"[2]: ففي القرن السابع من عصرنا صار "جرجير (Grégoire) مسيطرا على سبيطلة، ولم يعد الإمبراطور (البيزنطي) يحكم؛ ولم يكن للمغتصب (جرجير) أية سلطة. والنظام النسبي موجود ولكن متزعزع أكثر فأكثر، ولم تستمر أنقاض المجتمع اللاّتينو-إغريقي بإفريقية إلاّ بمعجزة، في توازن متقلّب، في إمكان أيّة هبّة ريح القضاء عليها. وقد أسقط العرب، أثناء الاحتلال (en envahissant)، كل شيء على الأرض.... ولم يَلْتَقوا بمجتمع منظم تنظيما جيّدا، ومُهَيأ تقريبا للدفاع، وبعد سُبيطلة وقعوا في شغب (Cohue)؛ لا إسم له. وكان بإمكان محتلين (envahisseurs) أكثرَ مهارة وتنظيما أن يستولوا على البلاد، أول مرّة.... إذ تركوا للمكتَسَحين (envahis) فرصا للثأر. وتحصَّن الإفريقي في مدنه. وكلّ واحدة من هذه الأخيرة تعمل لحسابها: بعضها قاومت بِحَيَوِيّة وبعضها الآخر افتدت نفسها. وفي النهاية سقط جميعها بسرعة، تقريبًا، وزال المظهر الأخير،

(1) Les premières invasions arabes, p. 186 sq
(2) Ibid, p. 189

لنظام ما، مع زوال الرومي من إفريقية. والبربري جنّب نفسه الخطر في بداية الأمر، بل قدّم أحيانا مساعدته في مشاريع بدت له مفيـــدة، و لمـــا أقصاه عقبه، أغاضه وجعله يفكّر في مشروع ائتلاف مضـــاد للعــرب، وتمكن كسيلة ثم الكاهنة من جمع القبائل الأهلية ضد الأجنبيّ، ولم يكــن سوى تنظيم ظاهريّ: وكان كافيا لإخراج العرب مــن إفريقيـــة. لكــن البربري بذل كلّ جُهده، فهو لا يعرف أكثر من ائتلاف بدائي وغير ثابت يجعلُه بتقلبه، ألعوبة لأوّل فشل. وعاد حسّان وانتصر، مــرّة أخـــرى، و لعِلْمه بمكان الخطر الآن، عمل على تجنبه في المستقبل، وراح يؤلـــب البربر ضد بعضهم البعض فأوصل الفوضى إلى ذروتها وبفضلها احتل الساحة. إن عجز البيزنطيّ وخطأ البربري، وخفة جسد وروح العربـــي، كل هذه الأمور، تفسّر لنا نجاح الغزوات(incursions) الإسلامية فـــي مقاطعات إفريقية، في القرن السابع (الميلادي): فالبيزنطي الـــذي شُـــلّ بسرعة، قرّر الرحيل، وحمل معه القليل من التنظيم الذي بقي في البلاد، وهذه الأخيرة سقطت في أكثر الفوضى مصيبة: البربر والعرب يشكلون جَهَالتين وعَجْزين وهَمَجيتين تتعانق (كلّهـــا) فـــي الظـــل... ولِذِهْنيـــة (esprit) العربي أضواء حتى وإن اختلفت عن أضوائنا: فهـــي لا تقـــل عنها لمعانا لكن تلك الأضواء غير مستقرة، ولا هي متساوية، فإن عرفت أمةٌ خاضعة كيف تضبطها، أخذت منها ضوءا جميلا. وقد شُهد ذلك في بلاد الشام وبلاد فارس ومصر. ولم يكن الأمر مُمَاثلا في بلاد في البربر حيث وَجَد المحتل (envahisseur) العربي سكانا أذواقُهم تشـــبه كثيـــرا أذواقَه، فلم يتمكن اختلاط الجنسين من إنتاج شيئ أحسن ممّا يعطيه كـــل طرف، على حِدَه، وكان للعربيّ تفوّقات فكرية وأخلاقية وسياسية كافيـــة لتربية البربري، وهي ضعيفة إلى حد عدم تَمكّنه منها، وقد كان للبربري

العدد الذي تغلّب في نهاية الأمر. لكن تغلّب وَحْـدهُ، وتـورّط السـكان الأهالي، الذينَ جعلهم الإحساس بالمصلحة، يتّجهون نحو المحتـلّ، فـي أعمال نَهبِه، وذهبوا معه إلى إسبانيا للمشاركة، إلى جانبه، في الحـرب، ودخلوا الإسلام، ودخلهم الإسلام بسرعة، ولم يحتاجوا إلى تغيير حياتهم لتطبيقه"[1].

ويستخلص Caudel في نهاية الأمر أن الغـزوات (invasions) العربية قام بها رجال رُعاة أتوا من جهة أخرى" صنعت منهم الظـروف نهّابين، استولوا على البلاد ثم استقروا بها. قاومهم أصحاب الأرض في البداية، وهم أيضا رعاة ونهّابون، يعيشونَ، مثل محتلـيهم فـي قبائـل، وسرعان ما وَحَّد الميل إلى النهب الغزاة والمغزوّين... واختفى السـكان الحضر أو غُمروا في الزوبعة. وحمل الغزاة (envahisseurs) معهـم عقيدة وفرضوا قانونا. العقيدة جذابة والقانون مقبول. واعتنـاق العقيـدة يؤدي إلى المساواة والتمتع بفائدة القـانون. واسـتمر انتشـار الإسـلام تدريجيا،هنا وهناك، بعض المقاومات، شبه تنظيم في المجتمع الجديـد، لكن الإسلام لم يُنَظّم القبائل ولم يغيّر من تطلعاتها...".

ويرى Caudel، في مكان آخر، أنـه " لا ينبغـي الاعتقـاد أن البربري استسلم لِمُحتلّه الجديد، نهائيا، لدرجة أفقدته خاصيّته، ولكن يمكن الاعتقاد أن هاتين الذهنيتين (esprits) المتساويتين في البدائية وأن هاتين الطبيعتين الخاضعتين، منذ القديم، لنفس الظروف المعيشية، وأن هـذين الشخصين (individus) الخاضعين لمؤسسات كثيرة التّشـابُه، والقـيم واحدة تقريبا، سيجدون نقاط اتصال، دون البحث عنها. وسوف لن تكون

(1) Les premières invasions arabes, p.189 sq.
(2) Ibid, p.192

المساواة التامة في الهَمجيّة، لأن العربي يمكنه أن يقدّم لمولاه (vassel) وضعية اجتماعية ملموسة، وعقيدة دينية راقية وتصوّرا كافيا للدولة وثقافة عامة، بدائية جدا لكنها واعدة، فخصائص ومؤسسات وتطلعات الجنسين متشابهة جدّا، لدرجة تجعل بعضهما يفهم البعض الآخر ويندمج فيه، غير أنها تطرح اختلافات كبيرة إلى الحدّ الذي لا يصير فيه تقاربها تَطابقا غير مفيد ولكنه يُغَطي بعض النقائص لدى كل واحد من الشعبين المختلطين. وخاصة في الجانب البربري. إن العربي يندمج بسهولة مع الأجنبي الذي يعتنق الإسلام، والعقيدة الإسلامية بسيطة للفهم والتطبيق، وحكومة الخليفة من البساطة التي يمكن أن تعجب سكان إفريقية الريفيين، إلا أن هؤلاء مرتابون ويفضلون الاستقلال على كل شيء لن يقبلوا التنازل بالإقناع، وينبغي إخضاعهم بالسلاح لكي يُقْدموا على الإسلام... إن تاريخ الغزوات (invasions)، وهو يبين لنا كيف تَقَارب البربرُ من المنتصرين، سيُمكّننا من فهم الكيفية التي تمّ فيها، في القرن السابع، المزج العرقي والاجتماعي الذي ما زال يشكل اليوم كُنْهَ (fond) سكان إفريقيا الشمالية"[1].

ويستنتج Caudel من خلال النبذة التاريخية التي حاول إعطاءها عن خصائص الفاعلين (acteurs) أن ما جعل العربي يسيطر في مدة قصيرة جدا، على مقاطعة حاول آخرون، خلال قرون طويلة، أن يهيمنوا عليها، دون أن يستطيعوا ذلك، بصفة نهائيه إلى "الكُرهِ العميق، بين الأهلي البربري و الحاكم (gouvernant) البيزنطي، الذي هيّجته حياة الجوار، عوض تخفيفه"[2]، وإلى وُجود" بعض التجاذب التي سيُطورّها

(1) Les premières invasions arabes, pp.36-37.
(2)Ibid, p. 40.

الاتصال، بين هذا البربري نفسه وبين المحتل (envahisseurs) الــذي يتقدم"[1].

وفي رأي Gautier (E.F) أن هناك وقائع بلغت أهميتها درجــة بدا فيها أنّه" من العبث (absurde) محاولة فهــم الغــزو (conquête) العربي، قبل إبرازها، وهي: أنّ المغرب سبق وأن تلقى بَصَمَة قرطاجــة الشرقية، بقيت محتَضَنَة، تحت الرماد، طيلة قيام الإمبراطورية الرومانية وأن ظهور الجَمَلِ المتسبب في تكوين القبائل الكبرى، خلق مغربا جديدا، مغربَ البُتر أو زناتة، المجــاور لمغــرب البــرانس المُلَتَّــين، تقريبــا (plus ou moins latinisé). وحتى عندما يكون الوعي بها قائما، ليس من السهل بمكان رواية أحداث هذا الغزو (Conquête)[2].

وبالنسبة إلى هذا المؤلف، فإن" تاريخ المغرب أصبح، بعــد زوال السيطرة البيزنطية فَوْضَى (Tohu- bohu) مُقْنِطَة، من أحداث لا رأس ولا ذنب لها"[3]، ومع ذلك فهو يعتقد أنه" من الممكن العثور على خطوط عامة وإبــراز اتجاههــا ومعناهــا" [4]. ويلاحــظ "أن نتــائج الغــزو (Conquête) العربي اليوم (في وقته)، بعد إثني عشر قرنا، تُــذهلنا: عُرّب المغرب، بقدر واسع، وانتشر الإسلام بعمق في كل أنحائه؛ و من المسلّم به (كما يضيف) أنها نتيجة رائعة. و قليلــةٌ هــي المســتعمرات (Colonisations) التي تحصلت على نجاح كبير كهــذا، فــي تــاريخ المعمورة" [5] ويعود Gautier بعد ذلك، إلى عهد الغزو (conquête)، في القرن السابع الميلادي"حيث حدثت آنذاك، (في اعتقاده) ثورة هائلــة:

---

(1) Caudel, Op. cit., p. 40.
(2) Le passé de l'Afrique du Nord, p.247.
(3) Id
(4) Id
(5) Id

اجتازت فيها البلاد الحاجز الذي يفْصل الغرب عن الشرق (مــع أنــه) مَسيك (étanche) في كل البلدان الأخــرى. وعنــد مقارنــة ثورَتَيْنـا: الفرنسية والروسية بمثل هذه القفزة في المجهول فإنهما تبدوّان مسكينتين، وفي حالة وجود فضول الإدراك وتمييز التفاصيل يتبيّن مباشرة أن الغزو (conquête) العربي كان بطيئا جدا ومُتنـــازَعا عليه: كانــت هنــاك مقاومة عنيفة" [1].

ومن ثَمّ راح Gautier يحددّ زمنيا، المحطــات الرئيســية التــي قطعتها عملية (الغزو)، مســجلا " أن الغــارات (Courses) العربيــة الأولى، على المغرب، تعود إلى 641 أو 642م، وأن هزيمة البطريــق جرجير وبيزنطية بسُبَيْطلة كانت سنة 647. وتأسيس القيروان كان 670، وجولة عقبة الكبرى التي قاد فيها العربَ إلى المحيط الأطلسي (بدون أية نتائج دائمة) حدثت سنة 683 م؛ والحملة الكبرى الثانية، حملة موسى بن نصير، التي اقتفى فيها أثر عقبة، كانت سنة 708م وأخيرا غزو اســبانيا سنة 711م" [2].

وفي الأخير طرح gautier رقم 641، (الذي يمثل تاريخ وقــوع أول الإحداث المشار إليها)، من 711 ، الذي يمثل آخرَها فتحصل علــى رقم 71، واعتبره "المدّة التي استغرقها الغزو (invasion)، لأنه (فــي نظره) لا ينبغي التسرّع في تسميته احتلالا (conquête)"[3]. ويُبرّر هذا المؤلف رأيه بقوله: "إن العرب تكبّدوا هزائم طاحنــة، مــرّات عديــدة، وطُردوا نهائيا من البلاد"[4] مضيفا "أن عقبة وأصحابه أُبيدوا عن آخرهم،

---

(1) Gautier: op.cit., pp.247-248.
(2) Ibid, p.248.
(3) Id
(4) Id

قرب بسكرة سنة 683؛ وأن زهيرا، بعدما حقق انتصارا عـابرا، سـنة 690، رأى أن الوضعية مُزعزعة، فغادر إفريقية، وانسحب نحو مصر، وأثناء ذلك الانسحاب هُزم وقُتل في برقة؛ وأن حسّانا هُزم في مسـكيانة بسفح الأوراس سنة 698م، وهو يحاول الانتقام لسابقَيْه بجيش قوي جدّا، وكانت الهزيمة ساحقة لدرجة أن العرب انسحبوا، على ما يبـدو، حتـى برقة لإعادة تنظيم صفوفهم، ثم الصمود؛ ضف إلى أن ذلك تمّ في مواقع محصنّة، قصور حسّان، بل نقول خنادق حسّان، وأن القيروان... التـي كانت قاعدة الجيش العربي الأمامية في تلك الحروب الطويلة، كثيرا مـا ضاعت واحتلها المغاربة، عدة مرّات وحوّلوها إلـى عاصـمة بربريـة لسنوات متتالية"[1] ويحاول Gautier تأييد كلامه فيذكر "أن المـؤرخين العرب سجلوا شراسة تلك الحرب"[2] مستشهدا بما قاله ابن خلدون، عـن ابن يزيد، من أن " البربر ارتدوا حوالي اثنتـي عشـر مـرّة بإفريقيـة والمغرب، حاربوا فيها المسلمين في كلّ مـرة" دون إشـارة إلـى ابـن خلدون، مع تعليقه، على رقم اثنتي عشر" بأنـه غير دقيق وهُـوميري (أي خيالي). كما استشهد gautier كذلك بما ذكره "ابن عبد الحكم، أقدم المؤرخين العرب الذين تطرقوا الى غزو (conquête) المغرب، عـن الخليفـة عمـر الـذي يكـون أجـاب عـن طلـب السـماح بغزو إفريقية قائلا:" إنّها ليست إفريقية وإنّمـا هـي المفرقـة الغـادرة (le lointain perfide)؛ لا يغزوها أحد ما مقلت عيناي الماء" ويعلّـق عن هذا الكلام أيضا بقوله: "قد يكون صدور هذه الكلمة التاريخية عـن

(1) Gautier: Op. cit., p. 248.
(2) Ibid, p.249

عمر نبوءة، وهناك احتمال أنها مزوّرة لكنها تُوجِز، بكل تأكيد، في شكل رواية شعبية، عَناء الرأي العام المتأثر بهذا العدد من الإخفاقات"[1].

ومن المبررات التي وجدها هذا الكتـــاب الفرنســـي لِكلامـــه" أن المغرب بعيدٌ جدا عن مصر، القاعدة الجدية الوحيـــدة الممكنـــة للغـــزو (invasion)، ولا يربطه بها سوى طريق وحيد، طوله 2000كلم وهـــو بالإضافة إلى ذلك صحراوي، نقاط مائة نادرة ورديئة، فإذا تمّ تَذكُّر هذا الظرف، بدا الجهد العربيّ مدهشا، لكن المقاومة المغربية أيضـــا: فهـــي تعبّر عن جذور عميقة، ألقتها سبعة قـــرون مـــن الســـيطرة الرومانيـــة والحضارة الغربية، وعلى كلٍّ فإن تلك الحضارة الغربية لم تنهـــار مـــن أوّل إنذار، وأبعد من ذلك، يبدو واضحا، أن الإنسان المغربي أحسّ بنفور شديد، تجاه القادم الجديد. ولم يتم الحصول على نتيجة نهائيـــة إلاّ مـــع موسى بن نصير والتوسع (conquête) في اسبانيا..."[2].

ويعتبر Gautier "كسيلة والكاهنة بطلي الاستقلال البربـــري أيـــام الغزو (l'invasion) العربي. لقد كانا، بطلي المغرب وسيّديْه لســـنوات عديدة"[3] لكن مع ذلك يعترف أنه "لا يكاد يكون لهما تاريخ: فَـــذِكْراهما بقيت غامضة في فنون الأوراس الشعبية (folklore)، جَمَعها صـــاحب كتاب العدواني الذي نشره Féraud... يُوجد اسماهما، حتى بعيدا جِـــدّا عـــن الأوراس، فـــي بـــلاد الســـودان، لـــدى الطـــوارق إيفـــوراس (Iforass)،...: إن خرائب السوق، بِأَدْرار إيفـــوراس، تُلْفِـــت النظـــر، خصوصا بخرائب قليلة لقصر يسمّى كُسيْلةَ (Koceilata)، قصر كسيلة (le palais de Koceila)، وعند استفسار إيفاراس عن هـــذه المســـألة

(1) le passé de l'afrique du Nord, p. 249.
(2) Id
(3) Ibid, p.266

يتخذون من كسيلة اِمرأة، بمعنى أن ذكراه اختلطت بذكرى الكاهنة، بعد أكثر من أَلفيّةٍ لدى برابرة (Barbares) بدون آداب، مع أن هذا البقاء الغامض للأسماء ليس إلاّ صدى لماضي كبير. لقد كان كسيلة والكاهنة كافرين. فحضي أعداؤهم بكامل تعاطف المؤرخين المسلمين. وهؤلاء المؤرخون اختصروا كلامهم، لكنهم جميعا متفقون... وعلى نهج المؤرخين العرب الذين ينقلون كلهم عن بعضهم، فهم يُزوّدوننا بنفس العبارات برواية جافة وغامضة لنفس الأحداث وبدون تعليق"(1).

ويذكّر Gautier بما وجده عقبة، حسب رأيه، من روم وسكان لاجئين في مدينتي باغاية ولمبيسة (Lambèse)؛ و المعركة التي خاضها بتاهرت، تقريبا، ضد الروم الذين تلقوا مساعدة البربر، وما أرشده إليه حليفه الجديد، القمص يُليان في طنجة، من مكان العثور على رؤساء الروم والبربر؛ واشتراك البيزنطيين مع ملوك نوميديّين، في قتله بتهودة، والروم والبربر الذين قاتلوا زهير بن قيس في معركة ممّس؛ ومقتل هذا الأخير في منطقة طرابلس، على يد الروم الذين كانوا يعملون باتفاق مع البربر؛ وما كان للكاهنة من ولد يوناني(2). كلّ هذه الأمور تعني، بالنسبة لهذا الكاتب: "أن البيزنطيين احتفظوا، حتى ذلك الوقت، بحاميات مبعثرة، في قلاع مَنيعة على الجيش العربي، وأن المواصلات بقيت حرة، بين قرطاجة وبيزنطة، والمدن بقيت بيزنطية، واقعا وروحا، وأن بيزنطة موّنت وسلّحت ونَصحت البربر، فوجد العرب أمامهم، آنذاك، كل المغرب مجموعا: اللاّتين والبربر، حضر ورُحّل، وبطبيعة الحال فإن حسّانًا احتل قرطاجة لتحطيم هذا الجمع، لكنه لم يحصل على

(1) Le passé de l'Afrique du nord , pp. 266-267.
(2) Ibid, p.273.

النتائج المرجوة، ما دامت الكاهنة هزمته بعد ذلك بقليل وأجبرته على مغادرة إفريقية. وكان الإغريق واللاّتين في هذه الجمعية أتباعا، مساعدين بُسطاء؛ أمّا القيادة والسلطة فلِملك نوميديا، القائد العسكري الوحيد. لقد حقق كُسيلة و الكاهنة ما يبدو أنه كان حُلْما لِمَاسينيسَا، ذلك الذي قد يكون الرومان تفادوا تحقيقه بتحطيم قرطاجة البونيقية، لقد كانا عمليا ملكيْ قرطاجة، وكان تحت تصرفهما المحاربون النوميديون، إضافة إلى ما تبقى من الجيش النظامي البيزنطي، ومعه موارد المدن وتأييدها المعنوي، وهذا بالطبع ما يفسر عظمتهما. لقد حققا وحدة المغرب لوقت قصير جدا"[1].

ويردّ هذا المؤلف أسباب الانهيار، انهيار المقاومة، إلى أن جراوة كانوا بُتْرا وأن ملكتهم الكاهنة ارتكبت أخطاء، من سوء تسيير واستبداد وظلم، في حق المزارعين وسكان المدن والحضر، فرأوا أن كل ما يعطي قيمة للحياة، في نظرهم، أصبح مهدّدا، ولمسوا، في بضع سنوات من حكم البتر، عدم تفهّم هؤلاء، كليا وبنيويا، لمصالحهم وهذا يمثل الصراع الأبدي، بين البدو والحضر، الذي نجده في كل مكان، والقاعدة الأبدية لازدواجية الروح في المغرب.[2]

في حين أننا نجد، عبر تاريخ المغرب، بكامله، كما يضيف Gautier، تجاذب البدو البربر والعرب إلى بعضهم البعض، لأن تشابه نمط الحياة والعواطف الأساسية أقوى، من اختلاف اللغات... ومن المفارقة أن هذا كان في الوقت الذي أُعجب فيه الحضر بفوائد الخلافة:

---

(1) Gautier: Op. cit., p.274.
(2) Ibid, p.274 sq.

حكومة نظامية، إدارة نظام نسبي، وعلى الأقل الانشغال بحفاظ دافعي الضرائب على كلّ شيء لا تستطيع المدنية الاستمرار بدونه"[1].

وبهذه الطريقة "حدث، بطبيعة الحال، الطلاق بين الأمراء النوميديين وبين رعاياهم في المدن... فكان انتصار الغزو (invasion) العربي؛ وهنا يَكمُن المنعطف الحاسم، وحسّان هو الذي اجتازه، وبإمكان موسى بن نصير أن يأتي، فهو لن يجد أكثر من عدد قليل من القبائل، بدون تنظيم؛ وحقيقة أنه لم يكن هناك خضوع حقيقي، في أيّة جهة، ولكن المقاومة الجدية لم تكن أكثر منه. وبإمكانه أيضا أن يقذف بالإسلام في مغامرة جدية أبعد، في إسبانيا. لاحظوا أنه آخر ظهور تاريخي لنوميديا، سوف لن يُعثر عليها أبدا، في الصف الأول والسبب واضح: وهو أن نوميديا تحولت، شيئا فشيئا، إلى بلاد الشاوية، وما كان قد تبقى في القرن السابع من الثروات الزراعية والمزارعين الرومان زال وتحوّل، وصار الرعي هو المُهَيْمن... وهكذا تكوّن في نفس الإطار الجغرافي، بلد الشاوية التّافِه هذا الذي نراه بأعيننا"[2].

يلاحظ .Marçais G أنه عند قيام والي مصر، عبد الله بن سعد بغزو (envahi) إفريقية، كان الاكسارخوس(l'exarque) جرجير حاكم مقاطعة إفريقية البيزنطية قد تحرّر من سلطة سيّده قنسطانس الثاني (Constant II)، بسبب خلاف مذهبيّ ثم ما فتئ أن أعلن نفسه إمبراطورا، بموافقة محتمله من البابوية"[3].

وكان ذلك عند ظهور العرب، بسبب الخلاف بين المذهبين التوحيدي والأرتوذكسي. وقد وجد Marçais في تلك المناظرات

---

(1) Gautier, p.279.
(2) Ibid., pp.279-280
(3)La Berbérie musulmane et l'orient, p.29

(débats) اللاَّهوتية المثيرة...(ما) يبرهن على الأهمية التـــي اتخـــذتها المسيحية في حياة الأفارقة ومدى اهتمام المســـيحيين بمســـائل العقيـــدة والعبادة... وهو ما يكشف أيضا عن الخلافات المستمرة التي كانت تسود بينهم، ويدفع إلى توقع غياب التضامن، وضعف مقاومتهم لدِعاية ديانـــة أجنبية"[1].

ويقتبس Marçais النص الذي رَوَى فيه النويري أن المســـلمين دخلوا في محادثات مع جرجير، قبل المعركة، عرضوا عليه فيها اعتناق الإسلام ودفع الجزية، فرفض الأمْرين رفضا قاطعا، معلقا عليه بقولـــه: "لا نعرف، بطبيعة الحال ما، إذا كانت الأمور سارت بهذه الطريقة، لكن السيناريو طقسيٌّ، تقريبا، لأن صِدَام الجيوش يجب أن يكون مسبوقا بنداء يدعو الكافر إلى اعتناق الإسلام، وإذا كان هذا الكافر من أهل الكتاب ... سيؤدي خضوعه، دون اعتناق الإسلام، إلى دفع الخراج، وهـــو كـــراء الأرض التي تترك له،أو الجزية، وإنْ رَفَض تلك الاقتراحات لن يبق إلاّ قتاله؛ وفي حالة انتصار الإسلام، تصبح ممتلكاتـــه غنيمـــة، ويمكـــن أن يسلب ويخضع، هو نفسه، للعبودية؛ وبعد سكون الحرب وإحلال السلطة الإسلامية في البلاد، يمكن أن يتمتع الكافر الخاضع بالنظام المشار إليـــه سابقا، حيث يواصل، في ظل بعض القيود، تطبيق ديانته، والاحتفاظ بحق استخدام ممتلكاته، شريطة دفع الضرائب المحدّدة قانونا"[2].

ويلفت Marçais الانتباه إلى أنه" ليس من باب التناقض المَحْضِ القول: "إن الإسلام الذي جعل الجهـــاد (guerre sainte) أحـــد نظمـــه الأساسية، دينُ تسامح، والدليل على ذلك، عدد غير المسلمين الذين كانوا

---

(1) Marçais : op.cit., p p .37-38.
(2) Ibid, p.38

يعيشون في أغلب بلدانه؛ يمارسون فيهـا التجـارة والحـرف والطـب ويقومون بأعباء عمومية، ويُجنّدون في صفوف الجيـوش...(علمـا) أن تواجد هؤلاء الكفار شرط ضروري، تقريبا، لتوازن النفقـات، غيـر أن نظام هذه الوصاية، لا يقوم إلاّ بعد القضاء على كـل مقاومـة مضـادة للسيطرة الإسلامية"[1].

ويرى نفس المؤلف أن العرب حققوا انتصـارا رائعـا فـي أول غزوة(incursion) لجيش إسلامي في إفريقية (غزوة 27 هـ) والتـي اتخذت شكل غارة (raid) أي عملية نهب واسعة، بما أنّها لم تُتْبع بأيـة إقامة و تمّ فيها" القضاء على المقاومة البيزنطية وفُتحت ثغرة خطّ القلاع الأول الذي كانت تعتمد عليه حماية المقاطعة. إن إستراتيجية المنتصرين البدائية، أو قلة الجيش أو أوامر صادرة من المشرق، لـم تمكّـن مـن استغلال تلك الهزيمة."[2].

وقد سجل هذا الكاتب الفرنسي: "أنّنا (كما يقول) نعلم كـم كـان الصراع طويلا في بلاد البربر، ونعلم أيضا ماذا كانت تُمثّله هذه الـبلاد بالنسبة للمشرق: أرض الغنيمة، خزّان للعبيد، بحيث لم يكن للقبائل، التي ليست مسيحية ولا يهودية، الحق في أية مراعاة: لقد رأينا النهب الـذي كانت تُكَافَأ به الحملات الأولى، في الأرياف المحرومـة مـن الـدفاع، وكانت الوسيلة الوحيدة لتفادي النهب والعبودية هي اعتنـاق الإسـلام، وهو ما كان يحدث جماعيا، حتى ولو أدّى الأمر إلـى احتمـال العـودة لمُمَارسات الأجداد، بعد ابتعاد الفرسان مباشرة؛ وإلى تجنب شـروطهم من جديد، بالمجاهرة في ممارسة العقيدة، حال عودتهم إلى الـبلاد: لقـد

---

(1) La Berbérie musulmane et l'orient, pp.38-39
(2) Ibid, pp.29-30.

ورد في نصّ يُستشهد به كثيرا أن بعض القبائل ارتدت أكثر من اثنتي عشر مرّة؛ وإلى تجنب هذا الإنكار، على الخصوص، يعود تأسيس سيدي عقبة للقيروان"[1].

كما سجلّ أيضا أن" انتصار (المحتلّين) على الجيوش البيزنطية والاستيلاء على قرطاجة نفسها، عاصمة إفريقية، وإحدى كبريات المدن المتوسطية، لم يؤديّا أبدا، إلى انهيار بلاد البربر: بقي إخضاع هؤلاء... الذين كانوا في تنافس مستمر، لكن غيرتهم على استقلالهم كانت كبيرة لدرجة تدفعهم إلى التضامن أمام الخطر المشترك؛ وعند تعرّضهم لقوة تفوق قوتهم يتفرقون ويلجأون إلى الصحراء أو إلى جبالهم، بعيدا عن متناول أيادي غيرهم؛ وعند انهزامهم لا يَخْضعون نهائيا. والسلطة التي يفرضها عليهم الأجنبي بصعوبة، لا تبقى إلا إذا تواجد معهم في البلاد... إضافة إلا أن خضوع البعض لا يكون بالضرورة متبوعا بخضوع البعض الآخر، واستسلام الابن لا يُنهي مقاومة الأب؛ وهناك مناطق كثيرة، لا يمكن الوصول إليها عمليا، يستطيع المتمرّدون المكوث فيها طويلا وقد سبق للسادة الرومان والبيزنطيين أن عرفوا ثورات أهلية، فتواصلت ضد السادة العرب، وَوُجدت المقاومة البربرية، من الجنوب التونسي إلى المحيط الأطلسي، مواقعا وقادة كانت أعمالهم أكثر نجاعة من القادة البيزنطيين، وهم بالنسبة إلينا، كما كانوا بالنسبة للشرقيين ولا شك، عبارة عن شخصيات مُتَصوّفة. ومن اللاّفت للنظر وشبه الرمزي (quasi-symbolique) أن يكون أحد الخصوم، الأكثر جدية، للتوسع العربي في بلاد البربر، امرأة: شخصيتها نصف أسطورية، غير أن

---

(1) Marçais: op.cit., p.39

موتها في السنوات الأولى من القرن الثامن الميلادي جعل الانتشار البارز (notable) للإسلام أمرا ممكنا، وحدّد بداية مرحلة حاسمة"[1].

وبعدما لاحظ Marçais أن سقوط قرطاجة وموت الكاهنة، يعبران عن نهاية ما أسماه الفترة البطولية (أي المقاومة البربرية) بحيث "لن يَعرف المسلمون، في البضعة والعشرين سنة التي ستلي، صعوبات بارزة، وهذا لا يعني حسب رأيه، أنّ عهد الحملات قد ولّى، إذ ليس هنا، مَن المسلمين مِن قاد حملات أكثر ربحا من موسى بن نصير لكنّها كانت في شكل جولات عسكرية، وكان الحافز لدى البربر يبدو محطّما بحيث: لم يجرؤوا، أبدا، على المقاومة" كما قال النويري: فالغياب التقليدي لتضامنهم وتشتتهم، سهلاً مهمة الشرقيين، لكنَّ إجرائين عامين قد يكونان أقاما علاقات سلمية بين المهاجرين والأهالي، وهما: الانتشار المنظم للإسلام بين هؤلاء الأواخر، وتجنيدهم الجماعي لاحتلال الأندلس"[2].

ويعتقد Marçais أن عقبة بن نافع، كان في ذهنه، من وراء تأسيس المعسكر الدائم، القيروان، " أنْ يكون له دور ديني بِقَدر ما يكون له دور عسكري... فكان نقطة انطلاق الدُعاة؛ ترك به عقبة بعض أصحابه لتعليم البربر مبادئ العقيدة والعبادة، وبعد حوالي عشرين عاما، وسَّع موسى بن نصير هذا النشاط إلى المغرب الأقصى، ويبدو أنه عمل، بمهارة، على غزو الأهالي فكريا: حيث أنه لم يجمع الحشود من المساجين بل كان يقبض الرهائن الذين يكوّنون، بِتَضَامُنهم مع المنتصر، أهم القوّات الخاصة باحتلال إسبانيا، وحوّل الكنائس إلى مساجد، وبنى أخرى جديدة، مثلما فعل في أغمات، وترك في المصامدة سبعة عشر

(1) Marçais G., Op. cit., pp.28-29
(2) Ibid, p.35

عربيا لتعليمهم القرآن ومبادئ الإسلام، لكن نشر هـذا الـدين بطريقـة منتظمة في إفريقية سيكون في عهد عمـر بـن عبـد العزيـز علـى الخصوص"[1].

ويظهر لـ Marçais أن" التوّسّع الإسلامي، في شمال إفريقية هو أكثر المشاريع، التي حققها الإسلام صعوبة، ليس هناك من البلـدان مَـا كلَّفه جهدا أكبر للسيطرة عليها: حيث لم يتطلب الأمر أكثر مـن أربـع سنوات لإخضاع بلاد النهرين، وسبعا لإضافة كل البلاد الإيرانية، تقريبا، ومكنّت أعمال تدريجية، أُنجِزت خلال سبع سنوات، من إلحاق فلسـطين وبلاد الشام؛ وكان الاستيلاء على مصر وإسبانيا أسرع من ذلك أيضـا، ثلاث سنوات لكلتيهما مثلما كان الأمر في عهد الاسكندر الأكبر، قضـي على قوات المقاومة، في معركة أو اثنتين: إن فلسطين هي أجْنَدَين، وبلاد الشام هي اليَرْمُوك، كل واحدة من هذه البلدان ارتبطت باسم قائد مسلم أو اثنين: فعمرو هو قاهر مصر، وطارق البربري هـو الـذي سيخضـع الأندلس...، والأمر عكس ذلك بالنسبة لبلاد البربر: فقد بـدأت عمليـة إلحاقها سنة 647، ويمكن اعتبار نهايتها حوالي 710م، فلم تكن المسـألة تحتاج إلى أقل من ثلاث وخمسين (53) عاما للحصـول علـى نتيجـة عابرة، مع ذلك، لأن عصر الصعوبات سيُفتح بعد قليل، ولا ينتهـي إلاّ في بداية القرن التاسع..."[2].

وأخيرا يحاول Marçais تفسير تأخيرات وصعوبات عملٍ، كـان ميسورا جدا في أماكن أخرى، كما يقول: فيتساءل ما إذا كـان العـرب اصطدموا هنا بقوة أحسن تنظيما، وواجهتهم بحزم أكبر؟ ويجيـب "بـأن

(1) Marçais: Op. cit., pp.39-40
(2) Ibid, p.27

ذلك لم يحدث إطلاقا، لم يكن لمقاطعة إفريقية ما تجابههم بــه، مقارنــة بجهاز السّاسانيين العسكري، بفرقه التي كان يقودها خمسةُ قادة معروفين وفِيَلَتِهِ الثلاثة والثلاثين الحاملة لأبراج مملوءة برُماة السهام؛ ولــم تكــن تعتمدا، مثل بلاد الشام، على الإمدادات التي ترسلها القسطنطينية بسهولة، ولم تكن مواقع كبيرة للحصار ولا حواجز طبيعية، من أنهــار وجبــال، يصعب عبورها"[1].

ولتبرير تلك المدة غير العادية للأوقات البطولية بــدا، للمؤلــف المذكور، أنه بالإمكان "إثارة عدة أسباب: أوّلها البُعد، الــذي لا ينطبــق على إسبانيا، مع أنها أكثر بعدا أيضا، إنها وضعية المغرب الشاذة التــي أَرْعَبَت الخليفة عمر، منْ قبلُ، فمن الواضح أن السلطة المركزية تغيّــب عن بالها، أحيانا، تلك المقاطعة التي اعتُبرت تابعة لمصر، مدة طويلــة، والتي لم تكن قيمة الاستيلاء عليها مساوية، دائما، للتضحيات التي بُذلت من أجلها؛ ويأتي سبب ثان لتدعيم الأوّل: فَبِقَدر ما كان الغــرب بعيــدا، بقدر ما كان اهتمام المشارقة به أقــل، خاصــةً وأن المشــرق، نفســه، مضطرب بالأزمات... ومن ثمّ كان عملٌ متقطّعا وتأخيرات ممتدة تتطلب استئنافات أكثر حيوية للجهد. وبهذا، أخيرا، يتميز، علــى الخصــوص، إلحاق إفريقيا الشمالية، عن التوسعات (conquête) الأخــرى: تعدّديــة الخصوم، وقوّة المقاومة التي في وسعهم القيام بها..."[2].

وفي تقدير .Terrasse H: أن توسعات (Conquêtes) الإســلام المشرقية تمّت بسرعة فائقة، في حين كان سبعون سنة ضرورية لكــي تسيطر جيوش الإسلام على إفريقيا الشمالية، وقد تكون الخلافة الأمويــة

---

(1) La Berbérie musulmane et l'orient , p.28
(2) Id

بذلت وهي في أوّج قوتها، أحد مجهوداتها الكبيرة في إفريقية، كان لزاما عليها أن تسترجع، بدون انقطاع، العمل المنجز، بوسائل متزايدة. إنّ قيمة جيوش الغزو (invasion) ليست محل شك، إذ كانت لخلفاء دمشق فِرَقٌ حربية ممتازة، وقيادات جيّدة، بدليل الانتصارات الرائعة التي حققتها مرارا بأعداد تبدو ضعيفة، 40.000 رجل في حملة حسّان بن النعمان الأولى. ولا شك أن جهل المسلمين للأرض قد ضايقهم في حملاتهم الأولى، غير أن القادة العرب كانوا في أتمّ الاستعداد لفهم عالم البربر الذي كانت بُنْيتُه الاجتماعية شبيهة ببنية العالم البدويّ؛ فدخولهم الوسط البربري كانت أكثر يُسرا، وكان ذلك بالدبلوماسية بقدر ما كان بالسلاح، على ما يبدو"(1).

ويفسر Terrasse بُطء الاحتلال وصعوباته "برداءة قاعدة العمليات التي كانت القوات الإسلامية تستخدمها...وامتداد الطريق الساحلي الذي يربط الجنوب التونسي بمصر، على مسافة 2000 كلم طولا، تقريبا، ولم يكن في وسع منطقة برقة سوى أن تكون قاعدة ثانوية، ومهما كان البدو متعودين على الصحراء إلا أنه كان من الصعب تموينُ ودعمُ الجيش المقذوف إلى إفريقية، عند اللزوم. ويُفَسّرُ (ذلك) البطءَ و(تلك) الصعوباتِ، على الخصوص، ببسالة البربر العسكرية، وكرههم للأجانب، فألْحقوا مرارا، هزائم نكراء بالجيوش الأموية. ولو كان على الإسلام محاربة غالبية البربر، عوض عقد تحالفات جزئية معهم، يمكن التساؤل عمّا إذا لم يكن الغزو (conquête) الإسلامي قد توقف أمام إفريقيا الشمالية."(2)

(1) Histoire du Maroc, T.1, p.85
(2) Id

وفي اعتقاد Terrasse H. فإن "مقاومة بلاد البربر هذه القوية الضاربة، في عمومها، اتبعت منحنى عجيبا، بعد الصدام الأول: فُتحت البلاد بسهولة كبيرة، أمام عبد الله بن سعد وعقبة، وبعد موت عقبة كانت المقاومة عنيفة، بقيادة كسيلة والكاهنة لتنهار بسرعة كبيرة، عند موت هذه الأخيرة، وكانت خطة المسلمين حتى نكبة عقبة فريدة، فهم لم يحاولوا، بعد سيطرتهم على الجنوب التونسي والساحل، إخضاع شمال البلاد حيث بقي البيزنطيون، وحاولوا، انطلاقا من القيروان، أن يتوسعوا غربا، في بلاد البربر التي كانت خارجة، كلها تقريبا، عن السيطرة البيزنطية، وقد وجدوا، في وقت مبكّر أنصارا ومساعدين، من بين القبائل الزناتية، وكانت غارة (raid) عقبة هي أفضل تطبيق (réalisation) لهذه السياسة: تمكّن من اجتياز ومن ضم مناطق بربرية واسعة، والمغرب الأقصى نفسه، وبقي البيزنطيون والأفارقة المُتَلْتَنين (latinisés)، في كل هذه المدة، على ما يبدو، في موقف دفاعي. ويظهر أن التحالفات الكبرى، بين البيزنطيين والبربر، لم تعقد بعد. وقد تكون انتصارات عقبة هي التي أيقظت المقاومة البربرية، وحرّكت جمود البيزنطيين. وصرنا نرى مع كسيلة، فيما عدا الدفاع عن المواقع المحصنة، دخول جيوش من البربر والروم على المسرح. والمعروف أن المصطلح الأخير كان يطلق على البيزنطيين ورعاياهم المسيحيين. ويبدو أن بيزنطة (Byzance) والنصارى – وربما كان أغلبهم من البرانس- شكّلوا روح التحالفات التي لم تفلح، ولا شك، سوى في جمع سكان شمال البلاد التونسية مع سكان جزء أو كل منطقة قسنطينة وخاصة الأوراس وضواحيه، عوضا عن جمع غالبية البربر. ولم تكن- ولا ريب- لدى قادة إكسارخية إفريقية، فرق عسكرية كثيرة لكنهم كانوا يعرفون كيف

يؤثرون على البربر، وكانوا يَجْمَعون على الخصوص العناصر المسيحية والمُلَتْننة التي كانت لها عقيدة وحضارة تدافع عنهما، على عكس البربر الذين انضموا بسهولة للديانة الجديدة"(1).

فإنْ "أهمل حسّان بن النعمان بلاد البربر التي كانت تظهر لأسلافه بمثابة جبهة قليلة المقاومة، وإنْ ذهب مرّتين للاستيلاء على قرطاجة، قبل الدخول في صراع يريده حاسما، فلا شك أنه عرف مكان رباط التحالف وروح المقاوْمة. وعندما فقد البيزنطيون، نهائيا، قرطاجة، وصارت قواتهم البحرية في وضعية دُنيا، فإن تحالف الروم والبربر تلاشى،وتمت الإطاحة بالكاهنة، ولم يَعُدْ هناك بعد ذلك، ما يُحفّز، إن صح التعبير، ويُنَظِّم المقاومة البربرية: فلم يَجد موسى سوى مقاومات محلية، ووجد دعما في كل مكان، وبطرد بيزنطة من إفريقية، ظهر عالم البربر المتروك لنفسه، كالعادة، ممزقا وغير مستقرّ وبِقَدْرِ ما هو سهل للاخضاع، في بعض الأوقات، بقدر ما هو صعب لإبقاء السيطرة عليه. لم يشارك المغرب الأقصى، في تلك المقاومة الإفريقية والبربرية الكبرى منذ البداية: لقد أخضعته، على التوالي، حملتان سريعتان. حتى وإن وجد عقبة وموسى معارضات (oppositions) محلية، فإنهما لم يصطدما، أبدا، بمقاومة شاملة. ويبدو أنهما بحثا عن الضمّ أكثر مما بحثا عن الحرب، ولم يزد الاحتلال (conquête) الإسلامي، في مناطق كثيرة من المغرب الأقصى، عن إدخال ديانة إضافية و تثبيت أو تدعيم سيطرة عصبية معيّنة أو قائد معين، دون تغيير حياة البلاد تغييرا عميقا. وقد عرف المحتلون الأوائل، المجبَرُون على تنظيم مناطق احتلالهم- أو

(1) Histoire du Maroc, T.1, p.85 sq.

بالأحرى محمياتهم كيف يَكْتفون – ولا شك– بالقليل. ويبدو أن شـــمال المغرب الأقصى، بمعنى المنطقة(pays) المُلَتْننة والمسيحية، هو الـــذي قاوم المحتلين أكثر، لكن المسلمين جرّوا قبائل كثيرة منه إلـــى احــتلال (conquéte) إسبانيا الذي بدأ سنة 709م"[1].

ويتوقف Terrasse عند نظرية Gautier فيعرضها قائلا:" لقــد شرح قُوتْييه الفترتين الأخيرتين من هذا التاريخ– ذروة المقاومة البربرية وانهيارها المفاجئ بحذق جذّاب. وبالنسبة لهذا المؤلــف، كمـــا يضـــيف Terrasse، فإن تاريخ بلاد البربر كلّها، في نهاية الحِقْبَة القديمـــة مـــن تاريخ العالم، وخلال جزء كبير من القرون الوسطى، يفسره التنافر الدائم بين مجموعتين كبيرتين: البرانس والبتر. ويمثّـــل البـــرانس السّـــكّان المستقرين، ويمثّل البتر البدْو الذين أصبحوا جمّالين، منذ دخول وانتشار الجمل في شمال إفريقيا، حوالي القرن الثالث الميلادي، وقـــد لا يكـــون التعصـــب العرقـــي، بـــين البـــرانس والبتـــر، حقـــق ســـوى إخفـــاء المواجهة(opposition) التي لا تقهر، بين الحضر والبدو. وقـــد تُفسَّـــر الهزائم ثم الانتصارات النهائية للهجمات الإســـلامية علـــى أســـاس أن البرانس سبقوا بتنظيم مقاومة ضدها ثم بعدهم البتر، وقد يكون بـــرانس كسيلة، وهم حسب Gautier مسيحيون، ونصف مُلَتّنـــين فعلـــوا ذلـــك باتفاق مع البيزنطيين وسكان المدن، وعلى العكس من ذلك، فإن جَـــرَاوة الكاهنة الزّنَاتيين ربما كانوا بدوا، قليلي التعوّد على حياة التعـــايش مـــع المدن وهم، بدون شك، متهوّدون. وقد يكون البدو، آنـــذاك، اضْـــطَهَدوا الحضر وسكان المدن، وخرّبوا إفريقية في النهاية، وتفكّك التحالف الذي

(1)Terrasse: Op. cit., pp.88-89.

نجح، حتى ذلك الوقت، في التصدّي للجيـوش الإسـلامية، وانهـارت المقاومة البربرية التي صارت شأن البتر وحدهم"[1].

ويرى صاحب كتاب "تاريخ المغرب الأقصى" أنه على الرغم من بساطة هذه النظرية وضخامتها فهي لا تقوم على سَنَد، وهي خاطئة فـي مبدئها: إذ لا يمكن التعرف على المجموعتين العرقيتين المصطنعتين جدا واللّتَيْنِ يعرّفهما ابن خلدون بنَمَطَيْ حياة تقَاسَمَا، دائما، شـمال إفريقيـا. فهناك حضر قدماء وبدوٌ، في كل واحدة من المجموعتين: بحيـث شـهد زناتيون، حضر أو رحل، في كل العصور، فضلا عن أن صنهاجة، وهم برانس، كان من بينهم، دائما، عدد من الرحالة والبدو الكبار... وقد أنجرّ Gautier وراء هذا الخطأ الأولي، ممّا أدى به إلى تحريف المعنى وحتى إلى اتباع طريق التخيّل في تكملة الوثائق النادرة، المـوجزة والغامضـة التي تحدّثنا عن المقاومة البربرية... نحن نجهل مـا إذا كـان جـراوة الكاهنة بدوا. ويرجّح انتشارهم، في الأوراس وضواحيه، بـالأحرى، أن يكونوا حضرا. فنظرية Gautier المنبثقة عن فرضـية غيـر مبـررة، مرفوضة إذا. ومن الممكن إعطاء هذا التاريخ تفسيرا أقلّ طموحا لكـن أكثر تلاؤما مع الوقائع النادرة المكتسبة أو المحتملة، وكذلك مع جغرافية الاحتلال (conquête) الإسلامي... والأمر يحتاج إلى تخصيص مكـان عادل، في توسع (expansion) الإسلام، إلى حماسة الـدعوة الدينيـة. ومن المعقول أن يؤخذ بعين الاعتبار، عند الحديث عـن مقاومـة بـلاد البربر الشرقية، عمق الشعور المسيحي الذي كان يحّـرك جـزءا مـن سكانها، فإن تمّ الاتفاق على وجود فرق في سلوك عناصر برنسية وبين

---

(1)Terrasse, op.cit., p.86

عناصر بترية، ينبغي ولا شك، البحث عن الأسباب في العرقية والديانـــة وليس في نمط الحياة"[1].

وينطلق Julien (Ch. A.) ممّا أسماه" النتائج المرئيّـــة الضـــخمة للاحتلال العربي" لمحاولة تعرّفه على المقاومة البربرية له، فيذهب إلـــى القول: "إن الإسلام وإفريقيا الشمالية متطابقان بقوة، لدرجة تُنْسي بسهولة ثمن الصراع الذي كلّف المشـــرق الإســـلامي لاســـتعادة (recouvrir) الغرب البربري.... واعتناق الأهالي للإسلام هو الـــذي يُـــذهلُنا، وقـــد حدثت، كما يؤكد Gautier، "ثورة هائلة، اجتازت البلاد فيهـــا الحـــاجز المسيك (étanche) الذي بقي بين الغرب والشرق، في الجهات الأخرى. وبالمقارنة مع قفزة كهذه، في المجهول، فإن ثورتينا: الفرنسية والروسية تبدوان مسكينتين". إنّ المغرب لم يقم بهذه القفزة، في المجهـــول، عـــن طيب خاطر، بل من المعروف أن مقاومته كانت طويلة وعنيفة، وسيكون من باب التهوّر انتظار أكثر من هذا اليقين: ليس هنـــاك أرشـــيف، ولا روايات لِرحّالة أجانب، ولا كتابات تاريخية أُروبيّة؛ وتنبغي العودة إلـــى إخباريين عرب، متأخرين جدا عن الأحداث، لتكملة الكتابات المنقوصـــة وقلة المسكوكات وغياب النصوص الموثوق بها"[2].

ويتساءل Julien عما إذا كان" يجب التخلي، من أجل كل ذلـــك، عن كلّ تدقيق؟ (ثم يجيب بأنه يكاد يميل إلى هذا الرأي) أم ينبغي الإقدام، بعد Gautier، على وضع بعض التنظيم لفوضى الحروب والتمـــرّدات وسقوط الممالك، بمحاولة تفسير واستكمال الأخبار العربية؟ وهذا المنهج إن لم يكن هو الأحسن، يشكّل على الأقل، المواساة الوحيدة وهو يحتوي

(1)Terrasse: Op. cit., p.86 sq.
(2) Histoire de l'Afrique du nord, T.2, P.11.

عنصرا ذاتيا لم يستطع نجاح كتاب "قرون المغرب المظلمة" (Les siècles obscurs du Maghreb) الباهر، إزالةَ أخطاره ... ويمكن أيضا، مثلما فعل حديثا .Marçais G، دراسة النصوص بعناية واستخلاص ما يمكن منها: مجموعة من الحقائق، لا يمكن إهمالها، وعلامات استفهام كثيرة، مع عدم نسيان وضع كل شيئ في سياقه التاريخي..."[1].

وبعدما قام صاحب كتاب "تاريخ إفريقيا الشمالية" بعملية مسح لأهم ما وقع من أحداث، في بلاد المغرب، أثناء القرن الأول الهجري (7-8م)، منذ أن وطأته أقدام العرب، إلى مقتل الكاهنة على يد حسان بن النعمان الغساني[2] والتي "انتهى بمقتلها، كما قال، عهد الدفاع البطولي"[3] راح يَعْرِضُ ما أسماه" معادلة البرانس + البتر = الحضر + البدو". وهكذا سيَظْهَر النزاع الأبدي، بين الحضر والرُّحل، في المقام الأول، وستضيء هذه المقاربة (opposition) تاريخ بلاد البربر، بصفة خاصة، إن كان بالإمكان ملاءمته مع الترتيب الذي وضعه ابن خلدون وإيجاد الحقيقة الجغرافية والاقتصادية تحت التخيل (fiction) العرقي. وهذا ما حاول (.Gautier (E. F في إحدى تلك النظريات الجريئة التي تُجبر على إعادة التفكير في التاريخ التقليدي. وقد يكون الجَمّالَةُ... هم البربر الذين يطلق عليهم المؤرخ العربي تسمية البتر، وهم أحفادُ جدٍّ خياليّ، هو مادغيس الأبتر، في حين أن الحضر قد ينتسبون إلى البرانس الذين قد يكون جدّهم هو برنس، ولا تتكون كل مجموعة من أقرباء ولكن من سكان ذوي حياة متطابقة. وبهذا قد تُفسَّر الحواجز التي وجدها

(1) Julien: op. cit., pp.12-13.
(2) Ibid, p.13 sqq
(3) Ibid, p.22

الاحتلال (conquête) العربي، وكذلك الانشقاق الذي مكّنه من الانتصار، فلم يتطلب إخضاع قدماء (vieux) مدنيّي إفريقية أيُّ جهد، لأن إقامة حكومة نظامية، ضرورية لحياتهم وأعمالهم، كانت تهمّهم أكثر من الحريّة، لكنّ مأساة اجتماعية أصابت على نوميديا، منذ عهد الوندال: فقد كان الرحالة الصغار وخاصة الرحالة الكبار الجَمّالِين يُبعِدون، تدريجيا، مزارعي عهد السيطرة الرومانية. وقد تكون هاتان المجموعتان من السكان، مجموعة البرانس ومجموعة البتر، جسّدتا بالتناوب، المقاومة البربرية، أوْربة الحضر بقيادة كسيلة وجراوة الرحل بقيادة الكاهنة، وقد تكون ثورة الحضر ضد أساليب الرحل هي التي فصلت في انتصار الغزاة (Envahisseurs) ومكنتهم من دفع توسعاتهم ونشر دعواتهم (conversion) نحو الغرب، وهنا يستدل julien بما يستنتجه Gautier: بأنّ "البدو والحضر لم يتمكنوا أبدا، في المغرب، من التعايش مع بعضهم، دون أن يتقيأ بعضهم البعض الآخر، فكان نجاح الغزو العربي وهنا يوجد المنعطف الحاسم الذي اجتازه حسّان"(1).

ويعلق Julien على نظرية Gautier قائلا:" إنها تمكّن، إذاً، من تفسير حالة الغزو العربي تحديدا... وإنه ليبدو مستحيلا لوليام مارسي (Marçais W.) دمج البتر في الرحل والبرِانس في الحضر "لأنّ جزءا كبيرا من زناتة، الممثلين البارزين لفرع البتر كانوا، ولا شك، جمّالين ولكن يصعب إعطاء صورة الرحالة الكبار إلى بتر آخرين كثيرين... (كما) أننا نجد من بين البرانس أكبر الرحالة، على الإطلاق، صنهاجة الصحراء... إن نظرية Gautier (E. F.)، المُغْرِيَة جدا من جهة أخرى

---

(1) Julien: Op. cit., pp. 22-23

ينبغي أن تُرفض، إذا، فيما لها من نسقية كبيرة. غير أنها تبرز التأثيرات الاجتماعية للاحتلال (conquête) العربي، ومن هذا الباب تستحقّ أن تُؤخذ بعين الاعتبار، لقد لوحظ، مرات عديدة، واقع يتمثل في خروج البدو، أوقات الأزمات السياسية، من عزلتهم وظهورِهم في بلاد الحضر للاستفادة من الضوضاء... فبعد الاضطرابات المعتبرة التي سببها الغزو الإسلامي، على شرق إفريقيا الشمالية، على الأقل، ليس من الغريب أن يظهر الرحل على المسرح. وتُشدّد نظرية Gautier، من جهة أخرى، على أهمية طرق الحياة التي تختلط بشدة (étroitement) مع روابط الدّم، والتي يميل إخباريو اللغة العربية، إلى بخس قيمتها، بسهولة،مع إصرار انشغالهم بالعرقية. والأمثلة كثيرة عن قبائل منحدرة مبدئيا، من نفس الجدّ لكنها مكوّنة، في الواقع، من عناصر خليطة، متقاربة بطريقة معيشية واحدة. وتخيُّلُ التبنّي وحده هو الذي أعطاه خاصية الوحدة العرقية التي تشبّث بها المغرب كلّه بشّدة. وفيما يخصّ الدور المتبادل لكسيلة والكاهنة فإن توضيحه، بالاعتماد على النصوص المتوفرة، غير الموثوق بها والمتناقضة، يظهر أنه من باب التهوّر فشخصية كسيلة الحيوية جدًّا" أوّل بطل للاستقلال البربري، أخذت تتضح كثيرا على مرّ القرون: إن البلاذري لا يعرفه بتاتا، والبكري جعله يفرّ من طبنة أمام موسى بن نصير ومنتحل ابن قتيبة جعل موته سنة 702، في حرب مع موسى نفسه على ممر نهر ملوية، وابن عبد الحكم لا يعرف كثيرا، ما إذا كانت موت عقبة بن نافع تنسب إليه أو"إلى ابن الكاهنة" وقد يعتبرهما، في الواقع، شخصا واحدا. وليس هناك، من بين هؤلاء الإخباريين القدماء، من ينسب إلى "كسيلة صفة رئيس أوربة" بالإضافة إلى أنه لا يوجد، ما يسمح بتحديد مجال سكناها الرئيسي في الأوراس، أثناء الاحتلال العربي... بقيت نظرية

الأوراسين التي اقتبسها Gautier (E. F.) من Masqueray. فقد تكـون اعتَمَدَتْ على تمييز مؤسّس على أخطاء كثيرة، وهي مرفوضة اليوم مـن كل النـاطقين بالبربريـة، لأن أطروحـة (thèse) Masqueray عـن ازدواجية أرض الشاوية، ما بين لهجة أُراسيّي الغرب، المنحـدرين مـن رعايا كسيلة، ولهجة أوراسيي الشرق، المنحدرين من رعايا الكاهنة، تبدو كثيرة الهشاشة... فظروف المقاومة البربرية تُخْفِي، إذاً، علـى فضـولنا، وليس هناك ما يمكن فعله في ظل الظروف الراهنة، سوى التّـذكير مـن جهة، بترجمة (vulgate) الاحتلال (conquête) كما جرت عادة أخـذها من المؤرخين العرب، باختيار لا يستجيب دائما، إلـى متطلبـات مُلحّـة وناقدة، و من جهة أخرى، عَرض الفرضيات (hypothèses) والمناقشـة التي أوْحَت بها الرواية الشعبية إلى عقلين نافذين بوجه خاص. هل معنـى ذلك أن محاولة Gautier غير مفيدة؟ بعيدا عن هذا، وبغضّ النظر عـن موهبة الكاتب الطيبة، يبقى أنه ألحّ أكثر، من سابقيه على التمييز بين "أهل مساكن الشّعْر" و"أهل مساكن الطّين" وأظهر كل النتائج التي يستطيع مؤرخ مُبَطّن بجغرافي أن يستخلصها منها..."[1].

ويسجل Bousquet (G. H.) "أنّه لم تمض عَشر سنوات علـى وفاة النبـي محمـد (Mahomet) (صـلعم) حتـى اسـتولى خلفـاؤه (successeurs) على جزء من بلاد البربر: بـلاد برقـة سـنة 642، ومنطقة طرابلس، على أبواب شمال إفريقيا سنة 643؛ وقد وقعـت أول غارة على الممتلكات البيزنطية بالبلاد التونسية سنة 647-648؛ ثـم إن الاضطرابات الداخلية التي هزّت الإمبراطورية العربية، تركت بعـض

(1) Histoire de l'Afrique du Nord, T.2, p.22 sq.

الاستراحة (répit) لتلك المناطق. وقد أسس المحتل (conquérant) عقبة بن نافع القيروان، في البلاد التونسية سنة 670، وهذا تأريخ مألوف (traditionnel) لكنه محلّ خلاف (... ثم شرع في احتلال (conquête) شمال إفريقيا بكامله. وليس هناك ما يؤكد أنه وصل إلى المحيط الأطلسي، ولو أنّ الأمر يبدو محتملا في أيامنا لكن مقاومة البربر الضارية، مُدّة سبعين عاما على الأقل، أمرٌ واضح: فما يسميه العرب "ردّاتهم" المتكرّرة، لم تكن سوى ثورة سياسية برعايا غير خاضعين بما فيه الكفاية والذين لم تكن الدّيانة الجديدة ، بالنسبة إليهم، سوى مظهرا من مظاهر القهر الأجنبي، إضافة إلى أن حملة عقبة انتهت بكارثة؛ وانتظمت المقاومة بقيادة كسيلة وقُضي على القائد المسلم سنة 683... في معركة ضدّ البيزنطيين والبربر، وتراجع العرب إلى ما بعد بَرقَة في سيرِنايكة (Cyrénaïque). لكنّ كُسيْلة قُتل بدوره سنة 686. وعندئذ أعيد تنظيم المقاومة بالأوراس، حول امرأة، هي الكاهنة (المتنبئة) (La prophétèsse) التي حققت عدة انتصارات، في حين أسس العرب مدينة تونس سنة 698. وبعد ذلك بقليل قُتلت الكاهنة، بعدما أرْسلت ولديها إلى العدو..."[1].

ويقتبس Bousquet من الأستاذ (Maître) ولْيَام مَارْسي (Marçais W.) ما ذكره من:" أن بلاد البربر، قطعت صِلَتَهَا بالغرب، في القرن السابع (الميلادي)، لترتبط بالمشرق، نهائيا وبلا رجعة، وعلى ما يبدو، بدون انشقاق داخلي، وبدون أزمة ضمير. وقد تمكّن سادتها (Maître) الجدد العرب، فيما بعد، من الكفّ عن ممارسة السلطة

(1) Les Berbères, Que sais –je, Presses universitaires de France, Paris 1957, p.47.

المباشرة عليها. إذْ استطاعوا إعادتها إلى نفسها، لكنّهم وَسَموها ببصمة ثابتة، حيث عرّبوها لدرجة أن المغرب اليوم، بكامله تقريبا، يمكن أن يعتبر مقاطعة قصوى، ومختلفة المراكز للعروبة"[1].

ويعلّق Bousquet على هذا الكلام قائلا:" يصعب عليَّ عدم التفكير في أن هذه النتيجة، إن حقّقت فلأنّ ذهنية المحتلين (Conquérants)، كان لها، عموما، تجانس مع ذهنية البربر أكثر مما كان عليه الرومان..."[2].

(1) Bousquet, Op. cit., p.45.
(2) Id, p.·45.

بيبليوغرافيا

باللغة العربية:

- البكري أبو عبيد، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

باللغة الأجنبية:

- Bousquet G. H.: Les Berbères, Que sais- je, Presses universitaires de France, Paris, 1957.
- Brémond G.: (2)Berbères et Arabes, La Berbèrie est un pays européen, Payot- Paris.
-Caudel:M. les premières invasions arabe dans l'Afrique du nord ,21-78/641-697 j. c.
- Fournel H.: Les Berbères, 1875, T. 1.
- Gautier E. F.: Le passé de l'Afrique du Nord, Payot- Paris, 1937.
- Hamet Ismail ,Note complémentaire sur l'origine des Foulane ou peuplades Foulbé du Soudan, Revue africaine, n° 228, 1899.
- Julien Ch. A.: Histoire de l'Afrique du Nord, Payot- Paris, 1966, T. 2.
- Marçais G.: La Berbèrie musulmane et l'orients au Moyen Age, Paris 1946.
- Mercier E.: Histoire de L'établissement des arabes dans l'Afrique septentrionale, Constantine- Alger 1875.
- sidi Okba,ses expéditions dans l'extrême sud,Revue africaine, n°23, 4ème trimestre, 1898.
- Pellat Ch.: Dans Encyclopédie de l'Islam, nelle éd., Leiden New York, Paris, 1993, T. VII, art. Mu'Awiya B. Hudaidj.

Provencal E. Lévi: Dans Encyclopédie de l'Islam, nelle éd., Leiden- Paris, 1936, T. III, art. Okba B. Nafi'a.
- Talbi M.: Dans Encyclopédie de l'Islam, nelle éd. leiden- Paris 1978, T.4, art. Al- Kahina.
- : dans Encyclopédie de l'Islam, nelle éd, leyde – paris 1990, T.III, art. Hassan B. Al- Numan al- Gassani.
- : dans Encyclopédie de l'Islam,E.I.,nelle éd, Leyde- Paris, 1960, T.1,art. Abd Allah b.Sa'd
- : dans Encyclopédie de l'Islam, E.I. nelle éd., Leiden- Paris 1986, T. V, art Kusayla b. Lemzam.

- : dans Encyclopédie de l'Islam, E. I, N[elle] éd. Leiden- New York-Paris, 1993, T. 7, art. Musa b. Nusayr.
- Terrasse H.: Histoire du Maroc, des origines à l'établissement du protectorat français, éd. Atlantides, Casablanca 1947, Livre II.

فهرس الموضوعات

ISBN 978-9931-394-02-0

9 789931 394020

وزارة الثقافة الجزائر
ALGERIE
MINISTERE DE LA CULTURE

نشر توزيع
الدار الوطنية للكتاب